الكسندر تشاكوفسكي

ضياء نجم بعيد

دار التقدم. موسكو

ترجمة وصفي البني

Александр Чаковский

СВЕТ ДАЛЕКОЙ ЗВЕЗДЫ

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

ч $\frac{73302 - 103}{016\,(01) - 77}$ 568 – 77

ليس يفنى الشعراء
بل هم مثل النجوم،
حين يعروها انطفاء،
وسرى النور يدوم...
فلكم شع علينا،
في الليالي،
عبر اجيال خوال،
ومسافات طوال،
ما اراقوا،
وهم قيد الحياة،
من ضياء...

يو. اوزغا – ميخالسكي

سألت لينا، وقد لحقت بزافيالوف:

ـ أتذهب للنزهة على الشاطئ؟

ـ كلا.

ـ وماذا تنوي ان تفعل؟

ـ لست ادري. لا شيء. سابقى لوحدي بعض الوقت. ساقرأ المجلة.

ـ المجلة؟ أهي «الشعاع» القديمة؟

ـ نعم.

ـ لست افهم شيئاً. ـ ورفعت لينا كتفيها ـ اذا كنت لا تريد التنزه، فلِمَ كان خروجك من القاعة؟

ووقفت امامه بفستانها الاحمر، الملائم لها تمام الملاءمة، صبية، جميلة. مضت ثلاثة اسابيع على وجودها في دار الراحة هذه على ساحل ريغا، ومر اسبوعان على تعارفها مع زافيالوف. كانا يذهبان معاً في الامسيات يشاهدان فيلم اليوم، ثم يمضيان الى النزهة على الشاطئ، اذا كان الطقس جميلاً، او يجلسان في رواق البناء الرئيسي، اذا كان الجو بارداً، او يعتزلان في

غرفة زافيالوف، اذا ما امطرت السماء، اما الجار فكان يفضل اللعب بالورق على الشرفة المسيجة بالزجاج.

ما كان يخامرها الشك في انها تروق لزافيالوف، وانه يعتزم البقاء في دار الراحة مدة ثانية، ولقد كانت الآن تنتظر ان يطلب زافيالوف منها ايضاً البقاء. وأن يقول، طبعاً، اثناء ذلك، انه «سيأخذ على عاتقه تدبير كل ما له علاقة بهذا»، ولقد قررت الموافقة، على ان يبدي، طبعاً، بعض الالحاح.

حين كانت لينا عارفة بالمسرى الذي ستتخذه حياتها في الاسابيع المقبلة، كانت قد ركنت الى الاطمئنان، فقد كان من عادتها ان تكون متوترة الاعصاب وهي في طريقها الى الجنوب وبعد ذلك خلال الايام الاولى في دار الاستراحة، الى ان يبدأ احدهم بمغازلتها، فتقرر في دخيلة نفسها ان هذا الرجل «جدير بان تحط عنده الرحال». ومنذ تلك اللحظات كانت تحظى بالاستقرار النفسي، لانها كانت عارفة بكل شيء من قبل.

اما الآن فقد خامر لينا شعور بقلق مبهم. وما كانت بعد لتعلم لذلك سبباً. فلم يحدث، في الحق، اي شيء غير مألوف. كانا جالسين في قاعة السينما، في انتظار بداية العرض. وكان ينبغي ان يعرض عليهما فيلم يمثل فيه جيرار فيليب الجذاب، وقد سبق للينا ان شاهدته ذات مرة ايام المهرجان السينمائي، في موسكو، في شارع غوركي، فكانت تعتبره الى حد ما من معارفها.

وكان ثمة شيء من الخلل لدى القائم على تشغيل الجهاز السينمائي، فتأخر العرض، وراح زافيالوف يقلب بتكاسل

صفحات مجلة مصورة كان قد اخذها من قاعة الانتظار. وانطفأ النور، اخيراً.

وفي هدوء كانت لينا تنتظر لحظة يمسك زافيالوف بساعدها متعمداً، بحركة عفوية لا ارادية — تلك الحركة التي يحسب كل رجل انها خاصة به وحده. ولكن زافيالوف كان جالساً بلا حراك. والتفتت اليه لينا، فرأت، ويا للعجب، انه ما يزال يتأمل صور المجلة، مع ان القاعة باتت غارقة في الظلمة.

واخيراً، ظهر على الشاشة معرف لينا القديم، جيرار الجذاب، باذنيه الكبيرتين المفلطحتين كاذني الطفل — هو نموذج لن يبلغه احد من الرجال الذين عرفتهم في حياتها. واذ ذاك، وعلى نحو مباغت، نهض زافيالوف بعنف، ومضى في طريقه الى المخرج، دون ان يقول كلمة واحدة للينا.

لبثت مترددة بضع ثوان، الا انها بعد صراع داخلي قصير الامد، تركت جيرار، ومضت هي ايضا نحو المخرج.

وعند الباب، القت نظرة اخرى على الشاشة، وكانت قد ظهرت عليها ممثلة شهيرة، اسمها من اطول الاسماء التي عرفتها لينا، ولها، كما اتفق لها ان سمعت، اجمل صدر في العالم.

وها هي لينا الآن واقفة امام زافيالوف، تستمع الى اجوبته السخيفة المقتضبة التي اكدت فقط شبهاتها بان شيئاً ما قد حدث له. ولكن الامر يتعلق برجل جذاب في الرابعة والثلاثين من العمر، عازب، كان في السابق مقدماً طياراً، وهو الآن مدرب رئيسي في احد اندية الطيران في موسكو.

ما كانت لينا هذه، على العموم، بذات حظ في حياتها. كانت على جانب كبير من الجمال، وما كانت قط ببليدة. كانت تنتمي لذلك الصنف من النساء اللواتي تلاحقهن نظرات الرجال، وعلى الاقل الكثيرين منهم.

كانت لينا حسنة الهندام. التعويض الشهري الذي كانت تتناوله بعد موت زوجها، والنقود التي كانت تكسبها كمصورة — منمقة، مع انها كانت قليلة، الا انها كانت كافية. كانت تحظى بالنجاح لدى الرجال، فكان لديها على الدوام «واحد ما»، وها هو زافيالوف قد بات الآن هذا «الواحد». كانا واقفين تحت المصباح، والنور الطريّ يغمر فستانها الاحمر المتوهج الذي كان يلف قامتها لفاً محكماً، وينحدر انحداراً خفيفاً بين الساقين الطويلتين، ويتلألأ تحت ضوء المصباح تلألأ حراشف سمكة غريبة في بحار الجنوب.

ومن جديد، قالت لينا، محاولة ان لا يبدو عليها اللجاج:

— لست افهم شيئاً. لعلك قد انزعجت؟ الجو خانق جداً في القاعة.

فاجاب زافيالوف وهو ذاهل:

— كلا، كل شيء على ما يرام.

«ولكن ما الذي جرى له حقاً؟!» — هذا ما هتفت به لينا في اعماق نفسها وراحت تتطلع الى زافيالوف بنظرات لا تريم عنه. كان مستنداً بظهره الى عمود المصباح الحديدي، ممسكاً بيده تلك المجلة ذاتها مطوية على شكل انبوب. كلا، ان زافيالوف، في الظاهر، ما يزال هو هو. جاكيته الرمادي

ملقى على كتفيه. شعره مشرق، كأنما قد حال لونه. وكذلك العينان مشرقتان، ثابتان، لا تكادان ترفّان.

كل شيء في مظهره، خلا العينين، كان مهضوماً لدى لينا ومستطاباً لديها كل الاستطابة. ينبغي، في رأي لينا، ان يرتدي الممثل، او المخرج، او المصور السينمائي بنطالاً اشد ضيقاً. وانها لتغفر لوكيل الوزير ان يكون بنطاله عريضاً جداً. اما من كان مثل زافيالوف، ضابطاً عاملاً سابقاً، وشخصاً جدياً — الا انه ليس بالعسكري الفظ بل «فاهم كل شيء» — فينبغي ان يلبس مثل هذا البنطال بالذات، لا ضيقاً ولا عريضاً. وما كان للقميص «الديموقراطي» ذي الصفين من الازرار ان يلائمه، بَلْهَ القميص المصوّر الهوليودي. وفق الطلب تماماً بزة التنس الوطنية المعتدلة. فقد كان في اعتقاد لينا ان كلاً ينبغي ان يبدو كما هو. المخنث ينبغي ان يكون مخنثاً، والرفيق القائد قائداً، اما الطيار المسرح المستظرف البالغ من العمر اوسطه، فينبغي ان يكون مثل زافيالوف. فقد كان كل شيء فيه يبدو مهضوماً جليّ المعاني. كل شيء، خلا العينين. فقد كانتا احياناً تخيفان لينا. لعل زافيالوف كانت لديه هذه النظرة حين كان يخوض القتال على قانصته او قاذفة القنابل. ولكن ليس ينبغي للرجل ان يتطلع الى المرأة التي يحب بمثل هذه النظرة!

ما كان في وسعها ان تفهم شيئاً. اللهم الا شيئاً واحداً فقط: ينبغي ان لا تبدي لجاجاً.

وبلهجة طبيعية للغاية قالت لينا:

— اذن فانا ذاهبة الى القاعة لاكمل مشاهدة الفيلم. وبعد ذلك سنذهب الى النزهة على كل حال. هل ستكون هنا؟

— محتمل.

وتمالكت نفسها لوقتها من ان يرتفع كتفاها نتيجة للصدمة النفسية التي المت بها، ومضت الى القاعة، وكعباها المعدنيان العاليان الرفيعان يقرعان الطريق المبلط بالاسمنت قرعاً شديد النبرة.

وما كان هو يتعقبها بنظرته.

مضى زافيالوف يسير على رمل الشاطئ البحري المرصوص المندّى بعض الشيء. وكان الوقت متأخراً. والنزهة المسائية كانت، حسب العادة، على وشك الانتهاء. وببطء راح مستحم ليلي يدخل الماء ويرفع قدميه عالياً، ويمضي طويلاً الى مدى بعيد من البحر غير العميق قرب الشاطئ، الا انه لم يستطع قط الغوص في الماء.

واقبل مصور على رأسه قبعة عريضة، مرتدياً بنطالاً ابيض، ملطخاً بالاوساخ، مشمراً الى ما فوق ركبتيه. باحدى يديه كان يجر على الرمل مسنداً لآلة التصوير، وبالاخرى، كجرار السفن، كان يسحب في الماء الرقيق قارباً ذا شراع ملفق.

وبمحاذاة الماء تماماً، كانت تسير، بخطوات بطيئة، فتاتان، هما «عروستا البحر» في تلك الاماكن، مرخيتين شعرهما المبلل، لابستين ثياب الاستحمام، مخلفتين وراءهما على الرمل الاسود المندى مواطىء عميقة سرعان ما كانت تمتلئ بالماء.

وراح مختثان متخطيان سن الشباب، لابسين سروالي سباحة من التريكو مطرزة عليهما صور سفن، ومنتعلين القباقيب،

يحاولان اللحاق بعروسي البحر الماضيتين الى امام. واسرع المتصابيان، وانفاسهما تكاد تتقطع، وصلعتاهما تلمعان تحت ضوء القمر.

وكان ثمة رجل جسيم كهل، جالساً على ركبتيه يكوّن من الرمل هيكلاً جانبياً لامرأة ضخمة.

وراح رجال بثياب العمل يحملون المقاعد الثقيلة من اماكنها لوقت الليل ويسحبونها الى مكان ما في الداخل، بعيداً عن الشاطئ، عن البحر: فقد كانت السلطات المحلية تحرص على عفة منتجعي الراحة وتقيهم من مغريات الليل.

وكان فتى طويل الساقين، ضيق المايوه، اشبه باله صغير، واقفاً قرب فتاة رشيقة القوام متلفعة ببرنس حمام. كان ملقياً احدى يديه على كتفها، وبالاخرى يحمل ترانزستور تنبعث منه موسيقى ناعمة. وكانا معاً، الاله الصغير وصديقته، يتطلعان باستمرار صوب الافق.

ومرت سيارة شحن، تقرقع بصناديق ملأى بالقمامة.

وراح زافيالوف يقول لنفسه: «وماذا عليّ ان افعل؟ الى اين اذهب؟ لا مكان اذهب اليه. ليس يمكن عمل شيء ما دمت هنا. في موسكو فقط يمكن ان يتضح كل شيء. هناك فقط».

ولكن لعله على خطأ؟ وكيف لم يخطر له حتى الآن انه على خطا، وان ذلك خداع بصر، واضغاث احلام، وسراب؟

ولكن لا، ما هذا بخطأ. مثل هذه الاخطاء لا تحدث. والا فما افظع الحياة. ليس يمكن ان يكون هذا خطأ. وهو، ولله الحمد، لم يسبق له قط ان وقع في الاوهام. لا في تلك السنوات

التي كان يعتلي فيها متن الاجواء، ولا في هذا الوقت وهو يمشي على الارض وحدها.

واذا كان هذا مع ذلك خطأ؟ لقد ارهبه الآن التفكير بانه على خطأ مع ذلك. انه لفي رهبة للمرة الاولى بعد سنين طويلة مضت على ذلك الوقت الذي حظروا فيه عليه التحليق في الجو، وربطوه الى الارض مدى الحياة؛ منذ ان قصوا جناحيه وسمع انه قد اصبح في الاحتياط. اذ ذاك وللمرة الاخيرة شعر بالخوف. ولقد قال انه لن يستطيع المسير على الارض، لعلمه ان لن يحلق ابداً في السماء. واعترض عليه ذلك الشخص، قائلاً في دعابة ان ملايين من الناس يمشون على الارض، ويعتبرون هذا طبيعياً تماماً ولا يتطلعون قط الى السماء. واجاب زافيالوف: الناس — صحيح، ولكن ثمة ايضاً طيور؛ هي ايضاً تحط على الارض بل وتجوب ارجاءها، ولكن حياتها في السماء. واذا الطير قصّ جناحاه فقدت حياته معناها.

وبعد هذا ما شعر زافيالوف بالرهبة قط. وكان يعتقد انه قد عانى جميع المخاوف المقدورة عليه. ولكن هو ذا اليوم...

ظل يتمشى وقتاً طويلاً على الشاطىء المقفر وفي رأسه تدور فكرة واحدة بذاتها. وما عاد في وسعه ان يفكر في شيء.

عاد ادراجه اخيراً. ما من احد جاء لملاقاة زافيالوف، وما من احد كان يسير الى جانبه. كان الوقت جد متأخر بالنسبة للذين ينامون في الوقت المحدد، وجد مبكر للذين ينتظرون العتمة الكاملة.

«حسن اني هنا لوحدي» — هكذا فكر زافيالوف، الا انه ادرك على الفور انه مخطئ. فقد كان ثمة شخص آخر ما يزال على الشاطئ، يضيئه نور القمر، المحجوب بستار رقيق من الغيوم. انه ذلك الرسام نفسه، او النحات، او الهاوي مجرد هواية، ذلك الكهل الجسيم الذي كان يبدع من الرمل هيكلاً جانبياً لامرأة.

وتوقف زافيالوف حين وصل الى جوار هذا الرجل. وما كان هو نفسه يعرف لماذا. فما كان مهتماً بعمل الفنان. كل ما في الامر انه لا يريد العودة الى البيت. فقد بدا له انه اذا ما رجع فلن يعود في وسعه التفكير بما كان يفكر به الآن.

— ايوه، كيف؟

هكذا، على غير انتظار، سأله الرجل وهو يحبو فوق الرمل على اربع، يدوّر ذقن المرأة بخشبة صغيرة.

فاجاب زافيالوف وقد فوجئ بالسؤال:

— ماذا «كيف»؟

فقال الرجل دون ان يرفع رأسه، كما كان من قبل:

— انك واقف هنا منذ خمس عشرة دقيقة. لعل في وسعك ابداء رأيك.

— لست من اهل الخبرة، ولكنه، في رأيي، شيء جميل.

بهذا اجاب زافيالوف، وهمّ بالعودة والانصراف. ولكن الرجل استأنف كلامه:

— شيء جميل... اي... وه ... ولكن ما لك لا تسأل على ملامح من اصنع كل هذا؟

– لست افهم...

هكذا بدأ القول زافيالوف، الا ان النحات قاطعه قائلاً:

– لا تفهم؟ هذا ايضاً كلام في مصلحتك. سبق ان مر ثلاثة حمقى، فسألوا، وهم سائرون، لماذا انحت ما دام كل عملي سيدوسه غداً باقدامهم المستحّمون وهواة اللعب بالكرة الطائرة على الشاطئ.

فقال زافيالوف:

– صحيح، ان هذا الخطر قائم فعلاً. فلعله كان جديراً بك ان تختزل المقاييس؟

ونهض الرجل وقال:

– كل شيء ينبغي ان يكون كما ينبغي ان يكون. الاهرام لا يمكن ان تكون مصغرة. وليس ينبغي ان يكون ابو الهول تمثالاً صغيراً. وهذه القطعة – واشار بالخشبة الصغيرة الى التمثال – ينبغي ان لا تكون صغيرة.

– ممكن، – قال زافيالوف موافقاً لمجرد اللباقة ثم ما لبث ان سأل على نحو لم يكن يتوقعه قط: – وهل هذه المرأة حية ترزق؟

فهتف النحات قائلاً، وفي صوته حرقة احس بها زافيالوف:

– وكيف لا؟ انها، اذا كنت تريد ان تعرف، زوجتي.

فقال زافيالوف بدافع من اللباقة ذاتها:

– يا لها امرأة جميلة!

– اي نعم؟ هكذا يبدو لك؟

هكذا سأل المثال وهو يعدّل بابهام قدمه خط العنق على التمثال، واردف يقول:

– يعني، اني قد وفقت لجعلها مثلها بالضبط. على انها كان في مقدورها ان تكون اوفى نصيباً من الجمال. ولكنها غير موجودة بعد. لقد خسرت كثيراً في حياتي، ولكن هذه كانت افدح الخسائر. وانت متى خسرت شيئاً ما للمرة الاولى في حياتك؟ ولست اقصد، بالطبع، خسارة موسى صغيرة، ولا محفظة.

فقال زافيالوف:

– كان ذلك لعشر وثلاث من السنين خلت.

فنظر اليه الرجل الجسيم في امعان. ثم قال:

– الحق اني ما كنت اتوقع جواباً محدداً. لقد ادهشتني.

رفع زافيالوف كتفيه الى اعلى وقال:

– اني ذاهب.

فقال المثال «وداعاً» وهو ما يزال يتأمله بامعان.

ولكن ما كاد زافيالوف يخطو بضع خطوات حتى سمع صوته من ورائه:

– انتظر!

وحين التفت زافيالوف، قال النحات:

– اود ان اهديك هذه القطعة، هذا الرأس.

– هدية؟

– بلى! انها لك. لقد انهيتها تقريباً.

– ولكن كيف لي أ...

– كلا، كلا، لست اعرض عليك ان تأخذها معك، ولكنها لك. اني اهديها لك.

«انه غير طبيعي»، بهذا فكر زافيالوف، وقال:

– شكراً.

– اذهب. اما انا فسوف اسوّي هذه الاذن بعض الشيء اذا سمحت. شحمة الاذن حادة بعض الشيء. اما انت فاذهب. اكيد ان لك نظاماً محدداً تتقيد به. اذهب. ولتصبح على خير!

انه لوحده، من جديد، يتمشى على الشاطئ. ثمة الآن سكون تام. عتمة الليل باتت اشد. فالقمر يكاد لا يرى. كانت تغطيه مزق من السحب.

واخيراً ينزل المستحم الليلي الوحيد الى الشاطئ، ويروح يقفز طويلاً تارة على رجله اليمنى، وتارة على اليسرى.

وتلد العتمة العشاق.

انهم يسيرون، متضامين، والرمل الرطب يكاد يئن تحت اقدامهم.

ومن مكان ما في الاعالي مرقت في الظلمة بسرعة خاطفة طائرة نفاثة محدثة ضجة ما كان يمكن ان تصدر في وقت آخر الا عن الريح والبحر ساعة الاعصار الشديد.

ومن جديد يسمع صرير الرمل الرطب تحت اقدام نافذة الصبر.

وابصر زافيالوف، وبتعبير ادق، حزر لينا وهي ما تزال بعيدة. كانت مقبلة عليه، والسحب قد انزاحت قليلاً لتتيح للقمر ان يلقي نظرة على هذه الحسناء الممشوقة ذات الساقين الطويلتين بفستانها المفصّل من النسيج اللماع.

قالت لينا:

– طول المساء وانا ابحث عنك. السينما انتهت منذ وقت بعيد. وانت كنت لا تريد الذهاب الى الشاطئ؟

– غيرت رأيي، فالمعذرة.

فسألت لينا، وقد امسكت بساعد زافيالوف:

– وهل ذهب كل شيء، على ما آمل؟

فقال زافيالوف:

– كلا، لم يذهب.

– ولكن عليك ان تحكي لي مع ذلك ما الذي جرى؟ أيمكن ان اكون انا مسؤولة بعض الشيء؟

وراح زافيالوف يقول في نفسه: «ماذا ينبغي ان اقول لها؟ ماذا ينبغي ان اقول مما لا يجرح مشاعرها؟ يسير، طبعاً، ان اوضح لها كل شيء ببضع كلمات. ولكني لا استطيع ان افوه بها. في وسعي ان اقول لأي كان، حتى لذلك النحات، اما لها فلا. وقد لا تصدّقني هي. الراجح انها قد لا تصدّقني. او ستعتبرني من الحمقى».

وقال زافيالوف:

– عسير عليّ، يا لينا، ايضاح الامر كله. على انك انت لا علاقة لك بالامر. كل ما في الامر ان ما رأيته في مجلة «الشعاع» قد اثار في نفسي ذكريات...

فهتفت لينا في انشراح، وهي تشد على ساعده بمزيد من العنف والثقة:

– هذا كل شيء؟ يا الله، وانا التي كنت اظن...

واخذت بيده نحو الشاطئ، وهي تقول دون توقف:

– اما انا فما كنت استطيع ان افهم شيئاً. رحت استعرض كل شيء في ذاكرتي، فما تذكرت شيئاً يستحق الذكر. كنت طول النهار شخصاً طبيعياً، اذا بك فجأة كمن اصابه مكروه...

كانت لينا، اول الامر، تتكلم في ملاينة ثم راحت نبرة الغضب تتبدى في صوتها شيئاً فشيئاً. فاذ ادركت انها انما كانت في انفعال لدواع تافهة، راحت من حيث لا تشعر تنتقم لنفسها من زافيالوف على انفعالاتها العقيمة.

ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها: فالرجال لا يحبون النساء الغضوبات المماحكات. وقالت لينا مصالحة:

– لن نتكلم عن هذا. ولكنك، اذا شئت الاعتراف بصراحة، قد افسدت عليّ الامسية. وتعويضاً عن هذا ستقضي امسية الغد معي. فور انتهائنا من تناول طعام العشاء سنمضي الى الشاطئ ونذهب بعيداً بعيداً. مليح؟ قرب ذلك الصياد. هل تذكر؟

وكان زافيالوف يذكر...

لقد ذهبا، والعتمة لم تحل بعد، والرياح الشديدة تعصف. وكان الشاطئ قد بات خالياً الا من اناس مستلقين بين الكثبان محميين من الرياح، لابسين برانس الاستحمام.

كانت لينا ترتدي فستاناً ابيض، تجهد الرياح لانتزاعه عنها، ولبعثرة شعرها الطويل المسرح تسريحة رائعة، فغطت رأسها بمنديل زافيالوف الكبير – فهي لم تجلب معها الشال. الدوّارات الرملية الصغيرة كانت تهب لملاقاتهما، اما هما فكانا يواصلان المسير، والى اليمين منهما يصطخب البحر البارد

المتموج، والى اليسار تمتد الكثبان والغابات. اما الى الامام، فما كان غير الرمال والرياح.

وكانت الظلمة قد بدأت تحل حين بلغا مركز الصيد. وهناك كانت شبكة منشورة فوق الاوتاد للتجفيف، وصيادان – شيخ وفتى – يطبخان طعامهما في طنجرة؛ والرياح، لسبب غير معروف، لم تطفئ النار الصغيرة. وتوقف زافيالوف ولينا قليلاً قرب النار، وتبادلا بضع كلمات مع الصياد اللاتفي، ثم قفلا راجعين.

الرياح الآن تعصف من ورائهما، وقد بات المسير ايسر، الا انهما مع ذلك كانا جد متعبين، فجلسا على الرمل يستريحان. ولكن الرياح كانت باردة عليهما، فذهبا الى الكثبان، واضطجعا هناك اتقاء للريح. واستلقيا متضامين تضامناً وثيقاً طلباً للدفء، اما بعد ذلك فقد حدث كل هذا.

عادا الى البيت جد متأخرين، والابواب باتت جميعها مغلقة، اما الدروب فتتسطع فيها انوار المصابيح ذات اللون الابيض الحليبي والشكل السوسني. واضطر زافيالوف لان يقرع الباب، ويوقظ المناوبة، وينفحها بضعة دريهمات، ويتمتم انهما قد سافرا الى ريغا بالقطار الكهربائي وفي طريق العودة طرأ عطل على القطار.

... واذ ذاك قال زافيالوف:

– لينا، اننا لن نستطيع مساء الغد الذهاب الى اي مكان.

فقالت مغضبة بصوت خافت:

– ولكن لماذا؟

– لأني لن اكون هنا في الغد. سأسافر بالطائرة صباحاً.

فاطلقت لينا ساعده الذي كانت لدقيقة خلت تشد عليها شداً وثيقاً.

– ولكن كيف هذا؟! – لقد بدا لزافيالوف ان كلماتها التعجبية كانت تنم عن الشعور بالمهانة والاستياء يثيرهما شخص كان، وان يكن لوقت قصير، على علاقة بها، بامرأة تحبه وان يكن حباً غير عنيف جداً بعد، الا انها مع ذلك تحبه، اما هو فيهجرها هكذا فجأة بدون اية اسباب.

ولكن هذا كله بدا لزافيالوف وحده. وما كان يدور في ذهن لينا اي شيء من هذا القبيل. كل ما في الامر انها كانت تريد التعبير عن شعورها بالاستياء للخروج على الاصول المعترف بها لدى الجميع. لقد اصيبت بخيبة أمل. فالآمال التي كانت تعلقها على تمديد الاقامة انهارت، وبقي عليها ان تتجول لوحدها اسبوعاً كاملاً كالحائرة لأنه لن يأتي قادمون جدد للاستراحة اثناء وجودها، اما القدامى فانهم جميعاً، ممن استطاعوا وارادوا، قد «قرروا مصيرهم» منذ وقت بعيد. وسيكون عليها الآن ان تتسكع مع الوحيدات من النسوة اللواتي تخطين سن الشباب وتكذب عليهن كذبة ما عن الدعوة الملحة التي تلقاها زافيالوف من موسكو. وأن تؤكد الى جانب ذلك انهما قد تواعدا على اللقاء هناك، في موسكو، في شارع غوركي، قرب دار البرق المركزية او مسرح ييرمولوفا.

ولكن زافيالوف بدا له ان لينا متألمة. فقال باكثر ما يمكن من اللطف:

– اعذريني، يا لينا. لقد كنت جد مسرور معك. ولكن كل شيء قد تغير الآن. وما انا بقادر على ان اشرح لك كل هذا...

فقالت لينا بقساوة:

– بل ينبغي.

فسارع الى القول موافقاً:

– طبعاً، ولكن... لا استطيع... سيكون هذا غير مفهوم لديك، وسيبدو غير صحيح... فانا نفسي ما ازال غير متأكد...

وامسكت لينا بساعدي زافيالوف، وراحت تتكلم بسرعة، وهي ملتصقة به:

– لن تذهب... سنبقى...

انتزع ساعديه بلطف ولكن بحزم وقال:

– لا، يا لينا. هذا غير ممكن. اعترف بان تصرفي معك غير حسن. ولكن، صدقيني، لست استطيع البقاء. ساتصل بك هاتفياً، في موسكو، اذا سمحت. ولكن ينبغي ان اذهب غداً مهما كلف الأمر. أتفهمين، مهما كلف الامر!

ولقد فهمت الآن انه سيذهب. وليس في الوسع فعل شيء. الامر جد مكدّر! ولكن ما الذي جرى مع ذلك؟ وعلى مَ وقع في المجلة المهترئة؟ لقد تصفحت المجلة، قبل ان يأخذها زافيالوف من قاعة الانتظار. لا شيء فيها يسترعي الاهتمام. انه عدد قديم من نيسان (ابريل). بل ان صفحاتها غير كاملة: انها منتزعة. ولكن لعل هذا كله كذب، وتعلل. اغلب الظن ان له زوجة، وان احدهم قد «رشّ» لها في موسكو عن لقاءاتهما، فتلقى برقية تهديد بالحضور...

ولكن ليس يمكن هذا. فقد كانت جميع الرسائل والبرقيات توضع قبل الغداء على طاولة صغيرة قرب مدخل المطعم، وكانت لينا تذهب لتناول طعام الغداء قبل زافيالوف، لتأخذ بريدها وترى في الوقت نفسه أليس يكتب له احد ما.

وما كان من احد يكتب لزافيالوف. وما تلقى خلال المدة كلها غير رسالتين – واحدة من موسكو، والاخرى من لينينغراد. وكان اسما المرسلين، المسجلين على الغلاف، اسمي رجلين. وقد قال لها هو نفسه ان احدى الرسائل واردة من طالب قريب له، والاخرى من فتى راغب في الانتساب الى نادي الطيران. وهل يمكن ان يكون قد تلقى رسائل من «شباك البريد»؟ كلا، انها لم تلاحظ ولا مرة انه قد ذهب الى دار البريد. فما الذي جرى اذن؟ يا لله، كم كل شيء في الحياة قُلّب، فليس يمكن الثقة بشيء!

اجل، الامر جليّ، لقد انتهى كل شيء. فلا جدوى الآن من كبح جماح النفس، وفي الوسع ان تطلق لنفسها العنان لتعبر له عن كل رأيها فيه، وتنصرف في كبرياء وتعال.

و كانت لينا قد باتت على استعداد لهذا كله، ولكنها عثرت بشيء، فجأة، فوقعت على الارض.

وامسك بها زافيالوف، وساعدها على النهوض. ورأت ان قد انكسر كعب حذائها، العالي، الرفيع، نصف المعدني، كعب آخر مودة – «المسماري».

وسأل زافيالوف بعطف واهتمام:

– هل تحسين وجعاً؟

– كسرت كعب حذائي. – اجابت لينا، وانحنت تخلع حذاءها.

وعلى نحو غير متوقع منها هي نفسها، راحت تجهش بالبكاء. وقد راحت هذه المرة تبكي بكثير من المرارة وكثير من الصدق، فقد كانت ترثي لحالها، ترثي لهذا الكعب الاجنبي الذي لا يمكن اصلاحه في اية ورشة. وهي الآن مضطرة لأن تدور في ريغا باحثة عن مصلّح احذية خاص، وتدفع مبلغاً كبيراً من المال...

وفجأة ادركت لينا ان مواصلة الحديث مع زافيالوف لم يعد لها اي معنى. فادارت ظهرها بعنف ومضت صوب دار الراحة، تنشج بالبكاء، وتعرج، وتهز فردة حذائها، وقد باتت بثيابها غير شبيهة قط لا بالسمكة الغريبة، ولا بتلك الحسناء الرشيقة، التي بدت لزافيالوف منذ وقت جد قريب.

٢ ـ قبل حين من الزمن

الى اين اذهب الآن؟ الى دار الراحة؟ الى هناك، حيث تشع المصابيح ذات اللون الابيض الحليبي، والناس ما يزالون يتزاحمون على الدروب المفروشة ببلاط من الاسمنت، واما الشرفات المسيجة بالزجاج فما يزال يسمع منها وقع حجارة الدومينو العظمية على طاولة عتيقة؟ وعلى المقاعد يجلس الآن الازواج. وانهم ليتعقبون بالنظرات كل من يمر على مقربة منهم. الفتاتان المستخدمتان، لوبا وتوسيا، تنقلان الطاولات في صخب في المطعم الفارغ، اما المناوبات الجسام بمآزرهن المتسخة بعض الشيء، والمزنرة بشرائط من الشفوف، فانهن يتأهبن لاغلاق مداخل الابنية. وجار زافيالوف في الغرفة، المحاسب في احدى مؤسسات نوفوسيبيرسك، يضع على الطاولة الصغيرة قرب سرير نومه ترمساً ملأه بالشاي الساخن، يشربه لدى استيقاظه في الليل.

ينبغي له ان يعود ادراجه، ويروح يجيب على اسئلة المحاسب، اين كان وماذا كان يعمل، ثم يأوي الى سريره، فوق الغطاء الرطب، ويطفئ النور، ويستلقي في العتمة بلا نوم... ذلك لأنه بالتأكيد لا يستطيع ان ينام ...

ايه، لو ان لديه طائرة! واحدة من تلك التي مرت على يديه منذ اعوام كثيرة خلت. ولتكن مخرّقة بطلقات الرصاص، شريطة ان يكون الخزان غير مثقوب. اذن لكان اوغل في السماء، على ان لا يكون الآن مربوطاً الى جوار المحاسب...

وكان زافيالوف الآن واقفاً في العتمة الكاملة، والسحب قد غطت القمر بستار صفيق. يبدو ان المطر يوشك ان يهطل. والبحر يصطخب، والريح تعصف، تماماً كما حدث في تلك الليلة الرهيبة، حين كان الظلام حالكاً، والبحر صخاباً، والريح عاصفة، اما هو فكان واقفاً، محاطاً بحشد من الناس، ينقضّون على رصيف ميناء لا تكاد تبصره العيون في الظلمة، ـ كانت تدنو باخرة للرسو فيه. كان ذلك في السابع عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤١. عشية ذلك اليوم كان قد جرى شيء ما في موسكو. وما كان زافيالوف اذ ذاك يعرف ماذا بالضبط. سيول من الناس راحت تتدفق فجأة على الطريق المعبدة نحو المدينة الكبيرة القائمة على نهر الفولغا، حيث كان موجوداً مصادفة في طريقه الى مدرسة الطيران.

وكان قد جاء الى هناك من موسكو منذ بضعة ايام، و ـ يا لحماقة المصادفات! ـ جرحت قدمه بسبب لبسه على غير عادته حذاء شديد الاتساع. والتهب الجرح، واضطر لقضاء خمسة ايام في المستشفى.

وبعد ذلك، لم يستطع خلال يومين الحصول على بطاقة سفر في الباخرة...

كانت هي التي اقتربت منه اولاً في الميناء، حيث كان

مئات من الناس يتزاحمون على الشبابيك المقفولة لشراء البطاقات. كان يرتدي معطفاً عسكرياً عتيقاً «سابق الخدمة»؛ وكان هويعرج، وكان من الممكن اعتباره جريحاً من الجبهة يمكن ان يدبر لها بطاقة سفر بسرعة.

فاقتربت منه، صغيرة، نحيلة، ذات عينين واسعتين محمرتين من البكاء، تسحب حقيبة محزومة بزنار نسائي، والتمست منه المساعدة.

ولقد وُفّق فعلاً لمساعدتها — فقد احس بفيض من النشاط يغمره، وانخرط في صف الانتظار مع الواقفين من الجيش الاحمر ونفر من العجزة ذوي العكاكيز. قبل ذلك بدقيقة واحدة ما كان يخطر في ذهنه ان يندفع هكذا الى العمل. وقد اخذ بطاقتين له ولها، وبعد ذلك خرجا معاً من الميناء الى شاطئ الفولغا. كان ذلك في وقت مبكر من الصباح، والبواخر في تلك الايام ما كانت تقلع للسفر الا ليلاً.

وقضيا ذلك النهار كله معاً. وحدثته ان اسمها اوليا، وانها باتت وحيدة، وحيدة تماماً، وانها قد اتمت السابعة عشرة من عمرها منذ وقت غير بعيد. قتل ابوها عند مدينة سمولنسك، اما امها فكانت قد توفيت منذ بضع سنوات. وهي، في هذا الربيع فقط، انهت مدرستها الثانوية وراحت تستعد للانتساب للمعهد الطبي، واما الآن فانها ستشق لنفسها الطريق الى بيت عمتها التي تعيش في آستراخان.

وكذلك حكى لها زافيالوف كل شيء عن نفسه، وما مضى نصف ساعة حتى عرفت ان اسمه فولوديا، وانه في التاسعة

عشرة من العمر؛ وهو ايضاً موسكوفي، وكان ايضاً يستعد لدخول المعهد هذا العام. ولكن بدأت الحرب، وحصل على توجيه بالانتساب الى مدرسة الطيران، وسيكون على الجبهة بعد نصف عام، وذلك، طبعاً، اذا لم يتم تحطيم الالمان حتى ذلك الحين...

ولقد شعرا فجأة انهما، في هذا العالم المتغير بغتة، هذا العالم الصارم بل القاسي، اكثر دفئاً بعض الشيء وهما معاً، فلم يفترقا طول النهار. وتبين في المساء ان باخرتهما لن تسافر الا بعد اربع وعشرين ساعة. وما كان ثمة من مكان يأويان اليه في الليل، فقضيا الوقت حتى الفجر جالسين على مقعد من مقاعد حديقة رصيف الميناء الصغيرة.

وفي الليل حاول فولوديا ضمها الى صدره بكثير من الارتباك. كان يخادع نفسه ويحاول ان يخدعها هي بانه انما يضمها اليه بغية وقايتها من البرد، بغية رفع قبة معطفها الصيفي الرقيق. وبسرعة تخلى ساعداه الصلبان غير المرنين عن اوليا. وبدا له انه على استعداد لكل شيء شريطة ان يدفئها ويدخل السلوى الى نفسها ويدفع عنها اي خطر، ويخرجها من هذه الحديقة، من الظلمة الى النور، الى الحياة السابقة المعقولة الطيبة.

وراح يقنعها بان تنام، ولو اغفاءة قصيرة، وتضع رأسها على ركبتيه ام على كتفه. اما هو فسيظل بلا حراك ساعة تنام. او فلتسترح على طرف المقعد على النحو الاوفق لها، وسيجلس هو قربها على الارض، فوق كيس امتعته. ولكنها اجابت: كلا، كلا، انها لا تستطيع الرقاد في مثل هذه الليلة.

ثم سألت:

– ماذا سيصير، يا فولوديا؟ ماذا سيصير الآن؟

وراح يجيبها بتلك الكلمات التي كان يمكن سماعها، غالباً، في تلك الايام، والاسابيع والشهور:

– هذا كله موقت، موقت... عما قريب سيتخذ قرار!... ستدخل قوى الاحتياط... واذ ذاك...

وصمتت اوليا. هي ايضاً كانت على ثقة من هذا. ثم سألت بعد قليل:

– وهل سيعود كل شيء؟

– كل شيء، كل شيء سيعود.

بهذا هتف فولوديا، وما لبث ان صمت؛ وفي ليلة القلق تلك دوّى صوته بكثير من الشدة وكثير من البهجة.

كانت قطرات المطر تتساقط على وجه اوليا، فيبادر هو الى مسحها بكفه.

وبصوت جد خافت، يكاد يكون همساً، سألها فولوديا:

– هل تشعرين بالبرد؟

فاجابت اوليا بصوت بالكاد يسمع:

– كلا، اني في دفء.

فقال مصراً:

– كلا، انك تشعرين بالبرد. ساخلع معطفي واغطيك، هل تريدين؟

– كلا، كلا، حقاً اني في دفء! اول الامر شعرت بالبرد بعض الشيء، اما الآن فاني احس الدفء تماماً.

ولكنه نهض واقفاً، وخلع معطفه بسرعة، وراح يدثر اوليا به. ولقد تمنعت ودفعت المعطف بيديها، وهي تكرر القول: «كلا، كلا، انك هكذا ستبرد!» – الا انها امتثلت بعد ذلك، واسبلت يديها، وبقي هو نفسه، وقد البسها المعطف، بقميص من القطن صيفي.

وسرعان ما ابتل قميصه، اما فولوديا فما كان يحس رطوبة ولا برداً. فقد كان يمسك بيديه يدي اوليا الصغيرتين المحمرتين من البرد، ويحس كيف تليناں اذ يحل عليهما الدفء، وكان مسروراً بذلك سروراً لم يسبق له ان شعر به من قبل.

وشعر فولوديا فجأة بالرغبة في ان يقول لها شيئاً هاماً، هاماً جداً. الا انه لم يستطع النطق بهذه الكلمات، فهو نفسه لا يدري ما يود ان يقول لها على وجه التحديد، بل كان يشعر مجرد شعور بالرغبة في الكلام. ولقد كان ينظر اليها باستمرار، آملاً بانها ستفهم من غير كلام انه يريد ان يقول لها شيئاً جد خطير وجد حسن، الا انه لا يستطيع، لا يعرف كيف.

في تلك اللحظات لم يكن فولوديا قد ادرك بعد انه قد احب هذه الفتاة. وفي الحق، انه ما كان يفكر في هذا. ففيما مضى ايضاً كان الفتيات يرقن لفولوديا. وقد كان له من العمر خمسة عشر عاماً فقط حين قبّل للمرة الاولى فتاة من بنات صفه. وكانت له بعد ذلك لقاءات مع فتيات، وما من مرة حاول ان يقنع نفسه بانه عاشق. فما ان يحل اليوم التالي حتى يعترف فولوديا فجأة بان كل شيء قد انتهى، وان ليس ثمة ولا كان اي حب، وأن يذهب مع الفتيان مساء اليوم للتزلج على الجليد، اذا كان

الوقت شتاء، او الى ملعب «دينامو»، اذا كان الوقت صيفاً، امتع له مئة مرة من ان ينتظر هاتفاً «منها».

ما كان يعرف بعد في تلك السنوات ان اولى علائم الحب الحقيقي رغبة المرء في ان يأخذ على عاتقه المسؤولية عن مصير شخص آخر. وليس يمكن للمرء ان لا يحمل هذه المسؤولية، فما هي بالنسبة له عبء ثقيل، بل سعادة.

وان فولوديا الآن، وهو بعد غير عارف بانه يحب اوليا، لمستعد لكل شيء، لاية تضحية، على ان لا يصيب اوليا برد، على ان لا تسقط قطرات المطر على وجهها، على ان تبتسم ولا يعود ينغصها الخوف.

ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئاً. لم يستطع ان يفعل غير ان يمسح بكفه قطرات المطر عن وجهها، غير ان يرفع قبة معطفها الرقيق البارد، غير ان يهمس في اذنها كلمات غامضة تؤكد ان سينتهي عما قريب كل هذا — الحرب، والظلام، والبرد. وهؤلاء الناس الحاملون حقائبهم واكياسهم وصررهم سيختفون، ويعودون اولئك المواطنين العاديين الذين كانا يلقيانهم في الشوارع، كل يوم وكل ساعة، يعودون اناساً ينصرفون الى مشاغلهم باطمئنان، ثم يرجعون الى بيوتهم، فيشعلون النور، ويفتحون الراديو. وسيصير كل شيء مثلما تكون الحال دائماً في الحياة العادية.

ومضى الليل، وبزغت الشمس الخريفية الباردة. وتطلعا فاذا الحديقة قد تحولت الى مخيم من مخيمات الغجر. وبدلاً من الغجر بثيابهم الزاهية الالوان، كان ثمة اناس جالسون على

المقاعد، وعلى الحقائب، وعلى الاكياس وعلى بطانيات مفروشة مباشرة على الارض الرطبة، عليهم ثياب اهل المدن، اما معاطفهم، وبنطالاتهم، وتنوراتهم، واحذيتهم، فقد كانت ملطخة بالاوساخ. وكان احدهم يحاول اشعال نار للاصطلاء، ولكن الرياح التي كانت تهب من الفولغا كانت تطفىء اللهب.

وتشبث فولوديا واوليا بزاويتهما من المقعد. فقد ظلت اوليا جالسة عليه ريثما ذهب فولوديا الى المدينة يشتري ما يأكلان. وعاد يحمل خبزاً ومخلل خيار وبضع تفاحات. ثم ذهبت اوليا بعد ذلك، في منتصف النهار، لشراء المأكولات. ولبث فولوديا ينتظرها وعيناه شاخصتان في قلق الى الطريق.

وهكذا مضى نهار آخر. وقبيل المساء بدا لهما انهما يعرفان احدهما الآخر مدى الحياة، وما من احد اقرب منها اليه، ومنه اليها. ومن جديد اقبل الليل. واولئك الناس الذين كانوا يجلسون في الحديقة، واولئك الناس الذين بارحوا المدينة لتوهم، راحوا الآن يتكدسون على ضفة النهر قرب الميناء.

وبعد قليل زمجرت باخرة غير مرئية في الليل، تنطلق منها شرارات النار، فاندفع السيل البشري الى الامام، نحو رصيف الميناء.

ودفر احدهم فولوديا دفرة قوية في ظهره فافلت منه ساعد اوليا، فاذا هما فجأة يفترقان، ويفصلهما الجدار البشري احدهما عن الآخر. وكريشتين في مهب الرياح حمل كل منهما الى جهة غير التي حمل اليها الآخر.

وصرخ فولوديا: «اوليا!»، ولكن لم يجبه احد. وناداها مرة اخرى بصوت اعلى: «اوليا، اوليا!»، ولما لم يتلق، هذه المرة ايضاً، جواباً، اندفع بشكل جنوني يخترق الزحام بكوعيه.

وبدا له ان سيل الخلائق قد حملها الى امام، نحو رصيف الميناء، فراح يشق الزحام الى هناك صوب النار المشعة.

وكانوا يدفعونه، ويقرّعونه، الا انه ما كان يسمع شيئاً، ولا كان يحس شيئاً، انما كان فقط من حين لآخر يناديها: «اوليا، اوليا!» وقد كان صوته الشجي الملتاع من القوة بحيث غطى على الاصوات الاخرى، على صخب الرياح، وعلى هدير المياه، وعلى بقبقة الوحل تحت الاقدام الزاخرة.

وبغتة تقصف وانكسر شيء ما هناك، في المقدمة، قرب رصيف الميناء، واندفع فولوديا الى الامام، نحو الماء، على الصقالة مباشرة، قرب حطام الحاجز المرفوعة الى اعلى، الى جانب البحارة الذين كانوا يتقاذفون الشتائم بعنف وشدة، ويجهدون لكبح جماح السيل البشري...

وما ادرك فولوديا انه قد بات على الباخرة الا لحظة زحموه بشدة على درابزين سطح الباخرة. ومن جديد راح يصرخ: «اوليا! انت هنا؟.. اوليا!» ومن جديد لم يأت منها جواب.

واقلعت الباخرة ومضت صوب الظلام. وراح رصيف الميناء، الذى كان الناس ما يزالون يغيرون عليه، يتلاشى في الظلمة، وشيئاً فشيئاً اخذت الضجة المنبعثة من الماكنة ومن المراوح التي كانت تشق عباب الماء، تغطي على صيحات الناس هناك، على الشاطئ.

2—871

كان فولوديا واقفاً على سطح الباخرة قرب الدرابزين. ما استطاع ان يخطو خطوة واحدة، ولا استطاع ان يتحرك. كانت انفاسه منحبسة في صدره فهو يتنفس بصعوبة. واحس بألم شديد في رجله وقد اصيبت بعطب في ذلك الزحام؛ اكيد ان الجرح قد انفتح من جديد، وبدا كأن قد وقعت في الحذاء جمرة لاهبة، فهي تحرق اللحم حتى العظم. ولكن فولوديا ما كان يفكر الا باوليا.

كان يحاول اقناع نفسه بانها لا بد ان تكون هنا في الباخرة، على السطح، او في الداخل، ومتى استطاع الى الحراك سبيلاً، فانه سيهتدي اليها.

ومضى بعض الوقت، ودبر الناس اماكن لهم، وارخوا عضلاتهم، واستقروا فوق الحقائب والاكياس؛ واستسلم الكثيرون للنوم.

ورجا فولوديا جاره الملتحي المحافظة على كيسه، ومضى، وهو يخطو بحذر بين النائمين، ويلف حول الجالسين والواقفين، يشق لنفسه الطريق على سطح الباخرة بطولها.

ثم راح يناديها من جديد: «اوليا!» فما اجاب احد. ليس الا المياه كانت تهدر في مؤخرة الباخرة. وفي مكان ما كان طفل يبكي. والرياح الباردة كانت تعصف من خلفه.

كان فولوديا يتقدم بمشقة هائلة: وفي كل مكان كانت الخلائق والاشياء مطروحة تملأ ظهر الباخرة كله. فكانت تزل قدمه، فيقع. وراح الناس في الظلمة يدفعونه دفعاً موجعاً ويوبخونه: «الى اين؟ الى اين انت طاحم؟ أما ترى الناس!» وقد مر، بالتأكيد،

ما لا يقل عن ساعة في جولته على ظهر الباخرة من مقدمتها حتى المؤخرة.

ولم يهتد اليها في اي مكان. وبقي الأمل الاخير معلقاً على ان تكون اوليا تحت، داخل الباخرة.

ولكنها لم تظهر لا في الصالة الداخلية، ولا في الحجرات. لم تظهر في اي مكان. وحين عاد فولوديا الى ظهر الباخرة من جديد، وهو يتصبب عرقاً، ويكاد يجر قدمه المخدرة التي لم تعد تؤلمه، حين عاد الى ظهر الباخرة والرياح الجليدية تلقي على الناس شرارات لاسعة، ــ اذ ذاك ادرك ان اوليا لا وجود لها في الباخرة.

اغلب الظن انهم كانوا يدفعونها ويزحمونها ويسدون عليها الطريق، فبقيت على الشاطئ الموحل المظلم. واما هو، فولو ديا، فالباخرة تمضي به أبعد فأبعد.

ولقد كان يتصور على نحو جلي كيف انها هناك الآن، مطروحة ارضاً، ولعلها تهتف باسمه. فراح يدفع بنفسه على الدرابزين في لهفة وتحرق...

وجاءته من احدهم دفعة شديدة صامتة القت به جانباً، فادرك فولوديا كل سخافة هذه الفورة من الهيجان التي هو فيها. وجلس. القرفصاء على كيسه. وكانت محاولة للاغفاء قليلاً على العرائض الخشبية، فكان ذلك ضرباً من المحال: فما كان ثمة موضع لقدم بين الناس المستلقين على الارض. واشتد البرد. ورفع فولوديا قبة معطفه، وارخى رأسه واحاطه بساعديه. واذ ذاك فقط ادرك انه قد اضاع اوليا نهائياً، والى الابد ــ فما كان يعرف اسم ابيها، ولا اسم عائلتها، ولا عنوانها...

وهكذا كان جالساً بلا حراك، وحيداً، شاعراً ان لا حاجة لأحد به، شاباً غريباً عن الجميع، واجداً حبه الحقيقي الاول على حين غرة، وفاقداً اياه الى غير رجعة.

... ولسوف تمر الشهور، فيتغير، ويصبح شخصاً آخر تماماً. سيترعرع في بيئة من الناس المدافعين عن وطنهم وحياتهم. سيعرف فرحة النصر، وهول الموت الوشيك، ودفء الساعد الصديق، وحلاوة الشعور باداء الواجب، والغضب العاجز لمعرفة ان العدو احسن تسلحاً. سيعرف ثقل المسؤولية عن مصير شعبه ومصير العالم اجمع.

ولسوف يجتاز ليالي لا يعرف فيها طعم النوم، يقضيها على مقربة من الطائرات المستعدة للاقلاع لاول كلمة تصدر عن القيادة، ولسوف يعيش داخل الخنادق المغمورة بالماء الآسن، ويهتز في الشاحنات السائرة على دروب الجبهة المرصوفة بجذوع الاشجار. ولسوف تألف عيناه ضوء السراج والمصابيح الغازية ومصابيح «الوطواط» وطلقات الرصاص المنيرة. ولسوف يطير ويقصف بنيرانه طائرة معادية، ويحترق في الجو، ويهوي، الى ان تنفتح المظلة، ويقضي الليالي في طريقه الى جماعته. سيكون كل شيء!..

ولكنه ساعتئذ كان جالساً على ظهر الباخرة، وما كان يعلم كم من محن كثيرة ما تزال الحياة تهيؤها له، وما كان يدري انه سيلقى اوليا وبدا له من جديد، الآن ايضاً، انه فاقدها الى الابد. فالذين يحترقون في الجو لا يردون الى الحياة.

وقد استسلم لفكرة ان اوليا لم يعد لها وجود على الارض، وما كان قط ليصدق انها على قيد الحياة لو لم يكن قد رأى وجهها، منذ ساعتين، على صفحة مجلة «الشعاع» العتيقة التي وقعت مصادفة في يده.

ولقد ادرك انه ما نسيها قط على مر هذه السنوات الطوال، كما لم يكن ناسياً الايام التي كان يطير فيها. لقد بدا له فقط انه قادر على النسيان.

وفجأة خطر له ان خطيئته هي في انه لم يهتد حتى الآن الى اوليا وانهما لم يكونا معاً خلال هذه السنوات جميعها.

وحاول زافيالوف ان يبعد الفكرة المريرة: «القضية كلها مصادفة — هكذا قال لنفسه — فما كان في وسعي ان اعرف انها على قيد الحياة! فلو لم تكن هذه المجلة...» ولكنه قاطع نفسه هنا قائلاً: «كلا، لقد كان في وسعك! ولكنك كنت مفرطاً في الاطمئنان. فقليلاً ما كنت تنظر الى ما حولك. ما كنت تفتش. كل شيء من حولك كان في حركة، اما انت فكنت جامداً في مكانك. بلى، بلى! فلا تتمحل المعاذير، من فضلك، ولا تتذرع بانك تشتغل وانك تقوم قدر مستطاعك بتأدية واجباتك المتواضعة. قدر مستطاعك!.. كفى، يا زافيالوف، لا توارب، انت نفسك حددت قدر استطاعتك هذا، حددتها المهانة — تلك هي القضية! باتت عيناك مفرطتين في الاطمئنان، وفي الفتور، اجل، الفتور، والا لكنت وجدتها من قبل، ولكنت تمكنت من ان تميز آثارها!..»

وراح يحاول ابعاد هذه الافكار الكئيبة، والاستنجاد بالمنطق والتفكير السليم.

ومع ذلك ما كان في وسعه ان يجد الى الاطمئنان سبيلاً. فقد بدا المنطق عاجزاً.

ومن جديد سيطر على زافيالوف، على ما قد يبدو، ذلك الشعور المنسي، الشعور بالحنين الى الطائرة، الى السماء. ولقد اغلق عينيه فابصر مطاراً من مطارات الجبهة — بقعة جرداء، فيها طائرات مموهة باغصان من الشجر مقطوعة، نصف مخفية داخل الغابة، وسمع صوت الميكانيكي الرنان، معلناً ان الطائرة جاهزة. وها هو يقترب من الطائرة خفيف الخطوات، ويحزم المظلة على ظهره جرياً على العادة. ويثقل على كاهله الحمل المعروف المألوف. وبحركة واحدة يتسلق جنح الطائرة، ويرفع رجليه، مستنداً الى جدار الحجيرة، ويلقي بنفسه على المقعد. ويبدو له ان راحة يده اليمنى باتت تحس قبضة المقود، اما يده اليسرى فثمة شيء ما ينقصها. فما الذي ينقص يده اليسرى؟ مقبض قسم الغاز.

وانحنى زافيالوف، وبحث بيده في الرمل، في الظلمة، فعثر على حصاة طويلة ملساء، فاخرجها واطبق كفه عليها. وشعر باحساس الطيار المعروف.

انه الآن مستعد للطيران. وبدا له انه يفتح عينيه ويبصر السماء متلبدة بالغيوم قبيل الفجر وحقلاً للانطلاق مكسواً بالعشب الاخضر المبلل بالندى، هارباً الى بعيد، ويسمع هدير المحرك. وبكل جوارحه يحس الحلاوة المتزايدة لسرعة الطائرة المقلعة...

وفي اليوم التالي سافر زافيالوف الى موسكو.

٣ ـ بداية الطريق

ما كان احد في استقبال زافيالوف.

فيما مضى كان له كثير من الاصدقاء. وجاءت الزوجة فيما بعد، ولكن الاصدقاء لم يعد لهم وجود. ذلك لأنها ما كانت تحبهم، ولا كانوا هم يحبونها.

فيما مضى كان زافيالوف، اذ يصل الى رصيف محطة القطار في موسكو، يطل من النافذة، اذا كانت عودته صيفاً، او من باب السقيفة، اذا كان ذلك شتاء. ومن بعيد كان يعرف مستقبليه من الصحاب. اما بعد ذلك فلم يعد احد يستقبله غير زوجته، ولا عاد هو يتلهف، ولا عاد يطل من النافذة، ولا يسرع الى باب السقيفة. بالعكس، ما كان يشرع في جمع امتعته ببطء الا حين يتوقف القطار على الرصيف.

فكان يعرف ان زوجته واقفة قرب عربة القطار، لأن ذلك كان القاعدة المتبعة لديها ـ ان تصحبه حين يذهب في مهمة او الى العطلة، وتستقبله فترتب شفتيها الممطوطتين بشكل بوق، والمصبوغتين بالحمرة، من اجل القبلة الحذرة، مخافة ان تزول الصبغة.

كانا يعيشان على غير وفاق، وما كانا يتحادثان قط خلال الاسبوع، اما اذا هو سافر، فقد كانت تصحبه الى المحطة او الى المطار، وحين يعود تكون في انتظاره على الرصيف او وراء حاجز القضبان في المطار. وكان هو يتجه ببطء نحوها عارفاً كل شيء مسبقاً.

اما حين تركته زوجته اخيراً (وهي، في الاساس، ما كانت قط في «بيتهما»)، فما عاد احد يستقبل زافيالوف على الاطلاق. وظل الاعتراف بهذا مريراً عليه وقتاً طويلاً، فقد غدا اكثر ابطاء في جمع امتعته، وبات يحاول ان يكون آخر من يغادر عربة القطار، تحاشياً لرؤية الاستقبالات الاخرى والقبلات الاخرى.

ولكن زافيالوف ما كان يشعر بنفسه، الآن، وحيداً. وما كان يفكر الا في ان اوليا على قيد الحياة، على قيد الحياة، وان معجزة قد حدثت، معجزة من تلك المعجزات التي اتفق له ان قرأ او سمع عنها بعد الحرب. فلقد كانت تقع حوادث غير معقولة: جنود نهضوا من القبور ليجدوا امهاتهم واباءهم، اما الآباء فانهم رغم احاديث شهود العيان على وفاتهم، قد هبوا من حفرات القنابل المغمورة بالمياه الآسنة، من المستنقعات، من تحت انقاض البيوت، ومن الارض المحروقة بالنار والمحروثة بشظايا القذائف ومن جوف دخان البارود المتلبث. ظهروا من العدم ليحتضنوا اطفالهم وقد حلت بهم الشيخوخة، ويأخذوا بايدي احفادهم غير المعروفين.

صفحة المجلة التي رأى زافيالوف صورة اوليا عليها، موضوعة في جيبه. كانت ضمن مجموعة صور فوتوغرافية

كثيرة متداخلة مرصوفة معا تحت عنوان: «البلاد تستعد لاستقبال اول ايار استقبالاً لائقاً».

وهناك صور عمال قرب كور الحداد، وفلاحين كولخوزيين مجتمعين في ساحة ادارة الكولخوز، وصيادي سمك على ظهر سفينة صيد.

وكانت صورة اوليا موضوعة في الزاوية اليمنى من الادنى. واوليا تكاد تكون مغطاة بنفر من الاشخاص — بلى، تكاد تكون مغطاة. فقد كان يبعدها من عدسة المصور شيخ يرتدي جبة ذات قبة مفتوحة من الفراء، وامرأة يبرز شعرها من تحت قبعتها. ومع ذلك فما كان يمكن ان يخطئ زافيالوف. فقد كان ذلك وجهها، وجه اوليا.

كان هؤلاء الاشخاص جميعاً واقفين فوق الثلج، ومن ورائهم بناية طويلة، من طابق واحد، غير ذات ارتفاع كبير، يستمعون الى كلمة يلقيها خطيب غير ظاهر في الصورة. وعلى وجوههم ينطبع انتباه شديد مركّز. وقد وفق المصور توفيقاً حسناً في التقاط هذا. وهناك ايضاً مغيب الشمس. لقد كانت على قسط كبير من الجمال - ى في هذه الصورة الصغيرة.

ولكن اين موقع هذا كله؟ على اية ارض؟ في اية مدينة؟ أفي الشمال من بلادنا، ام في الغرب، ام في الشرق؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين تقف بينهم اولغا*؟ الكلام تحت الصورة كان

---

* اولغا هو الاسم الاصلي. وتصغيره اوليا. — المعرب.

يفيد ان اجتماعات تعقد قبيل اول ايار (مايو)، والناس يقطعون على انفسهم التزامات اشتراكية. اي ان هذا اجتماع ايضاً اجتماع حاشد، والاجتماعات الحاشدة تعقد في المصانع، في المؤسسات، في الكولخوزات. اي ان في الوسع معرفة كل شيء، واستيضاح كل شيء، وتحديد كل شيء!

الناس واقفون على الثلج. مباراة قبيل اول ايار (مايو)، وثلج. اي ان هذا في الشمال، على الارجح. على ان الثلج في آذار (مارس) يصادف في كل مكان، حتى في موسكو...

كان الوقت متأخراً حين وصل زافيالوف الى بيته. وعلى عجل اجتاز الممشى، حيث الجرائد والمجلات مطروحة على الارض — فمنذ اسبوعين مضيا على غيابه وموزع البريد يؤدي وظيفته بانتظام — ثم عاد فجمع الجرائد والقى بالكومة المبعثرة على الطاولة. وانحنى زافيالوف على الطاولة، دون ان يجلس، وراح يتفحص الجرائد. كان يقلب الصفحات ماراً بعينيه على العناوين. ربما كان يعيش في مكان ما من اعماق نفسه امل مبهم، ايمان غامض بان في وسعه ان يعرف من الجرائد شيئاً ما ذا صلة بما يهيمن الآن على كل تفكيره.

كانت العناوين تتراقص امام عيني زافيالوف: «كل القوى في سبيل انجاز قرارات المؤتمر العشرين للحزب بنجاح»، «مشروع قانون عن رواتب التقاعد»، «محاولات جديدة لتسعير هستيريا العداء للشيوعية في الولايات المتحدة»، «بناة محطة

اركوتسك الكهرمائية بدأوا بناء جسر عائم على نهر انغارا»، «استفزاز معاد يقوم به عملاء الاستعمار في بوزنان»... صفحات الجرائد تخشخش. وتقع جانباً رسالة. فيتناولها زافيالوف. «موسكو – نيكيتسكي بولفار... الطيار زافيالوف»...

ويقول مردداً: «الطيار زافيالوف. يا للسفسطة!»

ومزق المغلف، واخرج منه ورقة مكتوبة. ها – ها، انه بافليك شيفلياغين ذاك، من جديد. لقد سبق له ان تلقى منه رسالة هناك، على شاطئ البحر. يا للعجب، ولكن من اين عرف عنوانه!.. انه لفتى مضحك، انمش. انفه كله مملوء بالنمش، واما الخدان والجبين فليس عليها ولا واحدة. انه برّاد، يعمل في احد المصانع. يتحرق للانتساب الى نادي الطيران، ولكنهم لا يقبلونه. اما هو فما يزال يواصل مسعاه. يخرج الى المطار، يرى كيف يطير الآخرون... فماذا يكتب في رسالته؟

«ايها الرفيق العزيز، الطيار زافيالوف! اكتب اليك هذه الرسالة، لانك طيار عسكري، وفي وسعك ان تفهم الرغبة التي تخامر نفس الانسان.

لقد ذهبت لمقابلة رئيس مجلس السوفييت الاعلى في شارع موخوفايا، الا اني لم اجده، فتكلمت مع شاب لم يسبق له ان كان على الجبهة فليس يمكن ان يفهمني. يقول انه لا بد لي مجدداً من مراجعة المفوضية العسكرية. وانت تعلم، ايها الرفيق زافيالوف، كم مرة راجعتهم هناك...

والآن يقول لي جميع الاصحاب ان لو تقول انت كلمتك الصارمة...»

ولم يكمل زافيالوف قراءة الرسالة. فمنذ نصف عام وهذا الفتى يلاحقه. ولكن ماذا بوسعه ان يعمل اذا كانت المفوضية العسكرية لا تعطيه بطاقة انتساب الى نادي الطيران؟

ومع ذلك فان هذا الفتى طيب. وليس ثمة غير شيء من الضآلة في مظهره. انه قصير القامة. وفي الوسع فهم موقف العاملين في المفوضية العسكرية – فالراغبون كثر، وفي عدادهم فتيان رياضيون اقوياء صلاب العود...

ويلقي زافيالوف الرسالة على الطاولة. ويضع الحقيبة تحت السرير. سيقرأ الجرائد غداً...

ويستلقي على السرير. ويروح يفكر: «حسن اني عدت قبل انتهاء المدة، فامامي اثنا عشر يوماً لا شغل فيها. انها مهلة كبيرة – اثنا عشر يوماً، شريطة ان لا يضيع الوقت سدى. ينبغي ان انام باسرع ما يمكن، لكي يأتي الغد اسرع». ولكنه ظل مؤرقاً وقتاً طويلاً حتى نام. وحين افاق، كانت الساعة قد بلغت السادسة صباحاً فقط. وظل زافيالوف مستلقياً وعيناه مغلقتان ينتظر الوقت الذي سيكون ممكناً فيه الذهاب الى هيئة تحرير مجلة «الشعاع».

... كانت معلقة على الباب لوحة سوداء كتب عليها: «قسم التصوير». قرع زافيالوف الباب، ثم فتحه، فرأى غرفة ملأى بالخزائن. وما لاحظ على الفور ان ثمة امرأة جالسة وراء مكتب تتكدس عليه الصور، موضوع قرب الجدار، الى اليمين.

قال زافيالوف وهو لم يتجاوز عتبة الغرفة بعد:

ـ عفواً، اين يمكن مواجهة زينايدا فيدوروفنا كوروستيليوفا؟
قالوا لي في سكرتارية هيئة التحرير ان علي مراجعتها هي.
فاجابت المرأة، وقد رفعت رأسها:
ـ انا هي.
كانت قد تخطت سن الشباب، وفي شعرها تبرق خصلات شائبة.
اقترب زافيالوف من الطاولة، وبدأ الكلام في استحياء وتردد:
ـ اني قادم اليك في امر، غير عادي تماماً...
فقالت كوروستيليوفا: «تفضل، اجلس». كان صوتها لطيفاً خافتاً. وكانت ترفع صوراً موضوعة على كرسي. وجلس زافيالوف.
وبدأ يتكلم ساعياً جهده ان يجعل كلامه هادئاً:
ـ اليك القضية. منذ وقت جد قريب، قبل يومين بالضبط، وقعت عيني على مجلتكم، وفيها... ظهر لي... قد اكون مخطئاً، طبعاً...
وشعر ان لسانه لا يطاوعه، فصمت.
فسألته كوروستيليوفا بلهجة طبيب يشجع مريضاً خجولاً:
ـ ايوه، وما الذي رأيت؟
وكررت القول:
ـ ما الذي رأيت؟ او، ربما من الذي رأيت؟ قريباً لك؟ بلى؟
فسألها زافيالوف في ارتباك:

ـ ولكن... ولكن كيف حزرت؟
ـ انه امر عادي تماماً ـ قالت كوروستيليوفا وابتسمت ـ فغالباً ما يبدو للناس انهم يرون في المجلات وعلى شاشة السينما اقرباءهم الحميمين او اصدقاءهم. اولئك الذين كانوا يحسبونهم موتى او مفقودين منقطعة اخبارهم. فيراجعوننا. يتصلون بنا هاتفياً، يكتبون، يجيئون الينا. لقد ألفنا ذلك. فمنذا الذي رأيت؟
ـ فتاة. مضت اعوام كثيرة. قرابة ثلاثة عشر عاماً. كنت على ثقة من انها قتلت على الجبهة. واذا بي ارى...
ـ ولكن قد تكون على خطأ! فقد مرت كل هذه السنوات!
هذا ما قالته كوروستيليوفا هذه المرة بلهجة طبيب يقنع مريضاً مهووساً بصحته.
واكتأب زافيالوف. كان ينتظر هذه الكلمات. كان يتوقع انهم سيحاولون اقناعه والبرهنة على انه، في زعمهم، مخطئ.
فقال بلهجة صارمة:
ـ لا يمكن ان اكون على خطأ، لا يمكن.
ـ طيب، لنر. اننا، على كل حال، مستعدون لتقديم كل مساعدة لك.
فقال زافيالوف وهو يتنفس الصعداء:
ـ شكراً. اما الآن فسأريك كل شيء...
ومد يده الى جيبه الجانبي، فاخرج صفحة المجلة المحفوظة بعناية وبسطها على الطاولة امام كوروستيليوفا، وقال وهو يريها الصورة في الزاوية اليمنى من تحت:
ـ هي ذي.

فقالت كوروستيليوفا وهي تلقي نظرة خاطفة على الصفحة:

ـ ايوه، ايوه، ولكن اي عدد هذا؟

فاجاب زافيالوف بسرعة:

ـ عدد نيسان (ابريل). انظري، هنا، من القفا، كل شيء مكتوب عندي. العدد السابع. نيسان (ابريل) ١٩٥٦.

ـ شي عال ـ قالت كوروستيليوفا.

وبصبر فارغ وبهجة سأل زافيالوف:

ـ و... و... هل بوسعك تحديد المكان الذي التقطت فيه هذه الصورة؟

ـ بالطبع! هذا امر جد بسيط... سننظر الآن الى الصور السلبية لعدد نيسان (ابريل) هذا.

ونهضت كوروستيليوفا، وهي تقول هذه الكلمات، ودنت من احدى الخزائن. وكان زافيالوف يتتبع كل حركة من حركاتها، منحبس الانفاس. فتحت باب الخزانة، فرأى زافيالوف صفوفاً طويلة من الجوارير الصغيرة.

وبحركة واثقة، سحبت كوروستيليوفا احد الجوارير. وبمثل سرعة حاسبات النقود، راحت تقلب مغلفات بيضاء موضوعة هناك. ومن حين لآخر، كانت تخرج مغلفاً من الجارور وتضعه على طاولة قائمة على مقربة منها.

وقالت وهي تدفع بالجارور اخيراً وتغلق باب الخزانة:

ـ هذا كل شيء. والآن، هيا ننظر. ـ ثم قالت وهي تضع المغلف الاول على الطاولة: ـ هذا، كما يبدو، ليس هو...

ونظر زافيالوف الى الصورة الفوتوغرافية الصغيرة الملصقة

بالمغلف. اجل، لم تكن هذه تلك الصورة ـ انها للاشخاص الواقفين على ظهر سفينة الصيد. وكانت الصورة الملصقة بالمغلف التالي، تمثل العمال في كور الحدّاد. اما في المغلف الثالث...

ـ هي ذي!

بهذا هتف زافيالوف، وقد القى كفه بقوة على المغلف الابيض الصغير، كأنه فراشة توشك ان تطير في كل لحظة.

فقالت كوروستيليوفا مبتسمة:

ـ هه، انظر، كم كل شيء بسيط. والآن، اسحب يدك، ولعلّ نرى ما هو مكتوب هنا.

امسك زافيالوف بالمغلف وادناه من عينيه. كان مسجلاً عليه بحروف كبيرة جميلة: «مباراة اول ايار (مايو). ا. ايفانوف».

فسأل بارتباك، وهو يعيد المغلف لكوروستيليوفا:

ـ وماذا يعني هذا؟

وبدا له انها تنظر الى الكتابة وقتاً طويلاً لسبب غير معروف. واخيراً قالت:

ـ غريب...

فسأل زافيالوف وقد نفذ صبره:

ـ ماذا، ماذا «غريب»؟

كانت كوروستيليوفا صامتة. وفتحت الرزمة، واخرجت قطعة من فيلم مصور، وراحت تنظر اليها في النور. وقالت اخيراً:

ـ بالضبط تماماً. هاك انظر.

اجل، كانت تلك الصورة ذاتها، وما كاد زافيالوف يقرب الفيلم من عينيه حتى زالت جميع الشكوك. وهتف قائلاً:

ـ ولكن اين اخذت هذه الصورة، اين؟!

فاجابت كوروستيليوفا في بطء كانما هي متزعجة:

ـ لعلك ترى ان من الجلي ان الامر يتعلق بصورة التقطها احد هواة التصوير، ومع ذلك فهي ناجحة جداً. انه رائع في تصوير غياب الشمس. ا. ايفانوف... ـ قالت كأنها في حالة تأمل وتفكير ـ ليس لدينا مثيل له بين مراسلينا المصورين الموظفين. أكيد ان هذا لا يغير من الامر شيئاً. ينبغي ان يكون مسجلا على المغلف عنوانه ومكان التقاط الصورة. ولكن... لماذا لم يسجل هنا شيء، اللهم الا اسم المصور وموضوع الصورة...

ونهضت بغتة وقالت: «انتظرني، ساعود سريعاً». وخرجت من الغرفة.

وبقي زافيالوف لوحده. كان في انفعال شديد، ولكنه ما كان يشك لحظة في ان كل شيء سيتضح الآن.

كان شاقاً عليه المكوث في مكانه. فراح ينظر الى الصفوف الطويلة من الاضابير الكرتونية السميكة المرصوفة على رفوف تشغل كل الجدار المقابل. وراح يقرأ على مربعات صغيرة من الورق، ملصوقة على كل اضبارة: «صناعة»، «مسرح»، «تاريخ الطيران»، «المؤتمرات الحزبية»، «الجيش»، «الخطة الخمسية الاولى»، «الزراعة الجماعية»...

وخطا في الغرفة بضع خطوات. وخرج بعد ذلك الى الممشى. الى اية جهة ذهبت كوروستيليوفا؟ من اين ستعود؟ من اليمين؟ من اليسار؟ هل يمكن ان اذهب للقائها؟..

وسمع زافيالوف وقع خطوات في الممشى. كلا، هذه خطوات ثقيلة، خطوات رجل. وقعقع باب المصعد. وساد الهدوء.

بدا له ان قد مضت ساعات قبل عودة كوروستيليوفا.

قالت بلهجة اعتذار:

ـ ثمة شيء من التأجيل. حدثت بلبلة: ساوضح لك الآن كل شيء. أترى، تحصل احياناً مثل هذه الاشياء: مصور من الهواة يبعث برسالة. وتصل الى قسم الرسائل في ادارة التحرير. ومع الرسالة صورة فوتوغرافية. يعطينا قسم الرسائل الصورة، اما الرسالة فتبقى لديه. وبكلمة، يحدث فقدان للشخصية. وبهذا الصدد صدر منذ وقت غير بعيد امر خاص من رئيس التحرير... اكيد ان موظف قسمنا كان ملزماً بان يكتب نقلاً عن الرسالة جميع المعلومات ذات الصلة بالصورة...

وراح يفكر مغضباً: «لماذا تذكر لي كل شيء، لماذا؟ وماذا يعنيني من كل هذا؟ اريد معرفة العنوان فقط، اريد فقط معرفة اسم المدينة او اسم القرية او اسم المؤسسة التي اخذت فيها هذه الصورة. وليس يهمني اكثر من هذا شيء...»

وتابعت كوروستيليوفا كلامها قائلة:

ـ ذهبت الى قسم الرسائل. ولكنهم هناك لم يستطيعوا على الفور العثور على هذه الرسالة. ما كان فيها، طبعاً، ما يسترعي

اهتمام القسم. صورة وحسب. اكيد انهم سيعثرون على هذه الرسالة. شريطة ان لا تكون السكرتيرة قد سلمتنا اياها بدون تسجيل... بالاختصار، ارجو ان تمر علينا غداً.

فاجاب زافيالوف ميكانيكياً:

ـ طيب.

ـ سنقول لك غداً كل شيء. اني جد متزعجة لما جرى. ولكن لا يمكن ان يحدث لدينا الآن مثل هذه البلبلة. ثمة امر خاص من رئيس التحرير...

فقال زافيالوف:

ـ سآتي غداً.

٤ ـ خضرة زاخرة ونجوم

الوقت، حين لا يكون لديك ما تنفقه فيه، يغدو عبئا ثقيلاً.

ولقد ادرك زافيالوف، وهو خارج من مكتب تحرير المجلة، ان ليس لديه اية مشاغل حتى الغد. ليلة امس كان يفكر في بهجة وفرح: ما احسن انه ما يزال امامه اثنا عشر يوماً فارغة! واما الآن فلم يعد يستسيغ التفكير بضرورة الفراغ من العمل.

دار سينما الافلام المكررة. ما سبق قط لزافيالوف ان دخلها. فبعد التسريح من الجيش لم يكن يفته اي فيلم اخرج في تلك السنوات التي كان فيها طياراً. كان يتمنى لو يتوقف الزمن او يردّ الى وراء. كان يتمنى لو يتاح له ان يشعر بنفسه من جديد انساناً حقيقياً ولو لساعة ونصف. لذلك كان زافيالوف يبحث في السينما عن الواقع الحقيقي الكامل: الشوارع، الوجوه، السيارات، الطائرات. فاختار افلاماً سبق ان اخرجت في السنوات التي كان فيها تلميذاً، وفي ايام الحرب. كان يعرف مواضيعها عن ظهر قلبه، ولكنه ما كان في لهفة الى المواضيع. فما كان على العموم يتتبع مواضيع هذه الافلام. ولكنه كان يمتع بصره في تعطش بما يسمى الصور في الهواء الطلق التي كانت تريه اماكن يعرفها منذ وقت بعيد.

وبشعور من الاسى والاهتمام الحار، راح زافيالوف يتطلع الى شارع غوركي كما كان لعشرين عاماً خلت، فبات كلياً في قبضة تخيلاته الأليمة والبهيجة. واخذ يخيل لزافيالوف ان آلة الزمن قد حملته الى الطفولة، الى الصبا؛ وغالباً ما كان ينبعث في ذاكرته حادث عرضي لا اهمية له بحد ذاته، وما اهميته الا في انه كان بالفعل.

كان يخيل لزافيالوف انه يتمشى في شارع غوركي هذا، على مقربة من تلك البيوت، التي هي الآن مهدومة او مزاحة الى داخل الساحة، وفتاة من الماضي تنتظره على الزاوية التالية، لابسة بيريه وتنورة ضيقة طويلة من تلك التي كانت ترتديها اكثرية الفتيات في العقد الرابع من هذا القرن، وكانت اذ ذاك على المودة.

وينظر الى الناس السائرين على الرصيف، ناس تلك السنوات، اذ كان هو نفسه انساناً حقيقياً، فيسأل نفسه على الفور، محاولاً ان يفهم ما الذي يتميز به هؤلاء الناس في الظاهر عن اناس اليوم.

يا للامر الغريب! الا فليتذكر من اتيح له ان يتطلع الى الصور القديمة حائلة الالوان، صور ايام ما قبل الثورة، وايام الحرب الاهلية، ومن كان يشاهد افلام السنوات البعيدة، أن في ملابس اناس تلك الايام، وفي تسريحات شعرهم، وفي تعابير وجوههم شيئاً ما لم يعد يمكن فيما بعد تمثيله على نحو ما كان في الواقع.

ومهما يجهد المخرج او منظم الملابس او مهندس

الماكياج، وهم ينظمون اليوم فيلماً عن السنوات الخوالي، فليس في وسعهم التوصل لأن تكون شخصياتهم مماثلة للنماذج البعيدة. ان الزمن يطبع الناس بميسمه. كان يبدو ان كل شيء يمكن تمثيله: الشوارع، المارة، النساء، الجنود، الاطفال، ملابسهم، تسريحاتهم... ولكن ثمة «شيئاً ما» لا يتكرر.

وليس تحدث المعجزة الا في الافلام التي يخرجها المعاصرون: فانت حين تنظر الى الصور المتراكضة امامك، تعيش من جديد طفولتك وصباك...

كل شبر من الارض يمر فوقه الناس، وعليه آثار غير مرئية من قدميه هو ايضاً، زافيالوف، وحجارة البيوت التي اتى عليها الزوال في الوقت الحاضر، وواجهات المخازن غير الموجودة الآن — كل شيء، كل شيء كان يكتسب في نظره اهمية ضخمة. ولقد كان يبدو له ان عدسة المصور السينمائي انما كانت تلتقط كل هذا في ذلك اليوم بالذات، مساء او في الليل، حين كان ذاهباً — ويتذكر الى اين! وحين حدث، — ويتذكر ماذا!..

اما في اليوم الذي عقب ذلك، فقد ذهب الى مكان ما، ثم التقى بها — اين، اين هي الآن؟.. وذهبا معاً الى هذا الشارع اياه، الى هذا البيت بالذات، غير المرئي الآن، ولكنه كان بدا على الشاشة حتماً لو ان المصور كان قد مال بعدسة آلته قليلاً الى اليسار...

واما على مقربة منه في قاعة السينما، من امامه ومن ورائه، فيضحك الناس على الموضوع المضحك — فما كانت هذه البيوت،

وما كانت هذه الشوارع لتحدثهم بشيء. ما يزالون جد صغار، هؤلاء الناس.

واما زافيالوف فانه يشاهد فيلمه. انه وحيد في هذه الصالة. ولكنه ليس في الصالة اطلاقاً. انه هناك، في ذلك الشارع، في ذلك الدرب. هناك!..

وهكذا يسير زافيالوف الآن قرب دار سينما الافلام المكررة. فيلم اليوم عن الطيارين. ويدخل زافيالوف فيشتري بطاقة. وما كان له هذه المرة غير هدف واحد: ان يقتل الوقت.

ولكنه مخطئ. فهو يرى اناساً يرتدون زي الطيارين، ويرى طائرات، فتستولي عليه الذكريات بقوة جديدة. مطار في الجبهة، طيارون معتمرون، فتيات بلباس طيارين...

ويغمض عينيه فيراها امامه هي، اولا. لا كتلك التي التقى بها على ميناء الفولغا، ولا كتلك التي رآها في مجلة «الشعاع». غيرها تماماً...

كان العام ١٩٤٣. وزافيالوف قد اصبح طياراً — قناصاً، برتبة ملازم. وكان قد جرح مرتين، وفي المرتين كان الجرح خفيفاً، فما ارسلوه الا لمستوصف الفرقة. وكان قد اسقط ثلاث طائرات معادية ونال وسامه الاول، النجمة الحمراء. سبع طيارين فقط كانوا واقفين في الانضباط حين قام قائد الفرقة بتسليم زافيالوف هذا الوسام — ثمانية اشخاص مع القائد على الطرف الايمن. كل ما كان قد تبقى في ذلك الوقت من فوجهم.

وفي يوم آخر تلقوا جميعاً، وعلى رأسهم قائد الفوج، امراً

بان يذهبوا الى المؤخرة للحصول على طائرات جديدة، فما كان ثمة ما يطيرون به: فقد طرح وتبعثر على الارض حطام ورماد طائرات «لاغ» التي كان يقاتل عليها زافيالوف ورفاقه.

فكان عليهم ان يركبوا شاحنة مسافة ستين كيلومتراً الى مطار طائرات الانقضاض، وينتقلوا هناك الى طائرة نقل تذهب بهم الى منطقة الاورال للحصول على طائرات جديدة.

وعلى الشاشة، امام زافيالوف، كانت تجري على الطريق شاحنة صغيرة، يقف فيها فتية طيارون مرحون يمسك كل منهم بكتف الآخر. ولكنه يرى امامه درباً آخر، وشاحنة صغيرة اخرى، وفتية طيارين آخرين، وهو بينهم.

كان يخدم على الجبهة الشمالية، ذات المستنقعات. والطرق هناك ما كانت تجف قط، فكان عسيراً ايجاد بقعة من الارض جافة وصلبة من اجل المطار. وكان جميع الطيارين يتحدثون باحترام واعجاب عن جنود المشاة الذين كان عليهم ان يجلسوا في التحصينات والخنادق الملأى بالمياه.

وكان لا بد من بناء طرق السيارات في تلك الاراضي على جذوع الاشجار، اي رصف صف متل لا نهاية له من العوارض الخشبية داخل شق من الغابة، اما على الاطراف فلا بد من حفر مسارب عميقة لسيلان الماء. وعلى مثل هذا الدرب وجب عليهم ان يسيروا الى مطار طائرات الانقضاض، حيث كان ينبغي ان تقف طائرة النقل.

منذ الصباح راحوا — الطيارون السبعة وقائد الفوج — يرتبون امتعتهم: فقد كان عليهم ان يطيروا الى المؤخرة، الى عالم آخر،

الى حياة اخرى، كانوا قد بارحوها ، كما بدا لهم، منذ وقت بعيد جداً، جداً. واما الآن فانهم عائدون موقتاً، فعليهم لذلك ان يأخذوا معهم كل ذي جدوى هناك. وكان بعض الطيارون قد نسوا ما الذي يحتاج اليه المرء في المؤخرة بالدرجة الاولى. وقد اخذوا معهم كمية ضخمة من الاطواق النظيفة من القماش والسيلولوئيد، ومماسك السجائر، وسكاكين ذات مقابض من البلاستيك باتت من ضروب الاناقة في الجيش، وشيالات جلدية متصلة بالنطاقات، ما كانوا يحملونها قط ايام التحليقات القتالية، ومعاطف، ومنسوجات خيام، تتفق ومختلف الاحوال الجوية ومختلف ظروف الحياة، وقناني فودكا. ولقد نظفوا احذيتهم حتى باتت تلمع...

وها هم في صندوق الشاحنة الصغيرة في طريقهم الى مطار طائرات الانقضاض. وما كان ذلك على طريق كالتي على الشاشة، هذه الطريق المعبدة السالكة، بل على درب لعين مرصوف بجذوع الاشجار. يترجرجون بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة. المسير شاق، ففي كل لحظة يحمى المحرك، ويغلي الماء في الراديياتور، فيمضي السائق راكضاً بين الاشجار حاملاً بيده سطلاً صدئاً مرضضاً باحثاً عن مستنقع، او غدير، او حفرة من اثر قنبلة، مملوءة بالماء... وبعد ذلك يترجرجون فوق اضلاع الدرب الخشبي، الى ان يصرخ المسؤول عن مراقبة السماء: «طائرات!» واذ ذاك يقفز الجميع من السيارة ويهرعون الى الغابة، اما السائق فيأبى مبارحة الدرب، لان الذهاب يسير، واما الخروج من مستنقعات منطقة فولخوف فمستحيل...

المسير ممل وشاق، ولكنه مبهج لزافيالوف، مبهج جداً له، هو فولوديا زافيالوف، الطيار القناص الشاب، حامل وسام النجمة الحمراء. انه يحس اجنحة مجده تخفق وراء ظهره، تحمله الى المؤخرة، الى المدينة الكبيرة، حيث لا تعتيم، حيث تسير في الشوارع فتيات لابسات ثياباً مدنية مألوفة (كلا، غير مألوفة!)، حيث السينما، و- في الراجح - اندية يمكن الرقص فيها... «اما نرقص، يا فتيات؟» هو ذا واقف امامها، اكثر جمالاً، وعلى صدره وسام يشع بنور خفيف الا انه نبيل، وقميصه يثني بعض الشيء وهو ينحني لفتاة بتحية خفيفة. وهي تجيب في ارتباك: «تفضل، ولكني لا اجيد الرقص». واما هو فيقول في لطف وظرف: «ما هذا الكلام! انا ايضاً...».

ولكن لا، لم يحدث شيء من هذا. انما حدث شيء آخر تماماً.

حدثت المعجزة على نحو غير متوقع البتة. وما يعرف المرء عن ظهورها الا في الحكايات وفي الاوبرات حيث يحس المرء مسبقاً بقرب حدوث المعجزات. على المسرح تبدأ العتمة، تحدث الصواعق في السماء خطوطاً متكسرة حادة، ويدوي هزيم الرعد، وتعصف الرياح محنية الاشجار الى الارض، وتصخب الآلات النحاسية في الاوركسترا، ويقرع الطبل قرعات النذير المقلقة...

اما هم، زافيالوف ورفاقه، فقد كانوا قبل خمس دقائق من حدوث ذلك، يترجرجون فوق الدرب الخشبي اللعين، الممتد وسط غابة واقعة تحت قصف المدفعية. ورأوا بعد ذلك مرجاً عرضه نصف كيلومتر وطوله كيلومتر ونصف، وفيه

الى حياة اخرى، كانوا قد بارحوها ، كما بدا لهم، منذ وقت بعيد جداً، جداً. واما الآن فانهم عائدون موقتاً، فعليهم لذلك ان يأخذوا معهم كل ذي جدوى هناك. وكان بعض الطيارون قد نسوا ما الذي يحتاج اليه المرء في المؤخرة بالدرجة الاولى. وقد اخذوا معهم كمية ضخمة من الاطواق النظيفة من القماش والسيلولوئيد، ومماسك السجائر، وسكاكين ذات مقابض من البلاستيك باتت من ضروب الاناقة في الجيش، وشيالات جلدية متصلة بالنطاقات، ما كانوا يحملونها قط ايام التحليقات القتالية، ومعاطف، ومنسوجات خيام، تتفق ومختلف الاحوال الجوية ومختلف ظروف الحياة، وقناني فودكا. ولقد نظفوا احذيتهم حتى باتت تلمع...

وها هم في صندوق الشاحنة الصغيرة في طريقهم الى مطار طائرات الانقضاض. وما كان ذلك على طريق كالتي على الشاشة، هذه الطريق المعبدة السالكة، بل على درب لعين مرصوف بجذوع الاشجار. يترجرجون بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة. المسير شاق، ففي كل لحظة يحمى المحرك، ويغلي الماء في الراديانور، فيمضي السائق راكضاً بين الاشجار حاملاً بيده سطلاً صدئاً مرضضاً باحثاً عن مستنقع، او غدير، او حفرة من اثر قنبلة، مملوءة بالماء... وبعد ذلك يترجرجون فوق اضلاع الدرب الخشبي، الى ان يصرخ المسؤول عن مراقبة السماء: «طائرات!» واذ ذاك يقفز الجميع من السيارة ويهرعون الى الغابة، اما السائق فيأبى مبارحة الدرب، لان الذهاب يسير، واما الخروج من مستنقعات منطقة فولخوف فمستحيل...

المسير ممل وشاق، ولكنه مبهج لزافيالوف، مبهج جداً له، هو فولوديا زافيالوف، الطيار القناص الشاب، حامل وسام النجمة الحمراء. انه يحس اجنحة مجده تخفق وراء ظهره، تحمله الى المؤخرة، الى المدينة الكبيرة، حيث لا تعتيم، حيث تسير في الشوارع فتيات لابسات ثياباً مدنية مألوفة (كلا، غير مألوفة!)، حيث السينما، و- في الراجح - اندية يمكن الرقص فيها... «اما نرقص، يا فتيات؟» هو ذا واقف امامها، اكثر جمالاً، وعلى صدره وسام يشع بنور خفيف الا انه نبيل، وقميصه يثني بعض الشيء وهو ينحني لفتاة بتحية خفيفة. وهي تجيب في ارتباك: «تفضل، ولكني لا اجيد الرقص». واما هو فيقول في لطف وظرف: «ما هذا الكلام! انا ايضاً...».

ولكن لا، لم يحدث شيء من هذا. انما حدث شيء آخر تماماً.

حدثت المعجزة على نحو غير متوقع البتة. وما يعرف المرء عن ظهورها الا في الحكايات وفي الاوبرات حيث يحس المرء مسبقاً بقرب حدوث المعجزات. على المسرح تبدأ العتمة، تحدث الصواعق في السماء خطوطاً متكسرة حادة، ويدوي هزيم الرعد، وتعصف الرياح محنية الاشجار الى الارض، وتصخب الآلات النحاسية في الاوركسترا، ويقرع الطبل قرعات النذير المقلقة...

اما هم، زافيالوف ورفاقه، فقد كانوا قبل خمس دقائق من حدوث ذلك، يترجرجون فوق الدرب الخشبي اللعين، الممتد وسط غابة واقعة تحت قصف المدفعية. ورأوا بعد ذلك مرجاً عرضه نصف كيلومتر وطوله كيلومتر ونصف، وفيه

طائرات من طراز «ايل»، مخفية الاذيال والاجسام بين الاشجار.

وكانت الطائرات واقفة على طرف المرج ـ المطار تفصل بين الواحدة والاخرى خمسون متراً. وكان الليل قد اقبل، والطائرات كما هو جلي، عائدة من مهمة قتالية منذ وقت غير بعيد. فقد كان الميكانيكيون، ببزاتهم الزرق الملطخة بالشحم، يغطون المحركات في حرص وعناية باغصان تمويهية، وفوق خط من العشب المرصوص تزحف ناقلة بنزين، وتقف اخرى قرب احدى الطائرات، وانبوب كثير الالتواءات ممدود فوق الجناح. وعلى الجناح كان ميكانيكي يجلس القرفصاء. كان قائد الفوج سيمونيوك جالساً قرب سائق الشاحنة. وحين مرت السيارة قرب الطائرة، مد رأسه من النافذة وصاح:

ـ كيف السبيل للوصول الى مركز قيادتكم؟

فاجاب الميكانيكي من غير ان يلتفت:

ـ قدام.

ضغط السائق على الغاز، فاندفعت السيارة الى امام، وفي تلك اللحظة بالذات نهض الميكانيكي الجالس على جناح الطائرة، والتفت، واذ ذاك...

اذ ذاك رأى زافيالوف اوليا.

عرفها في الحال، على الفور، برغم لباسها الازرق وعمرتها، فراح يصيح بصوت عال، سمع في المطار كله: «اوليا، اوليا!» وقفز من صندوق الشاحنة وهي سائرة وركض الى الطائرة.

لقد عرفها، عرفها! كانت واقفة نحيلة الجسم على جناح الطائرة الكبير، وعلى وجهها بقع قاتمة من الشحم، وخصلة من شعرها شاردة على جبينها من تحت العمرة، ولكن زافيالوف عرفها من النظرة الاولى حين التفتت.

وعرفته هي ايضاً. فراحت تصيح: «فولوديا!» وقفزت من فوق جناح الطائرة في اللحظة نفسها التي كان فيها قد بات على مقربة منها واستطاع ان يتلقاها بذراعيه.

توقفت السيارة التي كانوا يركبونها، ومد سيمونيوك رأسه من باب السيارة، وصاح بزافيالوف:

ـ ماذا جرى ايها الملازم؟

فاجاب زافيالوف:

ـ التقيت باحدى المعارف، ايها الرفيق العقيد!

ـ طيب، تبادلا التحية، وهيا الى مركز القيادة! بسرعة!

وانغلق الباب قرب السائق، وراحت السيارة تتحرك.

اما هما فكانا واقفين قرب الطائرة، وزافيالوف لم يفلتها بعد من بين ذراعيه.

كل ما كان يفكر فيه، وهو راكب في السيارة، احلامه السخيفة المضحكة عن السفر الى المؤخرة، عن تلك الفتيات، عن الرقصات، ـ كل ذلك تلاشى في الحال من رأسه.

كانت اوليا واقفة على الارض، وزافيالوف يسرّح يديه على كتفيها النحيلين، واصابعه كأنما المّ بها التشنج.

و بصوت خافت قالت اوليا، وشعت على وجهها ابتسامة:

ـ انك تتسخ، فثيابي كلها شحم.

لم يكن قد قبلها للوهلة الاولى، واما الآن، وعلى مرأى من سائق ناقلة البنزين، وعلى مرأى من الميكانيكيين الذين كانوا قد توقفوا عن الحراك لدى الطائرات المجاورة، فانه لم يصمم بعد على هذا.

ورفع ساعديه عن كتفي اوليا. فانحنت وانتزعت حزمة من العشب وراحت تنظف بسرعة يديها الملطختين بالشحم. وما كان في وسع زافيالوف ان يفوه بكلمة واحدة. كانت انفاسه منحبسة في صدره.

واخيراً، استعاد موهبة النطق. ويبدو انه قال في لهفة: «انت... هنا؟» وانها اجابت: «هنا، يا فولوديا». وبيأس، قال زافيالوف بصوت كالصياح: «ولكني... سأطير الى المؤخرة!» وسألت اوليا: «أمن اجلكم ستأتي طائرة «دوغلاس»؟ ثم اضافت: «انا عارفة، اننا بانتظارها».

يبدو انه نسي كل شيء: ان الحرب دائرة الرحى، وانه طيار، وان الحياة في الحرب تخضع لمنطقها ولقوانينها الصارمة. وكأنما عاد من جديد فولوديا زافيالوف، تلميذ الامس، يستقبل حبه الحقيقي الاول، وهو على استعداد لأن يعيشه وحده...

وها هو يسمع نداء: «زافيالوف، هيا الى مركز القيادة!» واذ حوّل بصره عن اوليا، رأى ان احد الثمانية، الملازم الاول، كوليشيف، يقف على بعد قليل منه، ويلوح بيده لزافيالوف.

وقد استطاع فقط ان يهمس لأوليا:

ـ اين ساجدك؟

فاجابت:

ـ ساجدك انا نفسي!

وها هو يركض نحو كوليشيف.

وبعد ذلك يجلسون جميعاً داخل خندق مسقوف لمركز القيادة على مقاعد من خشب مصفوفة على طول الجدار، اما قائد فوج طائرات الانقضاض والعقيد سيمونيوك فعلى مقعد قصير قرب طاولة جسيمة مرتجلة مغروسة في الارض. على الطاولة مصباح غازي مشتعل هو من اعلى منجزات تكنيك الانارة على الجبهة. ويقول قائد فوج طائرات الانقضاض ان «دوغلاس» لن تصل الا في الغد، وذلك على ما يبدو في ساعة مبكرة من الصباح. ولذلك سيكون على الطيارين ان يقضوا الليلة هنا.

كان المساء قد حل حين خرجوا من الخندق المسقوف. وكان المطار محاطاً من جميع جهاته بغابات الصنوبر، وظلال الاشجار ممتدة على العشب المغبّر، المضغوط بدواليب الطائرات، وناقلات البنزين، والشاحنات.

وكان الطيارون واقفين في انتظار ضابط الادارة ـ فقد كان عليه ان يوصلهم الى الخنادق المسقوفة المأهولة بطياري الانقضاض الذين عليهم ان يفسحوا لهم مجالاً لقضاء هذه الليلة بينهم.

كانوا جميعاً في اكتئاب من هذا التوقف، كانوا جميعاً في لهفة لأن يكونوا في الجو، لأن يقتربوا مع كل دقيقة من الارض العظيمة، من المدن التي يسودها السلام.

الا زافيالوف، فقد كان في سعادة.

كان واقفاً قرب خندق مسقوف لمركز القيادة يراوح مكانه، ويتلفت حوله بصبر فارغ.

ولكن اوليا لم يظهر لها اثر. وبعد ذلك جاء ضابط الادارة واخذ الطيارين الى الخنادق المسقوفة.

كان الخندق المسقوف الضيق الصغير الذي وقع لزافيالوف ان يقضي الليلة فيه معتماً. اشعل ضابط الادارة مصباح جيب، فرأى زافيالوف طيارين نائمين على سرير خشبي ضيق.

هز ضابط الادارة احدهما وقال له بان يزيح ويفسح مجالاً لزافيالوف. فتمتم الطيار بعض الشيء، ودنا من رفيقه، تاركاً لزافيالوف مكاناً لدى الجدار.

شكر زافيالوف ضابط الادارة وقال له انه غير راغب بعد في النوم، وانه سيجلس قليلاً على العشب قرب الخندق المسقوف. وذهب ضابط الادارة.

وها هو زافيالوف واقفاً، مسنداً ظهره الى عمود من خشب. كان الظلام قد اصبح دامساً، وبزغت نجوم كامدة، ومن بعيد تصل اصوات طلقات مدفعية، وتندلع بروق في السماء، وفي مكان ما تهدر طائرة غير مرئية من طراز «أو ـ ٢».

وبغتة يسمع زافيالوف صوت رجل:

ـ انت تنتظر؟

وفي العتمة يخطو نحوه احد الضباط.

ـ اجل ـ يجيب زافيالوف ـ على انه... ما الذي يعنيكم انتم؟

ويمر الضابط على مقربة مباشرة، فيلمح زافيالوف على صدره وسامي راية حمراء وعلى كتفيه ثلاث نجوم.

ويرفع الضابط يده الى عمرته، وينطق بكلمات سريعة:

ـ الملازم الاول فورونين.

ويجيبه زافيالوف مؤدياً التحية العسكرية:

ـ الملازم زافيالوف.

ويصمت فورونين بعض الوقت. ثم يسأل:

ـ لماذا لا تنام، ايها الملازم؟

ـ لا احس النعاس، الجو خانق. اما هنا فالجو رائق.

فقال فورونين:

ـ تكذب، انك تنتظر اولغا.

ويشتعل وجه زافيالوف ناراً. ويجيب في تردد واضطراب:

ـ وانتم ... ما شأنكم؟

فيقاطعه فورونين قائلاً:

ـ لي شأن، ما دمت اتكلم. لماذا جئت انت الى هنا؟ أمن اجل ان تطير الى المؤخرة ام لملاحقة الفتيات؟ اذا كنت جئت لتطير فهيا اذهب الى النوم، ففي الغد ستطير. فاهم؟

ويشد زافيالوف على قبضتيه. الغضب يغلي في صدره. وليس يعلم بعد على من: أعلى فورونين الذي يتكلم معه بمثل هذه اللهجة؟ ام على اوليا التي يبدو ان لهذا الملازم الاول بعض الحقوق عليها؟

ـ ارجو ان لا تعطى لي دروس ـ هكذا بدأ يتكلم زافيالوف محاولاً تجنب الحوار المباشر. فان فورونين اقدم منه مرتبة.

لم يقرر زافيالوف ان يجيبه بـ«انت»، وهو لا يريد ان يعود الى «انتم» – ارجو ان لا تعطى لي دروس – كرر زافيالوف القول. انه في لهفة لأن يجيب بعنف ورجولة، ولكن صوته لا يطاوعه.

– ساعطي دروساً اذا تطلب الامر – هكذا قاطعه فورونين من جديد. – ماذا تنوي ان تفعل؟ ان تتسلى على مفترق الطرق.

يخطو زافيالوف خطوة الى امام، فهو الآن واقف وجها لوجه امام فورونين. ينظر نظرة ثابتة بوجهه الضيق، ذي النمشة على حاجبه الايسر، وعينيه اللتين لا ترفان.

ويبدأ زافيالوف الكلام، وهو يشد قبضتيه:

– من الذي اعطاكم الحق...

فيقول فورونين في سخرية دون ان يستمع الى نهاية كلامه:

– السيد الرب! السيد الرب اعطاني هذا الحق، مفهوم؟

ويقول زافيالوف في ثورة من الغضب:

– لماذا تتكلمون معي هكذا؟ من هي بالنسبة لكم؟

– انها في سريتي. ترعى امور طائرتي.

– ولكنها لا ترعى امورك الخاصة اذن؟ – هكذا افلت الكلام من لسان زافيالوف، فبات هنا في خجل لا يطاق.

– جلي ، ايها الملازم، انك لم تنل الكفاية من التأديب في حياتك – نطق فورونين بهذه الكلمات مفكراً وعلى شيء من الاشفاق. – كنت على الفور فاهماً اي انسان انت. اما هي فتسعى اليك بلهفة. «اين وضعتم الملازم؟» حتى كنيتك لا تعرفها، ولكنها تركض برغم حلول الليل. ولكننا لا نسمح بهذا. مفهوم؟ فهل تعرف، ايها المخنث، اية فتاة هي؟ هل تعلم ان احداً في الفوج لا يجسر على مسها بالاصبع؟

شعر زافيالوف فجأة ان غضبه قد زال. وانفرجت قبضتاه. وانحسر الدم عن وجهه. فقال:

– انك على خطأ، ايها الملازم الاول.

– أتريد ان تتهرب؟

– كلا، كنت اعرف هذا الفتاة من قبل. منذ ان كنت ...دنياً. لقد تلاقينا وضعنا احدنا عن الآخر. وها نحن الآن قد ...قينا من جديد. مصادفة، هل تفهم؟

فقال فورونين عابساً:

– حكاية!

– كلا، يا فورونين، انها ليست حكاية، كلا. في تلك ...يلة، وانا على الباخرة، هممت بان القي بنفسي في الماء لكي ...بح اليها.

وانقطع عن الكلام. ليل... باخرة... وما لهذا من تأثير على فورونين؟ ولكن، من البدهي ان الكلمات اذا هي لم تؤثر عليه، فان الصوت المضطرب لا بد محدثه بشيء. فقد تراخى فورونين بعض الشيء، وانحنى، كما بدا لزافيالوف.

وفجأة سمع زافيالوف صوت اوليا:

– فولوديا، انت هنا؟

انبثقت من الظلمة، من ظل اشجار الصنوبر الكثيفة الاسود.

– هنا، هنا، هذا الفولوديا – هكذا اجاب فورونين عابساً واضاف قائلاً: – على ان كنيته هي زافيالوف...

– آه... هذا انتم، ايها الرفيق الملازم الاول! – هكذا قالت اوليا في ارتباك، واقتربت. كانت تلبس تنورة وقميصاً عسكرياً عليه اشارات رتبة رقيب، وبدلاً من الجزمة حذاء نسائياً.

– هذا قائدي – قالت لزافيالوف – هل كنتما انتما ايضاً على معرفة من قبل؟

فاجاب فورونين في سخرية:

– اجل، في الحياة المدنية.

فراحت تقول في استعجال، بل وفي ارتباك، كما بدا لزافيالوف:

– ايوه، اليكم كيف يتفق ان يحدث كل شيء. اما انا فاخدم في سرية الملازم الاول. ميكانيكية. اخدم طائرة قائد السرية. «السادسة».

فقال زافيالوف:

– انا عارف.

– غير ان الرفيق الملازم الاول ليس، على ما يبدو، كبير الثقة بي – هكذا سارعت اوليا الى القول، كأنما هي في خوف من الصمت الذي قد يحل – فهو لا يريد ان يأخذني كرامية جوية.

فقال فورونين على نحو غير متوقع:

– انا ذاهب، تصبحون على خير. على ان...

ولم يتم كلامه، وارخى كتفيه، ومضى جانباً بخطوات بطيئة.

– ولنذهب نحن ايضاً.

هكذا قال زافيالوف. وكان لهذه الكلمات غير المتوقعة منه هو نفسه، وقع شديد فيه معاني التحدي.

واخذ بساعد اوليا ومضيا جهة الغابة.

وفجأة سمع في الظلام صوت فورونين:

– اوليا!

وبدا لزافيالوف ان في هذا الصوت رنة من الاسى والعجز.

– نعم؟ – اجابت اوليا، وتوقفت.

وفي صوت خافت قال فورونين، وقد حجبه الظلام:

– لو... لو انك تلبسين الجزمة. عما قريب سيحل الندى. سيصيبك البرد.

فاجابت اوليا:

– ولكني... لن اتأخر كثيراً. ستتحدث قليلاً انا وفولوديا، وساعود. أتسمعونني، ايها الرفيق الملازم الاول؟

ولم يرد جواب.

– هيا، – قالت اوليا بصوت خافت واخذت بساعد زافيالوف.

ألا لو انه كان يعلم ان هذه آخر مرة يكونان فيها معاً! لو انه كان يعلم انه لن يراها قط!

ولكن لم يحن الوقت بعد لهذا. فستمر شهور طويلة ايضاً، وسيتلقى من اوليا عشرات الرسائل، وسيكتب لها هو نفسه رسائل لا عداد لها من اي مكان كان فيه، وفي اية ظروف، الى ان حل الصمت، الصمت القاتم الطويل...

ولكنه الآن سائر الى جانبها، وهي ممسكة بساعده، تشده

شداً وثيقاً، كما في ذلك اليوم، وسط الزحام على شاطئ الفولغا. وكان هو على ثقة من انه الآن سيرى وجهها طول حياته. ولكنه كان يراها للمرة الثانية والاخيرة. الا لو انه كان على علم من هذا، لو كان في وسعه ان يتنبأ!..

وراح يحكي لها كيف بحث عنها على الباخرة في تلك الليلة الرهيبة، وراحت هي تحكي له كيف بقيت في الميناء، بعد ان ضاعت في الزحام، وما وصلت الى آستراخان الا بعد اسبوع. وروت له ايضاً انها قالت لنفسها، وهي ما تزال هناك على الشاطئ، انها ستجد مكانها في هذه الحياة القاسية ولن تكون قط خشبة يتقاذفها التيار ويلطمها لطماً موجعاً على الشاطئ. ففي اليوم الثاني لوصولها الى آستراخان ذهبت الى المفوضية العسكرية طالبة تمكينها من الحصول على اختصاص عسكري. وحين قوبلت هناك بالرفض، ذهبت الى لجنة الكومسومول في المدينة. وهناك ايضاً لقيت الرفض: فما كانت بعد قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها.

كانت تريد العمل في اي فرع من فروع الطيران، ولكن في الطيران حتماً، لانها كانت تعلم انهما في الطيران فقط سيتمكنان من التلاقي يوماً ما. وراحت تقضي نهارها وليلها في مقر لجنة الكومسومول في المدينة، مترصدة امين السر عند مدخل مكتبه وعند باب البناية، وتوصلت اخيراً لأن يعدلوا في سجل نفوسها تاريخ ولادتها ويضعوا الرقم المرغوب به «١٨».

وحين زالت العقبة الرئيسية، اصبح يسيراً عليها كل اليسر الانتساب الى مدرسة الاختصاصيين المعاونين في الطيران، ومدتها

ثلاثة شهور، والحصول على رتبة عامل مسلح. وهكذا وصلت الى الجبهة، الى سرية طائرات الانقضاض...

لو ان زافيالوف واوليا كانا قد التقيا، اول الامر، ايام السلم، في ظل سماء صافية مشمسة، او تحت مصابيح كهربائية، فلربما كانا (من يدري!) قد مرا دون ان يلتفت احدهما للآخر. ولو ان عاطفة قد نشأت بينهما، لكانت قد تطورت في بطء وأناة، ولكان احتاج الامر الى فترة من الزمن تمر حتى يدرك هذان الشخصان اليافعان انهما متحابان...

ولكنهما التقيا في ايام رهيبة، وقت كانت الحرب تشتت العائلات، وتحرمها مساكنها، وقت كانت تنطفئ نوافذ البيوت، وقت كان الموت يترصد ملايين الناس، وقت كانت تنسحب قوانين الحياة السلمية وتحل محلها قوانين الحرب، غير المألوفة لدى الجيل الجديد.

ولقد بات زافيالوف واولغا عاشقين، وما كانا قد قضيا معاً يومين.

... وخرجا الى مرج صغير مفروش بعشب كثيف، يحيط به من جميع جهاته جدار اسود متراص من الاشجار العالية. وكان المرج اشبه بقعر بئر هائل، مغطى من فوق بقبة سوداء مشوبة بالزرقة، بالكاد تلمح فيها نجوم بعيدة.

وكانت تلك الغابة تفصلهما عن الارض المزروعة بحفر القنابل، عن الطائرات تظل تدور مزمجرة دورانها الشيطاني الى ان تشتعل احداها وتروح تهوي مخلفة في السماء ذيلاً اسود من دخان. كانت تفصلهما عن الدروب المرصوفة بجذوع

الاشجار، عن المصابيح الغازية الخافتة، ينبعث منها الدخان، عن الخنادق المسقوفة التي ينبغي دخولها بظهور محنية... ليس غير الاشجار تحيط بهما، وليس غير النجوم تشع من فوقهما.

قالت اولیا:

ـ هذا مرجي. اني اسميه هكذا: «مرجي». وجدناه مصادفة. وقد مضى على استقرارنا هنا نصف عام. وجدته حين قتل سكفورتسوف.

ـ من؟

ـ سكفورتسوف. طيارنا. قتلته طائرات «ميسيرشميت» على مرأى مني. كان يحترق في الجو. اول ميتة شهدتها. كان قائد السرية يحظر علي البكاء. ولكني ما كنت استطيع ان لا ابكي. ومضيت الى الغابة لكي لا يراني احد، فوجدت هذا المرج. ولقد جلست هنا ورحت ابكي. فما كان احد يتدخل في امري. تماماً كما لا يتدخل احد الآن في امرنا انا وانت.

ـ يبدو لي ان لشخص واحد تدخلاً في امرنا، الى اقصى حد. اقصد فورونين...

فسارعت اولغا لمقاطعته:

ـ لا ينبغي الكلام عنه.

ـ ماذا يريد منك؟

فقالت اولغا كأنها لم تسمع سؤال زافيالوف:

ـ انه خير قائد سرية، يا فولوديا. انه في منتهى، منتهى الاستقامة، في منتهى الطيبة...

ـ أتحسبين ان هذا كله يجب ان يقال لي؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ وماذا يريد منك؟

ـ لست ادري... اعتقد انه يريد لي الخير. قد يكون يحبني. نوعاً ما. وقد لا يكون... مجرد عطف. انهم جميعاً يحبونني. جميع طيارينا. اما فورونين فانه بطل حقيقي.

كل هذا الكلام كان يصدر عنها في كثير من الهدوء، وببساطة، اما هو فكان يود لو يسمع كلمات اخرى.

ـ وماذا فعل من بطولة؟ اسقط طائرة «ميسيرشميت»؟ واحدة، اثنتين، خمساً؟

هكذا سأل زافيالوف، وكان كريهاً عليه، في تلك اللحظة، سماع صوته.

وبالهدوء نفسه اجابت اولغا:

ـ لقد قام باكثر من مئتي تحليق قتالي، واسقط طائرتي «ميسيرشميت». كثيرون عندنا اسقطوا اكثر من ذلك، الا انه فعل ما لم يكن يفعله الآخرون. هبط على ارض العدو لانقاذ رفيق: فقد اسقطت الطائرة المرافقة، واما الطيار فالقى نفسه بالمظلة. ولكن فورونين حط بطائرته قربه مباشرة، فاخذ الطيار واقلع. وكان الالمان قد اخذوا يتراكضون من جميع الجهات، فراحوا يطلقون عليه نيرانهم من الرشيشات، ولكنه اقلع طائراً.

كانت تروي ذلك بدون اي تكلف.

وشعر زافيالوف بالخجل.

وانتحى جانباً، وارتمى على العشب الكثيف، واستلقى على ظهره، وراح يتطلع الى السماء السوداء الزرقاوية.

وما سمع خطواتها على العشب. فقد اقبلت اوليا وجلست على مقربة منه ممسكة ركبتيها بساعديها.

وبعيدا، في مكان ما، شقت السماء طلقات نار ملونة للاشارة.

– يا لغرابة... هذه الطلقات... اول الامر، ما كان في وسعي قط ان آلفها: جميلة، مشرقة، كالاسهم النارية... ولكنها... الموت. او هي تنير طريق الموت. تدله على الطريق...

وما عتمت هذه الكلمات عن الموت ان بعثت القلق في نفس زافيالوف. وبكل جلاء، راح يتخيل ما لم يسبق له ان فكر فيه. واخذ يتصور كيف سيقصف الالمان هذا المطار، وكيف يدور اعصار من التراب فوق ساحة المطار، واوليا تروح وتجيء بينها، وقد اصمتها انفجارات القنابل المحرقة. والموت من ورائها يلاحقها. ولقد ابصر كل هذا بجلاء حتى لقد اوشك، لو لم يتمالك نفسه، ان يصيح: «اوليا!» فهب على الفور، فطوقها بذراعيه وشدها الى صدره.

ما كانت حركته تلك تنطوي بعد على رغبة، ولا على هيام، انما كان يود فقط صيانتها، كان يود الاحساس بانها حية، وان ليس ثمة من خطر يهددها.

ولقد ظل بضع لحظات طوال ضاماً اياها الى صدره، فسقطت عمرتها عن رأسها. واامال زافيالوف رأسه والصق وجهه بشعرها. ورفعت اوليا رأسها، فباتت شفتاها قرب شفتيه... وكانت تلك قبلتهما الاولى. واذ ذاك نسيا ان الحرب دائرة الرحى، وانهما للمرة الثانية فقط من حياتهما يرى احدهما الآخر،

وانهما عما قريب سيفترقان، وغير معروف ما اذا كانت الاقدار ستجمعهما من جديد... فالشيء الجوهري هو انهما معاً من جديد، ولوحدهما، لوحدهما في الدنيا كلها.

كانت تلك ليلتهما الاولى، الليلة الاولى في حياتهما. كانا كلاهما على حظ ضئيل جداً من الخبرة في الحب، فكان قلباهما يخفقان في صدريهما من الاضطراب والحياء، ومن الشعور بانهما واقفان على عتبة عالم جديد عليهما كل الجدة يحاولان في خوف فتح باب اليه.

ومن حولهما، على امتداد ألوف الكيلومترات، كانت المعارك جارية، والناس يشنون الهجمات، والالسنة الحمر المندلعة من مدافع «كاتيوشا» تشق دروبها النارية عبر السماء، وتدوّي انفجارات القنابل وقذائف المدفعية؛ والجنرالات منحنون فوق الخرائط، والكشافون يزحفون على مرافقهم في مؤخرة العدو، والفصائل الخاصة الهتلرية لمحاربة الانصار تعد غرف غاز لحملات ابادة جديدة، والسفاحون يلقون الوقود في افران معتقل «ميدانيك»، وعلى المطارات يستيقظ الميكانيكيون ويمضون لاعداد الطائرات للقتال...

واستيقظ فولوديا واوليا حين بدأ الفجر المبكر بالبزوغ، واصبحت الاشجار من حولهما فجأة تميزها العيون. واخذت الوان السماء السوداء الزرقاوية تتحول الى رمادية صفراوية. وسمعا فجأة تغريد الطيور. وصمتت الانفجارات البعيدة، وما من طلقة نار للاشارة تشق السماء، وما من طائرة تدمدم عن قرب، فليس غير الطيور المحجوبة عن الانظار وسط الاغصان الكثيفة

تترنم باغاريدها البسيطة الازلية. وكان زافيالوف واوليا مستلقيين جنباً الى جنب شاخصين بوجهيهما نحو السماء وقد اخذ يتسرب اليها النور. واخيراً سأل زافيالوف بصوت خافت:

– اين سأجدك فيما بعد، يا اوليا؟ فاننا الآن سنفترق...

فاجابت:

– ستجدني. ستجدني، اذا شئت.

وهبّ زافيالوف واقفاً بعنف. على الشاشة كانت الصور ما تزال تتراقص، وصوت جهوري فتي ينشد برجولة ومرح الاغنية المعروفة لدى الجميع: «القضية الاولى، القضية الاولى، الطائرات...»

وانطلق سريعاً يمر من امام الجالسين على صفه، يطحم ركبهم، ويتمتم بالاعتذارات.

... وها هو زافيالوف في البيت. انه جالس وراء مكتبه، في شقته الصغيرة ذات الغرفتين، حيث كان يعيش في الماضي مع ابيه وامه، ثم مع زوجته، واما الآن فيعيش لوحده.

انه جالس وراء الطاولة، وامامه حزمة من الاوراق المصفّرة: قصاصات صحف، وشهادات، وبعض الرسائل. هذه الاوراق جميعاً من ايام الحرب. رسائل اوليا ليست هنا، ليست هنا رسائلها العشرات التي كان يتلقاها منها منذ ان افترقا. كان يصونها صيانة تقديس. ولقد تسامحت الحرب عن رسائل اوليا. واما زوجته السابقة فما تسامحت. اكتشفتها داخل طاولة الكتابة، قبل هجرتها البيت، واحرقتها. نعم، لقد كانت قادرة

على انزال الضربات في اضعف نقطة. وفي هذا ينبغي تقديرها حق قدرها. كان زافيالوف قد تلقى الرسالة الاخيرة من اوليا في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٤. وانه ليتذكر ولسوف يظل يتذكر هذا التاريخ طول حياته. فليس يكفي ان تحرق الرسالة لكي ينساه. لكي ينساه ينبغي ان يحرق هو نفسه.

حين كتبت تلك الرسالة الاخيرة، كانت اوليا قد بدأت تطير واذ وصلت مأربها، اصبحت رامية جوية. وصلت! لقد تضمنت الرسالة مثل هذه السطور:

«... لعلك تذكر، يا فولوديا، اني قلت لك حين التقينا، اني لن اكون قط خشبة تتقاذفها الامواج. اني حتى الآن اتذكرني بمرارة ومهانة في ذلك الزحام قرب الميناء. ويومذاك قلت لنفسي اني سأجد مكاني. وانا الآن رامية جوية. ان هذا، في زمن الحرب، اختصاص حسن...»

اجل، ان هذا «اختصاص حسن». لا سيما اذا اخذ المرء بالحسبان ان الطيار يجلس ضمن مكان مصفح، واما الرامي الجوي فلا وقاية له... لقد كانت تطير. ثم جاءت الرسالة الاخيرة: ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٤. وبعد ذلك انقطعت الرسائل. ومضى ينتظر. اسبوعاً. اثنين. وبعد ذلك التمس من قائد فوجه سيمونيوك الكتابة الى الفوج الذي كانت تخدم فيه اوليا. وجاء الجواب بعد عشرة الايام. واستدعي زافيالوف الى مركز القيادة. وسلم سيمونيوك الرسالة دون ان ينظر الى وجه زافيالوف. انما قال فقط:

– هو ذا، خذ، امسك...

واضاف حين كان زافيالوف قد نشر ورقة رمادية مضروبة على الآلة الكاتبة:

– انها الحرب، يا صديق. ما العمل...

وهذه هي الرسالة. انها لم تحرق مع رسائل اوليا: لقد بقيت. بقيت كالسكين في القلب. ولتوغل هناك الى الابد.

«... بناء على طلبكم افيدكم ان الرقيب الاول ميرونوفا اولغا الكسييفنا كانت رامية جوية في طقم النقيب فورونين. وفي ١٤ آذار (مارس) من هذه السنة، بعد تأدية مهمة حربية، اسقطت الطائرة بنيران العدو، و– بناء على تقرير قائد مجموعة الطائرات – انفجرت في الجو. وقد قتل الطقم. ان افراد فوجنا يشعرون بعميق الاسى لفقدان حبيبة الفوج، الفتاة الباسلة الشريفة، التي وهبت حياتها في سبيل حرية وطننا واستقلاله. نائب قائد السرية للشؤون السياسية. التوقيع». وانتهى.

ويعيد زافيالوف قراءة الرسالة، التي يحفظها عن ظهر قلب. ويضعها بعد ذلك جانباً، ومن جديد تنتصب امام عينيه الصورة الفوتوغرافية – قطعة من الارض يغمرها الثلج، واشخاص واقفون في نصف حلقة، ومن ورائهم بناية خشبية طويلة، ووسطهم فتاة شد ما تشبه اوليا.

ولكن لو ان المعجزة حدثت، وكانت اوليا على قيد الحياة، فكيف امكن ان يحدث ان لا تبعث له بكلمة واحدة الى فوجه؟ فقد كانت تعرف جيداً رقمه البريدي.

وبالفعل لقد كان اول سؤال طرحه زافيالوف، لدى عودته الى الفوج، حين حل به المصاب الذي خرّب حياته كلها: أليس ثمة رسالة...

كلا، لم تكن ثمة رسالة. فلو ان اوليا كانت ما تزال على قيد الحياة، لكانت كتبت له. لكانت كتبت له من اي مكان شاءت. – سواء أمن النار، ام من الجنة! كلا. ولا رسالة حتى نهاية الحرب، وبعد الحرب. ولا محاولة لتعرف أهو على قيد الحياة ام لا. فهي اذن لم تعد على وجه الارض. بل ليس لها قبر.

ولكنه مع ذلك سيذهب غداً الى دار تحرير المجلة، وسيوضح كل شيء حتى النهاية. فليس يمكن ان يكون في العالم شخصان متشابهان الى هذا الحد. لقد مرت منذ ذلك الحين قرابة اثني عشر عاماً، ولكن السنين قليلاً ما غيّرت فيها. انها هي. ولكن اذا هو لم يكن على خطأ، اذا هي كانت على قيد الحياة، فلِمَ لم تكتب له ولا مرة، ولم تحاول اكتشافه؟.. ولا مرة! كلا، ليس يمكن هذا. ليس يمكن ان يتصور هذا. فهو اذن على خطأ. وليست اوليا على الصورة. او...

ما كان في وسع زافيالوف قبول مثل هذه الفكرة. انه يسند رأسه على يديه، ويروح يتذكر من جديد كيف حدث كل هذا، ويستعيد ادق التفاصيل. لقد عاد الى الفوج، ودخل على سيمونيوك...

ويقول لنفسه اخيراً: «كلا، يجب ان اتحقق مجدداً من كل شيء. يجب ان اتحدث مع سيمونيوك. يجب ان احدد جميع التواريخ، وجميع الوقائع».

الساعة بلغت الثانية الا ربعاً. سيذهب الآن الى نادي الطيران. نصف ساعة الى المحطة، اربعون دقيقة في القطار الكهربائي، عشرون دقيقة الى المطار. في بدء الساعة الرابعة سيبلغ المكان. سيجد سيمونيوك حتما. وسيدهش الرفاق لدى رؤيتهم زافيالوف: فهم لا يتوقعون قدومه الا بعد اثني عشر يوماً. ولكن، اي معنى لهذا الآن!.. يدخل يده الى جيبه، حيث يضع على الدوام دفتراً صغيراً مسجلة عليه ساعات تحرك القطارات في صواحي المدينة.

وتلمس يده الدفتر ومغلف رسالة. انها رسالة من فكتور، قريبه البعيد، وكان قد تلقاها وهو ما يزال على شاطئ البحر. لقد انهى الفتى المعهد في لينينغراد، وهو يسأل عما اذا كان ممكناً ان يجيء الى موسكو، ويعيش عند زافيالوف اسبوعين او ثلاثة اسابيع، قبل التوجه الى مكان العمل.

فليأت. لا بد من ارسال برقية اليه اليوم. من المحطة رأساً. ومتى سيكون السفر بالقطار الكهربائي؟..

٥ ـ لن تكون مرة ثانية

ـ سراب، يا عزيزي، سراب، وقبض ريح.

هكذا قال اخيراً سيمونيوك، وهو رجل قصير القامة، جسيم، منتفخ، ذو رأس كبير حليق من القفا.

كانا جالسين على عشب ساحة الطيران. وكان سيمونيوك يصغي الى حديث زافيالوف من غير اهتمام خاص، متطلعاً من حين لآخر بفراغ صبر، الى ساحة الانطلاق.

«اي شيء هناك ما سبق له ان رآه؟» ـ بهذا فكر زافيالوف في انزعاج وقد لمح نظرات سيمونيوك. كل شيء في ساحة الانطلاق كان كالمعتاد. ففي المربع، المميز باعلام صغيرة حمراء، كانت تبدو سيارة نقل مسقوفة، مصبوغة بمربعات شطرنجية ـ هي مركز قيادة الانطلاق في المطار. وكان ثمة بضع طائرات من طراز «ياك ـ ١٨» واقفة على خط التزود بالبنزين، وناقلة وقود تجري ببطء نحوها. وجماعة من طلاب نادي الطيران ببزاتهم الزرقاء واقفون في نصف حلقة امام مدرب يمسك بين يديه المبسوطتين خارطة. كل شيء كالمعتاد...

لقد استقبلوا زافيالوف بالحفاوة، وسألوه عن الداعي لعودته المبكرة. فتملص من الاجابة لاجئاً الى المزاح وهو يتابع مسيره،

باحثاً بانظاره عن سيمونيوك. ولما وجده اخيراً في ساحة الانطلاق، اقترب منه ومضى معه الى زاوية بعيدة من المطار لا يمكن لاحد ان يشوش عليهما فيها.

واستأنف زافيالوف الكلام من جديد:

ـ ... اسمع، أفلا يمكن مع ذلك التسليم بانه قد كانت ثمة رسائل؟ كانت، أتفهم؟ ولو رسالة واحدة. كنت غير موجود، وقد فقدت، فمن ذا يروح يحفظ الرسائل الموجهة اليّ؟ لم يكن نصيبها غير الاهمال، والطرح، آخر الامر.

فقال سيمونيوك بصوته الابحّ:

ـ الاسطوانة نفسها من جديد. ان جميع الرسائل الموجهة الى الطيارين المفقودين تسلم للمفوض السياسي. مضبوط؟ انه مسؤول عنها. كل هذا لا تقلّ عني معرفة به. وحين عدت، كان المفوض السياسي في مكانه، وقد استخبرت لديه. مضبوط؟

ـ مضبوط...

ـ اذن، خلص.

وتطلع سيمونيوك الى زافيالوف اشفاقاً، وفي الوقت نفسه بكثير من التعالي.

لقد تخطى سيمونيوك الستين، وقد احيل على التقاعد منذ عشر سنوات.

بيد ان فرقاً كبيراً كان بينه وبين زافيالوف المحال على الاحتياط. لقد كان زافيالوف المنتزع من العمل الذي يحب والمفصول عنه، يعترف بمرارة ان الحياة ماضية الى امام، اما هو، زافيالوف، فواقف مكانه.

ولكن سيمونيوك كان في اعماق نفسه على ثقة من ان العصر قد توقف في اليوم نفسه الذي اوقف فيه عمله القيادي في الجيش.

كل ما كان يفعله الناس بدون سيمونيوك كان يبدو له غير جدي، غير شرعي، جديراً بالتجريح والسخرية، وعلى كل حال جديراً بالرفض الضمني.

ولقد ظل سيمونيوك يستخدم حقه في ارتداء البزة العسكرية قسطاً من الوقت بعد ان احيل على التقاعد لبلوغه السن القانونية وكذلك، وهو امر جلي، لأنه لم يعد من عداد ضباط الملاك الذين ما كان يمكن للجيش التخلي عنهم.

ولكنه ادرك بعد ذلك ان البزة العسكرية بدون سلطة، بدون حق القيادة، بدون احتمالات للترقي، انما هي، في حقيقة الامر، لا شيء. ولما ادرك هذا، لم يعد قط يمس بزته العسكرية وجزمته وعمرة العميد العالية التي كان التخلي عنها اصعب شيء عليه بسبب قصر قامته.

كان سيمونيوك يتناول راتباً تقاعدياً جد ملائم، ويعتبر هذا واجباً الى حد انه كان يعتقد ان الدولة وجميع الناس المحيطين به مدينون له الى هذا الحد او ذاك مدى الحياة. ولقد اصبح محباً للمال، فما علم ان في وسعه من غير جهد ذي بال الحصول ايضاً على شيء من الكسب علاوة على راتبه التقاعدي، حتى ظل وقتاً طويلاً يبحث لنفسه عن وظيفة ملائمة، وحطت رحاله اخيرا في نادي الطيران. على ان سيمونيوك قد فضّل، من بين جميع الوظائف ذات الصلة المباشرة بالطيران او بتعليم طلاب نادي الطيران، وظيفة رئيس قسم الملاكات. وفيما مضى، ايام الحرب،

كان يعتبر قائد فوج لا بأس به، وان يكن من غير الاحسنين، وما كان يتصور حياته المقبلة في غير الجيش. الا انه، في ايام السلم، وقد اصبح موظفاً من المرتبة الثانية في احد الاقسام الفرعية لوزارة الدفاع، غبطاحيانا رفاقه في العمل الذين احيلوا على التقاعد برواتب حسنة.

والى جانب هذا كله، كان سيمونيوك انانياً، فحين احيل على التقاعد غذى في نفسه الشعور بالموجدة على «اولاد اليوم» هؤلاء، الذين يعتزمون بدافع من عدم جديتهم ومن حماقتهم التخلي عن مواصلة الافادة من سيمونيوك في العمل القيادي النشيط.

كان ينمي في نفسه الحاجة لادانة كل عصري؛ ولقد عوّد نفسه النظر الى الحياة نظرته الى شيء يواصل حركته في دوران فارغ لا طائل تحته.

ولقد كان سيمونيوك في الاساس غير متعلم، الا انه كان يملك الكفاءة لالتقاط الافكار «على الطائر» ويحسن ربط لسانه. كان مزهواً بتجربة حياته وبمعرفته «تدبير الامور». وكان من ذلك الصنف من الناس الذين يقال عنهم انهم : «محنكون».

وكان سيمونيوك نفسه يرى انه «رجل مثقف»، فغالباً ما كان يكرر القول: «نحن الناس المثقفين»، بل لقد كان من حين لآخر يكتب في الجرائد.

كان اللون الحبيب الوحيد لديه توجيه الرسائل الى هيئات التحرير، واما احد الموضوعات الرئيسية للنقد في هذه الرسائل فهو الأدب الذي كان يشن عليه حرباً طويلة الامد لا هوادة فيها. ربما كان سيمونيوك على اقتناع صادق بان كل ما يكتب

في الكتب «ليس كما ينبغي»، وان «الامور لا تجري هكذا في الحياة» وان الكتاب هم، على العموم، اناس سطحيون في افكارهم، ميالون لتصوير ما لا يعرفون مقابل اموال طائلة يقبضونها.

حتى حين كان سيمونيوك نفسه لا يعرف شيئاً عن الموضوع الذي يتناوله الكتاب، كان من ذلك على ثقة من انه اكثر معرفة من المؤلف.

كانت احكامه قطعية صارمة. فما كان يعترف بالتقييمات الوسط، فكان حين يصدر احكامه، يطالب على الدوام بـ«اشد التدابير».

كان يبدأ رسائله على نحو واحد: «باهتمام كبير بدأت قراءة...»، وينهيها ايضاً بشكل واحد: «وهكذا فان قراءة الكتاب تخلف في النفس الشعور بالحيرة العميقة وتستدعي السؤال المشروع: «باي حق...». وكان يوقع هذه الرسائل بكامل لقبه: «الضابط العميد الطيار المتقاعد».

وسيمونيوك الحالي ما كان يحب الناس ذوي النشاط والفعالية. ما كان يحب اولئك الذين هم، في رأيه، مفرطون في «الشغب»، لا سيما اذا «شغب» عليه زميله السابق في العمل، وهو الآن ضابط مسرح. فعلى مثل هذا الضابط ان يقتدي به هو، سيمونيوك، و«يجلس» مطمئناً في مكانه. وما كان يعترف لهؤلاء الناس بالحق الا في امتياز واحد هو ان يشغلوا، مثله، وظيفة «لا غبار عليها»، لا تتطلب صرف كثير من الجهد، وتقييم الوقت الحاضر تقييم كراهية وسخرية. وقد كان يرى في محاولتهم مواصلة حياة العمل والنشاط تحدياً واهانة لشخصه.

كان سيمونيوك من فصيلة اولئك الناس الذين يرون في الحياة مجرد مرادف للمكان الذي يشغلونه في سلم الوظائف ومجموعة معقدة من الصلات والعلاقات مع الرؤساء والمرؤوسين. والناس هؤلاء محرومون من اية شخصية، فهم قد قتلوها في ذواتهم او فقدوا عادة التفكير والعمل خارج الوسط الذي ألفوه.

ولقد رأى سيمونيوك في كل ما حكاه الآن زافيالوف «شغباً» كريهاً لديه، وتطلعاً لعمل شيء لم يكن احد يتطلبه من زافيالوف، ورغبة غير مفهومة في اقلاق النفس بل وفي تعذيبها.

وكان هذا كله امراً تعافه نفس سيمونيوك. وقد كان زافيالوف ناسياً هذا وهو قادم اليه على ايمان مبهم لا شعوري بان قائده السابق قادر على تقديم شيء من العون له او مجرد التشجيع...

وما كان زافيالوف يريد ولا كان يستطيع التخلي في الحال عن امله. فقال:

ـ المفوض السياسي لم يكن على الدوام في الفوج، وانت تعرف هذا، يا افاناسي بورفيريفيتش. وهو نفسه قد ذكر لي انه قد جرح بعد شهر او اثنين مما وقع لي، وانه قضى بعض الوقت في المستشفى. فاذا كانت قد جاءت رسالة بعد تغيبه، فانها...

فقاطع سيمونيوك زافيالوف قائلاً:

ـ بعد شهر او اثنين، كما تقول، استدعوني الى شعبة الفرقة لمكافحة الجاسوسية، واخبروني انك، بناء على ما لديهم من معلومات، ما تزال على قيد الحياة. وبعد هذا اذا كانت قد جاءت باسمك اية رسالة فتكون قد وصلت اليّ، واكون انا قد

احلتها الى ممثل شعبة مكافحة الجاسوسية، ذي الصلاحية. هكذا.

«هكذا». كانت هذه الكلمة اشبه بضربة مطرقة تدق مسماراً في الرأس. كانت الضربة الاخيرة القاضية. ضربة واحدة ويختفي المسمار. انه في القلب. كله، بكامله.

هباء ذهبت جميع الجهود الأليمة التي بذلت خلال سنوات عديدة من اجل ارغام النفس على الانقطاع نهائياً عن التفكير بما جرى وعن تذكره. في تلك اللحظة كانت تجري على ساحة الانطلاق طائرة تدريب، معجلة في سرعتها. وكان زافيالوف يتابعها بانظاره، ويخيل اليه في الحال انه هناك في حجرة الطائرة...

بلى، كان في الجو، كان يطير فوق اراضي العدو حين لحظ تلك «الفوكه ـ فولف» اللعينة، فراح يطاردها، مع انه ربما كان لا يجدر فعل ذلك: كان قد اسقط طائرة «ميسيرشميت» واوشكت ذخيرته ان تنفد. يضاف الى ذلك ان المحرك كان قد اصابه بعض الخلل.

ولكن زافيالوف كان في نفسه شيء من غريزة القطة التي لا تستطيع مهما كانت الظروف ان تنظر الى الفأرة نظرة اللامبالاة. وراح زافيالوف يلاحق هذه «الفوكه ـ فولف» التي كانت تطير الى جانبه. وقد سيطر عليه الاحساس المعروف، المقارب درجة السكر، بالمعركة الوشيكة، وكانت كل ثانية اذ ذاك تدني زافيالوف من الطائرة المعادية. واذا به في اللحظة ذاتها يرى هيكل طائرة «ميسيرشميت» الدقيق يسطع كما في ضوء الشمس، وقد ظهرت فجأة.

كانت «ميسيرشميت» قد باتت بجلاء على اعقاب ليوتيكوف، الطيار الشاب في سرية زافيالوف. وما هي الا ثوان حتى القى زافيالوف بطائرته في طريق «ميسيرشميت» ودخل بينها وبين ليوتيكوف. ومع ذلك فقد وصل بعد فوات الاوان. فقد اخترق خط الطلقات النارية اللماع طائرة ليوتيكوف، وراحت تهوي مخلفة وراءها سحباً من دخان اسود.

وكان زافيالوف قد قرر ان ليوتيكوف قد انتهى امره، فاذا هو يلحظ كيف انفصلت من الطائرة الهاوية نقطة ضئيلة وانفتحت من فوقها مظلة بيضاء.

كلا، ما كان زافيالوف اذ ذاك يفكر بالملازم الاول فورونين، قائد السرية التي كانت تعمل فيها اوليا. بعد ذلك فقط، حين راح زافيالوف المنهك، الجائع، والفاقد الوعي من حين الى آخر، يستلقي في الماء الدافئ الآسن، ثم يسير، ثم يزحف، موغلاً في اعماق الغابة، — بعد ذلك فقط اخذ يدرك انه قد اوحى لنفسه بان يكرر عن وعي ما فعله فورونين ذات يوم وما حدثته عنه اوليا في اعجاب وفخار.

اما في تلك اللحظة فما كان يفكر الا بطياره، الفتى ابن العشرين، الذي كان قد جاءه قبل ثلاثة شهور قادماً رأساً من مدرسة الطيران الى السرية. كان ينبغي انقاذه باية وسيلة كانت. فراح ينزل العجلات، والتقط سمعه اوتوماتيكياً حركة معروفة، وشعر بصدمة مألوفة، ورأى كيف اشتعلت في الوقت نفسه الازرار الكهربائية الخضراء، مسجلة نزول العجلات.

وما ادرك زافيالوف تمام الادراك ماذا يفعل الا بعد ان مست طائرته الارض بعجلاتها. وراح ليوتيكوف يركض لملاقاته، وهو يعرج بشدة — جلي انه كان مصاباً بجرح في رجله او هو قد عطبها ساعة هبط الى الارض.

وفي تلك اللحظة بالذات رأى زافيالوف سيارة المانية واقفة على الطريق، وجنوداً ينبثقون من بين الاشجار، وسمع صوت طلقات نارية. وكان الالمان يقتربون من المرج ولكن ليوتيكوف قد وصل مع ذلك الى الطائرة وراح يتسلق الجناح. واذ ذاك انطلق زافيالوف يعدو للاقلاع بالطائرة. وفجأة شعر بصدمة هائلة — يظهر انه لم يلحظ حفرة او وتداً حديدياً مضاداً للدبابات، مغطى بالاعشاب.

ولقد واتى زافيالوف حظ لا يواتي الا مرة واحدة من ألف مرة. فقد اصيب بضربة على رأسه القت به بعيداً عن الطائرة. الا انه لم يفقد الوعي، فتوغل في الغابة. وسمع من ورائه انفجاراً اخرس طلقات نار الرشيشات...

و نجا من المطاردة. كيف؟ هو نفسه لا يعرف. قد يكون الالمان المطاردون اصمهم الانفجار، وقتل قسم منهم. لقد واتاه الحظ. وراح يركض، ويتسلق ويشق لنفسه طريقاً عبر جدار غابة الصنوبر، ويقع في مستنقع، فيفقد الوعي. ثم عاد اليه وعيه...

كلا، لم يكن من قبل يفكر بفورونين. لم يكن يفكر...ولكن من يعلم! ربما كان الفكرة بمأثرة قائد السرية وتذكرها كامنين في لاشعور زافيالوف حين انزل عجلات الطائرة.

ولكنه لم يوفق لتكرار مأثرة فورونين. لم يوفق لانقاذ الرفيق. واذ ذاك، وفيما كان يجر جسده عبر مستنقعات غابات منطقة فولخوف، وفيما كان يصاب بالاغماء مرة بعد اخرى، — اذ ذاك راح يفكر للمرة الاولى: «حسن ان اوليا لن تعرف قط كيف انهي حياتي نهاية مخزية لا مجد فيها».

...وحين وفق زافيالوف لاجتياز خط الجبهة، ثم عاد الى فوجه، كان اول سؤال طرحه: أليس ثمة رسائل من اوليا.

كلا، لم تكن ثمة رسائل منها. وسيمونيوك على حق. ليست اوليا على قيد الحياة، ولن تعرف ابداً ماذا فعل هو، زافيالوف محاولاً ان يكون كفوءاً لها، ولن تعرف ابداً كيف انه في زمن السلم قد سرح من الجيش بدون بيان الاسباب.

لم توجه الى زافيالوف اية اتهامات. ولقد تحدثوا معه بلطف وكياسة. قالوا انه ما يزال شاباً وفي كامل قوته، وسيستطيع في سهولة ويسر ان «يكسب» من اية خدمة مدنية. ان «يكسب»! هو، زافيالوف، يمكن ان «يكسب»!

كان يعلم ان لا جدوى من الجدل ومن تقديم البراهين. كان يعلم ان الناس، الذين كانوا سابقاً في الاسر او الذين كانوا في الاراضي المحتلة، يسرحون الآن من الجيش، بصرف النظر عن جميع التحقيقات اللاحقة التي مروا بها. وكثيرون منهم قد وجهت اليهم من جديد، اتهامات دحضت غير مرة.

ولعله كان ايسر على زافيالوف ان يعلم ان ثمة تهمة ما موجهة اليه. ولكان يكون امامه اذ ذاك هدف، ولكان علم ان عليه ان يزكي نفسه وان يروي مرة اخرى باسهاب، وبجميع التفاصيل،

انه لم يكن في الاسر ولا دقيقة واحدة، وانه محتفظ بجميع وثائقه...

ولكن من الجلي ان هذا كله معروف جيداً لدى الذين قرروا الآن مصيره. بيد انهم، خضوعاً منهم لمبدأ قاس جامد، قد انتزعوه من الحياة التي ما كان في وسعه العيش خارجها.

وما كان في وسع زافيالوف الاستسلام لهذا. لقد ثار قلبه وعقله على هذا القرار القاسي غير المعقول. والشيء الوحيد الذي كان في وسعه ان يعمله انما هو ارغام نفسه، بجهود طويلة الامد، على ان لا يتذكر ما جرى له سنة ١٩٤٦ اللعينة بالنسبة له. ان ينسى...

ولكن سيمونيوك يذكّره الآن. يذكّره ببرودة وقسوة. امسك المسمار ووضعه على القلب، وضربه بالمطرقة — طق...

وفجأة نازعت زافيالوف نفسه ان يوجه لسيمونيوك كلاماً جد عنيف وشرس ومهين، ويبرهن ان سيمونيوك على باطل، وانه مخطئ خطأ فظاً دنيئاً مقرفاً...

مخطئ؟ في اي شيء؟ وهل ترى قال سيمونيوك غير الحقيقة؟ اجل، لقد استدعوه الى شعبة «مكافحة الجاسوسية»، التي اصبحت سنة ١٩٤٣ تسمى رسمياً على ما يبدو باسم الشعبة الخاصة، الاستخبارات العسكرية. بلى، لقد كان سيمونيوك ملزماً بأن يحيل اليها الرسائل الواردة باسم زافيالوف اذا هي وردت. لم تكن ثمة رسائل. هذا كل شيء. ففيم الجدل؟

ذلك هو صوت المنطق. ولكن صوتاً آخر كان يدوّي. ذلك الصوت الذي كان خلال تلك السنوات كلها يثور على هذا

الضرب من المنطق. ولقد كان الآن يدوّي لدى زافيالوف باشد مما تدوي الاصوات الاخرى. وكان هذا الصوت يهمس في اذنه ان سيمونيوك، بخشونته، وفظاظته، وموقفه الساخر المزدري من الجميع، الامر الذي اثار زافيالوف الآن كل هذه الاثارة، كأنما كان «يعطي صفة شرعية» لكل ما جرى لزافيالوف، ويؤيد توطيد الاحوال القائمة وعدم تغييرها.

— انها على قيد الحياة!

هكذا قال زافيالوف، بصوت عال وبتحدّ، وهو يحدق في عيني سيمونيوك.

وابتسم هذا ابتسامة خبيثة، وكرر القول:

— سراب، ايها الرفيق المقدم السابق. اقول: انك تقبض على الريح.

— كلا!.. — صاح زافيالوف.

— «كلا» ماذا؟.. — سأل سيمونيوك.

— انها على قيد الحياة! لم يكن ممكناً ان اخطئ!

جلي ان تهيج زافيالوف اخذ يثير اعصاب سيمونيوك. ولقد سأل دون ان ينظر الى زافيالوف:

— ولكن ماذا تريد مني؟

— تذكّر، ربما كنت قد قابلت ذلك المفوض السياسي يوماً ما ... ذاك الذي بعث برسالة عن مقتلها... ربما تكون ثمة تفاصيل، عناصر...

— لا تبقى عناصر ممن يحترقون.

فصاح زافيالوف بحماسة جديدة:

— هذا خطأ، هل تفهم، خطأ! فقد رأيتها، رأيتها! غداً ساذهب الى ادارة التحرير في الساعة الحادية عشرة، وسيقولون من الذي التقط الصورة، ويعينون المكان، والعنوان...

— وبعد؟

— ماذا وبعد؟

— اسأل ماذا سيكون بعد؟ اي برنامج عمليات للمستقبل؟

— ولكن... كيف انك لا تفهم! سابعث على الفور ببرقية الى هناك، وساركب طائرة، فما يزال لدي في الاحتياط احد عشر يوماً من العطلة.

فقال سيمونيوك مبتسماً في خبث:

— مفهوم. يعني عملية انقضاض. هجوم فرسان.

— كفى سخرية، يا افاناسي بورفيريفيتش! لعلك لا تفهم ما هي اوليا بالنسبة الي؟ اي شيء كانت تعني بالنسبة لي فيما مضى، واي شيء تعني الآن؟ فانا لا اعيش. وكل ما جرى لي ليس بحياة حقيقية. فاذا انا وجدتها...

فقاطعه سيمونيوك في حذر وتيقظ:

— وماذا سيكون اذ ذاك؟

— اذ ذاك؟..

وشعر زافيالوف انه ليس في حال يستطيع معها التحدث عن هذا مع سيمونيوك.

فاستأنف سيمونيوك الكلام في ارتياح:

— أتسكت؟.. اذن فاسمع ما اقول لك. لنسلم بانها على قيد الحياة وانك ستعرف عنوانها. ستذهب الى هناك؟ طيب. وكما

يقال: اين هذا الشارع، اين هذا البيت؟ ولنسلم بانك وجدتهما. هو ذا هذا الشارع، هو ذا هذا البيت. وهذه هي ايضاً، يعني، هذه الامرأة ذاتها التي انا عاشق لها. على ان هذه الامرأة قد مرت عليها ثلاثون عاماً – الاطفال في المدرسة، وهم على وشك العودة، واما الزوج، ولنقل انه في الحمام، فلسوف يعود هو ايضاً عما قريب...

– كفى، يا افاناسي بورفيريفيتش...

– كلا، انتظر، عليك الآن ان تسمع، انت نفسك طلبت. – هكذا راح يتكلم سيمونيوك بلهجة قاسية، لهجة القائد – ستدخل، يعني، بيتاً غريباً. فتروح تتحدث عما جرى وعما صار، وتعلن انك تحت تصرفها لاستئناف خدمتك. الوضع مفهوم؟

– لا يمكن ان يكون هذا...

– ممكن جداً! وهل ظلت عانساً طول هذه السنوات، وهي في انتظارك؟ ها نحن اذن، قد خلصنا معك من الاحتمال رقم واحد. والآن، الاحتمال رقم اثنان: انك مخطئ. وبصادق القول، ان هذا الاحتمال انسب لك. ايسر. والسبب في ذلك، فكّر انت نفسك، هو انها لو كانت على قيد الحياة، واذا كان قد مر اثنا عشر عاماً ولا رسالة منها، ولا هاتف، فماذا يمكن ان يعني ذلك. هل فهمت؟ واذا كنت قد فهمت، فلماذا، بالله عليك، ستذهب اليها؟ هل ستوبخها ام ستروح تذرف الدموع؟ لقد قطعت الحرب كل شيء. قد تكون انت قد فقدت في هذه القضية قلبك، اما هي فما كانت تعتمد على جدية هذا...

– مرة اخرى ارجوك، يا افاناسي بورفيريفيتش، كفى!

– اصبر. ارى ان هذين الاحتمالين كليهما غير ملائمين لك. فهل تعلق آمالك على الثالث؟ فلنأخذ الثالث ايضاً. انك تود ان تكون على قيد الحياة وقد كانت في انتظارك كل هذه السنوات. غير معقول، ولكنه واقع. كما في النكتة. أتعرف هذه النكتة؟ كان لاحدهم زوجة، فذهبت الى المصح. وفي جلسة مع صديق يدور بينهما الجدل حول ما اذا كانت زوجته ستخونه هناك، في المصح، ام لا. ويؤكد الصديق قائلاً: الراجح انها تخون، ولكن لا ادري مع من: أمع واحد تعرفه ام مع اول من تلتقي به. ثم يخرج من جيبه قطعة نقدية ويقول: «كفى جدلاً، تعال نتراهن: الطرّة – مع واحد تعرفه، والنقش – مع اول من تلتقي به...» – ويصيح الزوج: «مهلاً، واذا كانت لن تخون قط وتحافظ على عفتها؟» – «ايوه – قال الصدق – اذ ذاك ينبغي ان تظل القطعة النقدية معلقة في الفضاء...» – وراح سيمونيوك يقهقه مبالغاً في القهقهة، ثم قطع ضحكه قائلاً: – هيا، لندع النكتة جانباً. ثمة احتمال ثالث. فاسمع. اوقفوها. اما في زمن الحرب، واما بعدها. يمكن ان تكون قد انقذت فعلاً، فالقت نفسها بالمظلة او ما لست ادري كيف. ولنسلم بانها وقعت مثلك في الاراضي المحتلة. ونحن معك نجهل ماذا كانت تفعل هناك. يمكن انها تفاوضت مع الالمان. يمكن شيء آخر. وبعد التحرير اوقفوها. ايوه، وبعد ذلك اطلقوا سراحها. ومن جديد فكّر: فهل ينبغي لك ان تبحث عنها في هذه الحال؟ انها، ولله الحمد، ليست زوجتك، ولا اختك.

– كفى، يا سيمونيوك!

– كلا، هيا اسمع، سانتهي الآن، لقد اثرت اعصابي كثيراً باوهامك. اني، في الحق، اذا اردت، افهم اسطورتك جيداً. بل وربما احسن منك. انك تريد بعث حياتك الماضية. تريد البعث مهما كلف الامر. تريد بعث ماضيك في حاضرك. ولكن عليك ان تفهم هذا: ما مضى، فات. انك لست في حاجة لاوليا هذه بالذات، انما انت تتمنى العودة الى الجيش، تود ان تمسك بمقود الطائرة، ذلك هو بيت القصيد. ولكن لا سبيل لك الى هناك. وقضيتك الشخصية محفوظة في ابعد ارشيف. وعليها كتبت الملحوظة المناسبة. بالقلم الاحمر على انحراف.

– من كانوا يكتبون هذه الملحوظة قد حكموهم. – انطلقت هذه الكلمات خافتة من بين اسنان زافيالوف، وهو بالكاد يتمالك نفسه.

فقال سيمونيوك في سخرية:

– هه، وماذا؟ انك لا تفهم من السياسة الا القليل! – ثم اردف يقول وفي صوته رنة مؤثرة: – لقد كنت، يا زافيالوف، تخدم في فوجي. وانت، بالتالي، كولدي. وانا لذلك اقول لك ما لا اقول لغيرك. هذه الريح الدافئة لا تركن اليها. لا تحلم بان تقلع فيها بشراعك. فهمت؟ وعلى كل حال، ما الذي يجعلك تندفع هذا الاندفاع؟ الوظيفة موجودة، والنقود جارية، وانت بعد شاب، واعزب، فعش!

وانقطع عن الكلام، ثم نهض قليلاً معتمداً بيديه على الارض، ومط رأسه فوق رقبته القصيرة، وتطلع الى آخر المطار، وقال:

– يا لأولاد الكلب، لا يجلبون الطعام حتى الآن! انا في جوع شديد! ساريهم، هؤلاء الكسالى!

فقال زافيالوف في نفسه: «ذلك هو الامر، انه جائع». وكرر قائلاً بكل غضبه المتزايد: «انه متلهف للأكل! طول الوقت كان يتطلع متسائلاً ألم يجلبوا الطعام. ينبغي له الآن ان يأكل، وليذهب الجميع الى جهنم! العميد المتقاعد سيمونيوك يريد ان يأكل». وسأل زافيالوف نفسه: «وانت لماذا تبكت؟ لماذا تتكلم مع نفسك، ولا ترفع صوتك؟ لماذا كنت صامتاً حين كان الشخص هذا يسخر منك؟ بلى، بلى، لقد كان يسخر منك! وليس وحدك. انه لا يؤمن بشيء. انه لا يؤمن بك ولا بآمالك. انه لا يؤمن بآمال احد. انه يعتبر نفسه صاحب حق في ان يتكلم معي هكذا. يعتبرني مثله. فردتا حذاء، كما يقال، زوج. انه واثق من اني لن انهض ابداً، لن اقف على قدميّ. انه يضحك على هوسي... ولكن هذا ليس هوساً، ايها العميد! ليس هذا هوساً البتة، هل تسمع؟ ولن اوضح لك. فانك لن تفهم. تخشى ان تفهم... ولكن لماذا انا صامت؟!.»

واذ ذاك ادرك بمرارة انه صامت لان هذا الشخص الذي بات كريهاً لديه قد نظر الى روحه نظرة جد مستهترة فرأى ما لم يكن زافيالوف يسمح لاحد برؤيته، حتى ولا لنفسه.

– جاؤوا!

هكذا صاح سيمونيوك، وقد هب واقفاً على قدميه القصيرتين بسرعة لا يتصورها العقل في جسم مثل جسمه. ثم قال:

– ايوه، سننهي حديثاً في المرة الثانية...

فقال زافيالوف بصوت عال:

ـ لن تكون مرة ثانية.

فسأل سيمونيوك في ارتباك، وقد تهيأ للركض نحو سيارة شحن كانت تقف في صندوقها فتاة بسترة بيضاء:

ـ ماذا، ماذا؟

فقال له زافيالوف، وقد بات عاجزاً عن كبح جماح غضبه:

ـ عجّل، يا سيمونيوك، عجّل. إلتهم سندويشاتك!

وقفل راجعاً ومضى في اتجاه معاكس.

وما ادرك انه قد قرر عدم المجيء قط الى سيمونيوك، حتى هدأت ثائرة غضبه. وما عاد لديه غضب، ولا استنكار، بل مجرد حزن. فقد كان هذا الشخص ايضاً جزءاً من ماضيه. ويده ايضاً قد لمست تلك الرسالة! ولكن سرعان ما زال هذا الشعور ايضاً. ولم يبق لسيمونيوك مكان في ما كان يفكر فيه اذ ذاك.

وراح زافيالوف يجتاز ساحة المطار بخطوات واسعة. ورآه تلامذة النادي وهم مستعدون للطيران، فهرعوا اليه.

وتضاءلت المسافة بينهم، وكان زافيالوف قد اعتزم ان يبسط يده الى امام في دعابة ويقول: «انا في عطلة، في عطلة، يا شباب، فلا اسئلة...» الا انه بدلاً من ذلك لم يستطع ان لا يسأل عن التدريب الذي سيقومون به اليوم، وان يسمع انهم اليوم سينهون التحليق الاعمى بالاجهزة.

وهمّ زافيالوف بان يجيب: «عال، عال، اتمنى لكم النجاح»، الا انه على نحو غير متوقع منه التفت الى تلميذ بنادي الطيران قريب منه وسأله هل يحفظ في ذاكرته بالضبط طريقة القيام

6—871

بالانعطافات والدوران في حجرة مغلقة، والى اي شيء يجب ان يكون انتباهه منصرفاً، وهو في الحجرة وفوق رأسه القبة... وسمع جواباً واضحاً، مضطرباً بعض الشيء، فقرر ان يطرح سؤالاً آخر، ثم يسلم وينصرف. وسأل زافيالوف كيف ينبغي على نحو صحيح توزيع الانتباه في الطيران الاعمى مع مراقبة اشارات الاجهزة، لأنه كان يعلم بتجربته الشخصية مدى اهمية ذلك بالنسبة للطيار الناشئ. ذلك ان الاجهزة العديدة هي كل ما يراه امامه الطيار وهو جالس تحت القبة الزجاجية المغلقة من الداخل بالقماش السميك.

وطرح بعد ذلك سؤالاً آخر، وسؤالاً آخر ايضاً... وما عاد في وسعه ان يحمل نفسه على الانصراف قبل ان يرى كيف سيجلس هؤلاء الفتيان في الطائرات، ويقومون باول تحليق اعمى في حياتهم.

٦ ـ ارجو مباشرة التحقيق...

قالت كوروستيليوفا لزافيالوف في بشاشة مبالغ فيها، وهو ما كاد يتجاوز عتبة قسم التصوير:

ـ اني مضطرة لازعاجك بعض الشيء. فالرسالة لم يتم العثور عليها بعد. والقضية، كما ترى، هي في ان السكرتيرة قد ذهبت الى العطلة، واما الفتاة التي تنوب عنها فليست على كفاية من الخبرة...

كانت كوروستيليوفا جالسة وراء طاولتها الصغيرة، وامامها مبسوطة (وقد لحظ زافيالوف هذا منذ ان اقترب من الطاولة) جميع الصور المنشورة في تلك الصفحة من المجلة.

وتابعت كوروستيليوفا كلامها قائلة:

ـ كنت اريد توجيه اسئلة الى جميع المصورين المراسلين الذي بعثوا بمواد لهذه الصفحة. انهم اربعة. ومع الاسف، ان اثنين منهم في مهمة خارج البلاد. وقد تكلمت مع واحد من اللذين هما الآن في موسكو. ليس لديه فكرة عن مصدر الصورة التي انت مهتم بها. وعما قريب سيمر علينا الثاني. وقد طلبت ان يجيء الى هنا منذ ان يحضر الى ادارة التحرير... هذا ما كان بودي ان اقول لك.

فسأل زافيالوف في لهجة يائسة:

ـ ولكن ما العمل؟

ـ المحافظة على هدوء البال.

فقال زافيالوف بحرارة:

ـ ولكني لا استطيع الانتظار!

ـ ولماذا؟

ـ انا...

وانقطع زافيالوف عن الكلام. فماذا كان في وسعه ان يجيب على مثل هذا السؤال الذي ربما كان يبدو بسيطاً، الا انه اخرق سخيف؟ ان يعرف ان اوليا على قيد الحياة، ولا يهرع الى البرق ، الى المحطة، الى المطار؟ كيف السبيل لايضاح هذا؟ كيف السبيل للبوح بان اوليا هي بالنسبة له نجم مفقود، ما لبث ان شع فجأة في حياته؟

قالت كوروستيليوفا ولمست يد زافيالوف باصابعها الطويلة النحيلة:

ـ لا ينبغي ان تحزن. لقد تأكدت ان التي تبحث عنها ما تزال على قيد الحياة. فهذه صور مأخوذة منذ وقت جد قريب.

وكان صمت. ثم سأل زافيالوف:

ـ اسمعي، ولكن ألا يمكن ان تكون هذه الصورة قد جاءت الى المجلة... من هذه الاضابير؟

واشار بيده الى الرفوف الملأى باضابير سميكة من المشمع.

فاجابت كوروستيليوفا بحزم:

ـ اوه، كلا! هناك حوليات. تاريخ. لكل شيء هناك اسمه... اناس واحداث.

– اشرار واخيار؟ – قال زافيالوف مازحاً.

– كما يصادف في الحياة.

– ونشر عن كل هذا؟

– اوه، كلا. خمسة وعشرون بالمئة، لا اكثر.

فسأل زافيالوف في دهشة:

– ولاي شيء تحتفظون بالخمسة والسبعين الباقية؟

– آ...لكل احتمال. وللتاريخ.

– وما معنى هذا؟ لماذا لا تظهرون حولياتكم لنا نحن المعاصرين؟ ينبغي ان تنشر في كتاب على حدة.

– ولماذا؟

– لكي يكون في الوسع تذكر الماضي، خيره وشره، لكي يجد المرء اعزّاءه واقاربه، من اجل العودة الى ذلك الوقت الذي كنا فيه خيراً مما نحن او اسوأ...

– ولكن لماذا؟

– ها انت من جديد تسألين «لماذا؟» – صاح زافيالوف – تذكري ، ان احد التتار في تمثيلية «في الاغوار» لغوركي يصرخ: «يجب اللعب بشرف!» اما ساتين فيسأل: «ولماذا؟» ثمة اشياء لا تتطلب الشرح.

– اوه، كم لا يزال في حياتنا من اشياء تتطلب الشرح! – قالت كوروستيليوفا هذا بصوت خافت.

وراح زافيالوف يتطلع اليها باهتمام. شعر شائب. عينان منهكتان. تجاعيد. أتراها عانت كثيراً؟ ومن ذا الذي لم يعان كثيراً في هذه السنوات!

وكرر زافيالوف القول متجهم الوجه:

– نعم، ينبغي الشرح والايضاح. ويبدو انهم قد بدأوا الايضاح. ولكن كيف يتم هذا بدون المساس بذكرى الاشخاص؟ اما انتم فانكم تغلقون على هذه الذكرى. تضعونها في اضابيركم وتغلقون عليها.

وهزت كوروستيليوفا برأسها، وقالت:

– ما كنت لتتكلم هكذا لو انك كنت تعلم كم كشفت هذه الاضابير في السنة الاخيرة. ولكني اسأل نفسي اجياناً: هلّ ينبغي فعل ذلك؟ ان الذاكرة البشرية طيبة، وانها لتضعف، وهي لا تجرح القلب على هذا النحو الرهيب.

فقاطعها زافيالوف قائلاً:

– وانت لا تخافي الناس. انهم غير منتحرين.

وفي تلك اللحظة انفتح الباب، وظهر على العتبة شاب عليه سترة فضية اللون، اما من النايلون او من حرير المظلات.

فهتفت كوروستيليوفا قائلة:

– وهذا انت اخيراً! تعارفا، هذا الرفيق زافيالوف.

– فيلونوف، – قدم الفتى نفسه دون ان يبسط يده للمصافحة، واحنى رأسه قليلاً.

قالت كوروستيليوفا:

– القضية، يا فيلونوف، تتعلق بعدد نيسان (ابريل) من المجلة. لقد جمعت له الصور مع غولتسيف، وشابيرو، وغيرهما. والمواضيع ثمة هي مواضيع مباريات ما قبل اول ايار (مايو). أتذكر؟

ـ ايوه، اتذكر، ـ اجاب فيلونوف ونظر في ارتباك الى زافيالوف.

فقالت كوروستيليوفا:

ـ عال. اقترب من الطاولة. هل تعلم اين التقطت هذه الصورة؟

ـ ليس لدىّ فكرة. وما هي هذه الصورة؟

ـ نحن ايضاً لا نعلم. لم يسجل على المغلف غير الكنية: ا. ايفانوف. كنت آمل انك تعرف...

ـ وما الذي جرى؟ هل صور احدهم موقعاً محظوراً؟ هذه بناية طويلة في الخلف؟ نعم؟ وانت من اية منظمة ايها الرفيق؟ ـ والتفت فيلونوف صوب زافيالوف.

فاوقفته كوروستيليوفا قائلة:

ـ كلا، كلا، ليس يخصك هذا قط. المسألة تتعلق بالبحث عن شخص. امرأة.

ـ زوجة؟ بنت؟ ـ راح فيلونوف يستطلع بعقلية رجل عمل.

فتمتم زافيالوف غير مخف انفعاله:

ـ بنت.

وتظاهر فيلونوف بعدم ملاحظة لهجة زافيالوف، وقال:

ـ لست ارى اطفالاً على هذا الفيلم. اذكر اني قد التقطت صورة اربعة توائم...

فقالت كوروستيليوفا وهي تلقي نظرة تأنيب على فيلونوف:

ـ الرفيق زافيالوف يبحث عن امرأة فقدت في زمن الحرب

اخبروه انها قتلت، اما هو فعلى اقتناع بانه قد عرفها على هذه الصورة.

وبغية قطع هذا الحديث العقيم، سأل زافيالوف كوروستيليوفا:

ـ متى سيعود المراسلان الآخران من الخارج؟

ـ مسألة بضعة ايام.

ـ هل تسمحين بان اتصل بك هاتفياً؟

ـ بالطبع. انا نفسي ساتلفن لك. هل عندك هاتف؟

ـ عندي.

وانتزع زافيالوف ورقة من دفتر الملحوظات، فكتب الرقم، ووضعها على الطاولة. ثم قال:

ـ ولكني اسمحي لي بان اتلفن لك انا نفسي. فعسير جداً الجلوس بدون عمل، والانتظار.

ـ طبعاً، طبعاً... سنطبع هذه الصورة السالبة. اعتقد انه سيطيب لك الحصول على صورة. ستكون جاهزة غداً. وسنبقيها لدى سكرتيرة التحرير باسمك.

ـ شكراً.

انتهى الامر. وفي وسع زافيالوف ان ينصرف. فيشد على يد كوروستيليوفا بقوة، وفي طريقه يهز برأسه هزة خفيفة لذلك الصبي فيلونوف. ماذا يمكن لهذا الفتى ان يتذكر؟ في رأسه هواء. سترة نايلون فضية. سحّاب. مخنث! وهل ترى يعرف ما الالم، ما الوجع؟.. يا للصبي!

وبيطء، بكثير من البطء، راح زافيالوف ينزل الى الطابق الاول.

وكانت في انتظاره خيبة امل اخرى. ففي اليوم الثالث، اتصل بادارة التحرير هاتفياً، فقالوا له ان المصورين المراسلين لم يعودا بعد. ولكن، بعد يومين، تلفنت له كوروستيليوفا نفسها. لقد عاد المصوران المراسلان، ونظرا الى الصورة، وهما يؤكدان ان ليس لديهما فكرة عن مصدر الفيلم. وهي جد آسفة. وستحاول ان تتبين من اين ا. ايفانوف هذا. حقاً، لقد تعقدت القضية الآن. ولسوف يضيع الوقت. ولكن لِمَ لا يتوجه زافيالوف، في هذه الاثناء، الى قسم البحث عن الاشخاص المفقودين، المنقطعة اخبارهم؟ هكذا يعمل الجميع في مثل هذه الظروف. فهو يعرف اسم هذه المرأة، واسم ابيها، وكنيتها، وعلى الراجح، تاريخ ولادتها. وتشير عليه كوروستيليوفا بان يراجع هذا القسم... وتأمل... وترجو له... وينتهي الحديث.

ومر اسبوع على عودة زافيالوف الى موسكو. فماذا وفق لأن يعرف في هذه المدة؟ ماذا وجد؟ هذه الصورة فقط. صحيح ان الصورة واضحة، جلية. تسعة على اثني عشر. وها هي امامه على الطاولة. شيخ يرتدي جبة، وامرأة ذات قبعة، وهي بينهما. آه، لو كان في الوسع حمل هذه المرأة ذات القبعة على ان تحيد برأسها قليلاً ايضاً!

ويغطي زافيالوف باصابعه الشيخ والمرأة. اوليا وحدها الآن مرئية. قريبة تماماً، الى جانبه تماماً... «سيمونيوك لا يصدق اني سأجدك. يعتقد انه لا ينبغي البحث عنك مطلقاً. انه لا يؤمن بالرياح الدافئة. اما انا... فاني اؤمن».

وفجأة ينتصب زافيالوف واقفاً، وبحركة عنيفة يقلب الصورة على قفاها. كفى! فما هو بحاجة لهذه الصورة المتحجرة. ينبغي البحث عن اوليا الحقيقية، الحية، لا اوليا المتحجرة. فالى القرد بهؤلاء المصورين المخبرين لا يتذكرون هم انفسهم ما يصورون!

ستبحث كوروستيليوفا هي ايضاً. انها انسان طيب! تود في صدق ان تساعده. فما ينبغي اهمال نصائحها. لقد تحدثت عن هيئة ما، عن قسم البحث عن الاشخاص...

...زافيالوف جالس على مقعد خشبي طويل، في ممشى سيئ الانارة، ينتظر دوره. انه منذ وقت طويل ينتظر متى سينفتح هذا الباب السميك المصبوغ بلون بني، وعليه لوحة سوداء كتب عليها: «ك. م. بروخوروفا».

واخيراً، يدخل زافيالوف. غرفة صغيرة. طاولة مكتب صغيرة. ومن ورائها امرأة في لباس موظف ميليشيا. واضح انها «ك. م. بروخوروفا».

وبلهجة جافة قالت المرأة اللابسة بزة ملازم الميليشيا:

– اجلس.

عمرها دون الخمسين. وجه نحيل ناتئ الوجنتين، وعينان باردتان، واخزتان. والشعر مجدول مكوّم في قفا الرأس.

– نعم؟ – قالت بروخوروفا.

– اريد البحث عن شخص كنت اعتقد انه مات.

هكذا يبدأ زافيالوف الكلام. ويؤثر عليه الجو تأثيراً مرهقاً، فيحاول وفقاً لهذا الجو ان يكون كلامه رسمياً. فيردف قائلاً:

ـ اسمها اولغا اليكسييفنا ميرونوفا. تلقيت نعيها سنة الف وتسعمائة واربع واربعين. ولكني الآن رأيت صورتها في مجلة. لم يمكن تحديد مكان التقاط الصورة وتاريخه بالضبط. وقد كان بودي...

وتقاطعه بروخوروفا قائلة:

ـ الوثائق.

فيخرج زافيالوف بطاقة هويته بعناية ويضعها على الطاولة، ولكن بروخوروفا لا تمس البطاقة.

ـ اني اطلب الوثائق المبينة لدرجة قرابتك. من تكون بالنسبة لك المواطنة التي تبحث عنها؟ زوجة، بنت، اخت؟

فيقول زافيالوف بعد توقف:

ـ انها من معارفي.

ـ اننا، ايها المواطن، لا نبحث عن المعارف. ان القسم يبحث فقط عن الاقرباء المباشرين.

وبحركة صارمة تدفع بروخوروفا ببطاقة الهوية صوب زافيالوف، وتلقي نظرة فراغ صبر باتجاه الباب.

ويسارع زافيالوف الى القول:

ـ ولكن... ولكنها... زوجتي الفعلية. بسبب الحرب لم نستطع تسجيل زواجنا. تعارفنا سنة الف وتسعمائة واحدى واربعين...

ـ القانون عن الاعتراف بالزيجات المسجلة فقط صدر سنة الف وتسعمائة واربعة واربعين. فكان لديكما فسحة من الوقت لتسجيل علاقتكما.

ـ نعم، ولكن...

كلا، انه لم يعد قادراً على النطق بكلمة واحدة. انه فقط يتطلع بكراهية الى هذه المرأة من جلد وعظم. ولو انه كان يعلم ان في مقدورها ان تعثر له على اوليا، لما استطاع اذ ذاك ان يحمل نفسه على الكلام في تلك اللحظة. ويطرق سمعه الآن صوت بروخوروفا كأنما هو صادر من وراء جدار:

ـ و... اننا لا يمكن ان ننفق الوقت والمال للبحث عن مجرد «معارف»...

ويتناول زافيالوف بطاقة هويته ويضعها في جيبه وينهض بعنف ويمضي الى الباب. وفجأة يسمع صوتها الملقلق العالي:

ـ انك، طبعاً، تعتقد اني لست على حق؟

ويلتفت زافيالوف. وفي الحال يلاحظ احمراراً على خدي بروخوروفا الغائرين. أمن تهيج؟ أمن خجل؟

وتتابع بروخوروفا قائلة:

ـ ... الوف الناس حتى الآن لا يتمكنون من ايجاد اولادهم، وابائهم، وامهاتهم، واما انت فتتذكر فجأة بعد خمسة عشر عاماً واحدة من معارفك! ويبدو لك امراً مشروعاً المطالبة بان نباشر البحث عنها، ونحول العشرات من الناس عن شغلهم وننفق مواردنا التي هي بطبيعة الحال ضئيلة. وكل هذا لمجرد انه قد بدا لك كأنما قد رأيت امرأة، كنت قد تعرفت اليها،

مجرد تعرف منذ قرابة خمسة عشر عاماً! وتعتقد اني لست على حق؟

ويجيب زافيالوف في بطء:

– لست افكر في انك على حق ام لا. فليس يهمني هذا. ولكني اود ان اقول: حين يكون على متن طائرة واحد من اثنين متحابين، ثم تصيب هذه الطائرة قذيفة مدفع مضاد للطائرات او ترشه زخة من طلقات نارية، فتحترق في الجو... اود ان اقول ان هذا سبب وافي المعقولية لعدم تسجيل الزواج في حينه. يعطيك العافية!

– انتظر!

ويتوقف عند الباب. وتقول بروخوروفا:

– عد، واجلس.

وترن في صوتها نبرات تنم عن السلطة. ويعود زافيالوف ويجلس على الكرسي.

وتدني بروخوروفا ورقة بيضاء منها، وتمسك بقلم رصاص ازرق مبري حاد الرأس وتقول:

– اذكر كل شيء من البداية. اذن، اولغا اليكسييفنا ميرونوفا؟.. كانت تخدم في الجيش؟ رتبتها، عمرها، الجبهة، رقم الفوج؟..

ويذكر لها زافيالوف كل شيء من البداية. الكلام جد صعب عليه. ولكنه في غير حاجة لبذل الكثير من الجهد من اجل ان يقول «نعم»، «كانت تخدم في الجيش»، «نعم، في الملاك»، وان يعين الجبهة ورقم فوجها. وانه ليجيب في اقتضاب، وبلهجة

جافة، كأنه في استجواب امام قاضي التحقيق. سؤال – جواب، سؤال – جواب.

ولا تسأل بروخوروفا عن اكثر من هذا. فلا تهمها المشاعر. تهمها فقط الوقائع. والتواريخ.

واخيراً تضع بروخوروفا قلم الرصاص جانباً، وتقول:

– ثمة سؤال آخر. اذا كنت لا تريد... فلا تجب. اذا كانت ميرونوفا، كما تعتقد، على قيد الحياة، فمعنى هذا ان الطائرة اذن لم تتحطم. او انها انقذت بمعجزة من المعجزات؟ هكذا؟

فيوافق زافيالوف قائلاً:

– بدهي.

– واذن، فلماذا لم تكن تكتب اليك؟ فقد كنتما، من قبل، حسب قولك، تتراسلان طول الوقت؟

من جديد، هذا السؤال اللعين!

– ما كنت في الفوج وقتاً طويلاً.

يقول زافيالوف هذا، وبصره مسبل، يتطلع الى ارض الغرفة.

– ولكن اما كان رفاقك في العمل يعرفون اين انت موجود؟ كان بوسعهم ان يحولوا الرسالة اليك.

فقال زافيالوف:

– لا يبعث بالرسائل الى حيث كنت.

فتفهمه على طريقتها.

– ولكن المرء يعود آخر الامر من اية مهمة سرية. وها انت قد عدت. ولكن لم يكن ثمة رسائل منها؟ هكذا؟

– هكذا.

– ألم يخطر في ذهنك ان هذا ظرف معقد؟ انه لا يتلاءم وافتراضك ان ميرونوفا حية. او...

– كنت في الاراضي المحتلة.

يقول زافيالوف هذا في حدة، وهو يحدق ببصره مباشرة في عيني بروخوروفا.

– كان الرفاق يظنون اني لم اعد على قيد الحياة.

فلا يعبر وجه بروخوروفا عن شيء: لا عن الدهشة، ولا عن الأسف، ولا عن الاستنكار.

وتكرر قوله دون ان ينطبع على وجهها اي انفعال:

– هكذا كان يظن رفاقك. ولكن ميرونوفا ما كانت تستطيع معرفة هذا؟ انك تستبعد مثل هذه الفكرة: ربما كان احد اصدقائك قد كتب لها انك قد قتلت؟

وفكر زافيالوف قليلاً.

– مستبعد. انا وحدي كنت اعرف رقم بريد فوجها. وعدا ذلك، فاني قد وقعت في اراضي العدو بعد شهر فقط من الاعلان عن وفاتها. وفي العادة كنت خلال الشهر اتلقى منها ما لا يقل عن رسالتين.

فتقول بروخوروفا:

– ها انت ترى ان جميع المعطيات تقول انك على خطأ، وهذا الشخص... اولغا اليكسيفنا ميرونوفا هذه، قد قتلت.

– كلا!

وتحدق بروخوروفا في عينيه بامعان، وتقول بعد صمت غير طويل:

– طيب. اكتب تصريحاً. خذ هذه الورقة. اكتب: «الى قسم البحث عن الاشخاص المفقودين، المنقطعة اخبارهم. ارجو مباشرة البحث عن المواطنة اولغا اليكسيفنا ميرونوفا...»

كان يسير في الشارع، مكرراً في نفسه: «ارجو مباشرة البحث عن المواطنة اولغا اليكسيفنا ميرونوفا... ارجو مباشرة البحث...»

كان لهذه الجملة فعل المنوم المغناطيسي عليه. جملة سخيفة: «مباشرة البحث عن المواطنة...». كل هذا مقرف الى درجة رهيبة، تلك الغرفة الباردة المبهمة، والمحادثة الشبيهة بالاستنطاق، وتلك العيون القصديرية الباردة. «ارجو مباشرة البحث عن المواطنة...»

ولكن لم يكن لديه من سبيل آخر. وهذا السبيل هو امله الاخير. سيكون عليه ان يعود من جديد الى هناك، الى تلك الغرفة. ان بروخوروفا لا تعتقد ان في الوسع توقع الوصول الى نتيجة ما قبل اسبوعين او ثلاثة. وقد قالت: «اكيد ان من الممكن المجيء قبل ذلك، اذا كان ثمة متسع من الوقت...»

اذا كان ثمة متسع من الوقت! ان لديه متسعاً من الوقت حتى للركض، للسير، للزحف... اللهم اذا هو عرف انه سيدنو من اوليا!

وبلغ زافيالوف ساحة محطة بيلوروسكايا. ونزل الى الميترو. ومضى الى ساحة سفردلوف. وذهب الى محطة ساحة «الثورة». وجلس في القطار الذاهب الى ساحة «اربات».

وحين خرج زافيالوف الى الشارع كان ينهمر مطر شديد. والناس واقفون جماعات في المداخل وتحت الابواب. وبات الشارع خالياً. غير ان الناس كانوا متجمعين امام واجهة عرض الصحف، برغم المطر. كان ثمة قرار اللجنة المركزية بشأن تصفية عواقب عبادة الشخصية...

كان زافيالوف سائراً على الرصيف لوحده. وكان الناس الواقفون في المداخل، والملتصقون بجدران البيوت ينظرون في استغراب الى زافيالوف السائر في بطء تحت المطر.

وما كان يلاحظ نظراتهم. فهو غارق في افكاره الكئيبة. وبغتة ناداه صوت رنان:

ـ مرحباً بالجيل الاكبر!

وكان ذلك فكتور، ابن عمة زافيالوف، القادم من لينينغراد، وقد كان في انتظاره عند المدخل منذ ساعتين.

٧ ـ كم حقيقة في العالم؟

ـ حكاية رومانطيقية جداً، جداً...

هكذا قال فكتور مستغرقاً في التفكير، وقد التهبت عيناه. واضاف:

ـ وهل تعتقد انها حية؟

ـ اني مقتنع بذلك.

ـ طريف... واذا وجدتها؟ ماذا تفعل اذ ذاك؟ تتزوج؟

ـ لست... ادري. سيكون هذا متعلقاً بها بالدرجة الاولى.

ـ طريف جداً.

كرر فكتور قوله هذا، واتجه ببصره الى الصورة، الموضوعة على الطاولة.

ـ هذه هي؟

ـ نعم، ـ اجاب زافيالوف.

كان ابن العمة فكتور الشخص الوحيد الباقي من اقرباء زافيالوف. فبعد بضع سنوات من انتهاء الحرب، تلقى زافيالوف، على نحو غير متوقع، رسالة منه واردة من لينينغراد. كان فكتور، الطالب في الصف الاول من معهد طرقات السيارات، يقول في رسالته انه لتوه قد وارى والده التراب، وبات يتيم الاب والام.

واجاب زافيالوف بسرعة. سيكون دائماً سعيداً برؤية قريبه الذي لم يتفق له بعد ان التقى به ولا مرة. وبعث اليه بشيء من النقود.

ومنذ ذلك الحين اصبح يبعث الى فكتور مبلغاً غير كبير من المال، بصورة منتظمة تقريباً. وفي عام ١٩٥٢ جاء فكتور الى زافيالوف، للمرة الاولى، في العطلة الصيفية.

انه فتى معتدل القامة، نحيل، يرتدي قميصاً بالياً من قمصان رياضة التزلج، وبنطالاً أكل الدهر عليه وشرب. وقد راق الفتى في الحال لزافيالوف. كان لاذع اللسان، على شيء من الاعتداد بالنفس، ومن سذاجة الطفولة في الوقت نفسه. وقد عاش اذ ذاك لدى زافيالوف قرابة شهرين.

ومرة اخرى جاء فكتور الى زافيالوف سنة ١٩٥٤ في طريقه للقيام بالتمرين في حقل الانتاج.

ويمر عامان. وها هو مهندس طرقات السيارات العتيد فكتور جالس من جديد في غرفة زافيالوف، مرتدياً هذه المرة طقماً لا بأس به، تفصيلته من نوع السبور، يصغي الى زافيالوف، باسط القدمين.

وعاش هذا الفتى عنده اسبوعاً. وكان زافيالوف قد اخذ يألف فكتور. ومع ذلك فما تحدث له قط عن اوليا. وكان زافيالوف قد بدأ العمل. وفي الامسيات كانا يتحدثان عن مختلف الاشياء، ولا سيما عما كان في ربيع وصيف ذلك العام، ١٩٥٦، يهز مشاعر الشعب كله، وعن عمل فكتور المقبل، (وكان قد عين في سيبيريا، تحت تصرف احدى ادارات المواصلات

المحلية)، وعن مهرجان الشبيبة الذي سيقام في السنة القادمة في موسكو.

اما اليوم فقد حدث ان اتصل زافيالوف هاتفياً ببروخوروفا، غير محتمل المهلة التي حددتها. فتلقى منها جواباً جافاً: لم يعلم شيء بعد، ومن غير المحتمل ان يتضح شيء ما في الوقت القريب.

فاوقع جواب بروخوروفا المقتضب زافيالوف في الكآبة.

وعاد الى البيت، فرأى فكتور يدير جهاز الراديو، وشعر في الحال انه لم يعد قادراً على احتمال اساه لوحده، فراح على الفور، دون تردد، يتحدث لفكتور عن اولغا.

ـ جميلة.

هكذا قال فكتور ممسكاً الصورة بيده وممعناً النظر اليها. ثم اضاف:

ـ وكم عمرها الآن؟

ـ سنة احدى واربعين كان عمرها سبعة عشر عاماً. اي انها الآن في الثانية والثلاثين.

وبتأن اعاد فكتور الصورة الى موضعها السابق. وقال:

ـ طريف جداً. لو اني قرأت ذلك في جريدة، لما صدقت.

ـ ولماذا؟

ـ شيء مفرط في الرومانطيقية حقاً.

ـ تنشر في الجرائد اشياء اكثر رومانطيقية من هذا بكثير.

ـ صحيح، حقاً، لا حاجة للكلام!

هكذا قال فكتور، وفتح جهاز الراديو من جديد، محركاً زره في بطء.

وسمعت نتفة من كلام المذيع، ثم اغنية جوقة من الجوقات، وبعد ذلك سمع صوت يعلن: هنا «صوت اميركا». فاغلق فكتور الراديو بعنف، وقال:

ـ تعرف، يا فلاديمير اندرييفيتش، ذات مرة، في بيت الطلبة، ونحن نستمع الى الراديو، التقطنا واحدة من هذه المحطات. كنا ثلاثة، فتظاهرنا جميعاً اننا لا نعرف انها تلك المحطة. كان ذلك منذ وقت بعيد. قبل ثلاث سنوات. بعد وفاة ستالين مباشرة. كان المذيع يتكلم عن اعتقالات ومعسكرات اعتقال، ولكنه ما كان قد قال كلمة تبين مباشرة ان الحديث يدور حول بلادنا. ولكنا جميعاً حزرنا انه يتكلم عنا، ولكننا كنا نتظاهر باننا لا نفهم من الامر شيئاً. وبعد ذلك لفظ المذيع للمرة الاولى كلمة «ستالين»، فسارع الفتى الجالس قرب الراديو لاغلاقه وقال بصوت عال: «يا للاوغاد!» وكررنا جميعاً: «يا للاوغاد!»، وانصرفنا بسرعة. وها انه قد ظهر الآن ان ذلك كله صحيح.

فسأل زافيالوف، وكان يصغي لفكتور، بانتباه، هذه المرة:

ـ ما هو الصحيح؟

ـ ها... كل هذا. يعني الاعتقالات وبصورة عامة. اما نحن فكنا نشوش على تلك الاذاعات. لماذا؟ أليس في وسعنا نحن ان نميز الحق من الباطل؟

وراح زافيالوف يحدق في عيني فكتور بنظرة ثابتة. وصمد هذا للنظرة. «ولكن اجب، اجب!» ـ هكذا كان

زافيالوف يقرأ في تلكما العينين المحملقتين، اللتين كانتا ما تزالان عيني فتى صغير.

ثم اخذ زافيالوف يقول في بطء:

ـ حين يصدر عن رفيق حميم، او عن انسان اثق به، انتقاد لشيء ما في حياتنا، فاني اصغي اليه وغالباً ما اوافقه. وانا نفسي، بدوري، انتقد. اما حين يكون الانتقاد صادراً عن عدو، فاني اود لو أنهال على وجهه بلكمة.

ـ ولماذا؟ أترى تصبح الحقيقة باطلاً اذا تكلم عنها العدو؟

ـ انك، يا فكتور، تفكر على نحو مفرط في الشكلية. أكيد ان العدو يمكن ان يذكر الاخطاء والجرائم التي كانت موجودة فعلاً. ولو لا انه كان يستغل ضدنا بعض الوقائع الحقيقية، لكان ذلك مجرد سخف. ولكن المسألة ليست مسألة وقائع وحسب.

ـ مسألة ماذا اذن؟

فقال زافيالوف بصوت منفعل:

ـ مسألة اني ـ اف! ـ لا استطيع المناقشة في هذه الامور على اساس الحساب البدائي! انك الآن تتكلم كما لو ان رأسك لا يفكر وقلبك صامت. الحقيقة، في نظري ايضاً، هي دائماً حقيقة، ولكنها لا تخرج قط من فم العدو الا ومعها اكثر من عشرات الاباطيل...

ـ اطرحها.

ـ عدنا الى الحساب! تصور: انك تشتغل منذ وقت طويل، وبنشاط شديد، وتقوم، حسب اقتناعك، بعمل جد هام، وتتعب،

وحتى الطعام لا يتيسر لك دائماً. والى جانبك يجلس شخص، ويتمتم: «انك تعب!» وان هذه لحقيقة! «انك جائع». وهذه ايضاً حقيقة! ولا يكتفي ذلك الشخص: «انك لم تحفر دائماً تلك التربة التي كان ينبغي ان تحفر، ولم تحصل دائماً على تلك المحاصيل التي كنت تتوقعها». وهذه ايضا حقيقة! «فاترك عملك الذي لا طائل تحته، واطرح المجرفة والمعول، كفى كدحاً، توقف! عبث وباطل كل ما تبذل من جهود، وكل ما تحمل من آمال...» هذا ما يقول لك العدو!..

وصمت زافيالوف.

وبدأ فكتور يقول: «ولكن اذا...» الا ان رنة جرس على الباب اوقفته عن الكلام. فقال: «سأفتح»، ومضى الى الممشى.

«من يمكن ان يكون هذا؟» ـ هكذا تساءل زافيالوف في نفسه. وسمع عندما فتح الباب صوت رجل غير معروف يسأل:

ـ الرفيق زافيالوف في البيت؟

فقام زافيالوف الى الممشى. وسأله رجل لا يعرفه، يحتذي جزمة، ويرتدي معطفاً من الغابردين، وعلى رأسه كاسكيت:

ـ انت الرفيق زافيالوف؟ فلاديمير اندرييفيتش؟ اود التحدث اليك... كنيتي انطونوف... ـ ومد يده الى داخل المعطف، فاخرج بطاقة رجال التحقيقات الجنائية وابرزها لزافيالوف.

فسأل زافيالوف في ارتباك:

ـ من اين؟

فكرر انطونوف قائلاً: «من الميليشيا»، ويده الممدودة ما تزال ممسكة ببطاقته.

فتناولها زافيالوف بصورة آلية، ثم ردها دون ان يفتحها.

ـ تفضل.

وسأل فكتور:

ـ أعليّ ان اخرج؟

فقال زافيالوف:

ـ اذهب لتتنزه.

ولكن انطونوف قاطعه قائلاً:

ـ ليبق الشاب. اسمك فكتور؟..

ودخلوا الغرفة ووقفوا وسطها. «لو يخلع الكاسكيت على الاقل»، ـ هكذا راح زافيالوف يفكر بروح عدائية. وسأل بلهجة جافة:

ـ اما تتخفف من ملابسك؟

ـ شكراً، ـ اجاب انطونوف، ولكنه خلع الكاسكيت. ـ لن اطيل المكوث هنا.

وجلسوا: انطونوف قرب الطاولة، وفكتور في موضعه السابق، قرب الراديو. وسأل زافيالوف:

ـ ماذا جرى؟

ـ بودي ان اعرف شيئاً ما.

هكذا بدأ انطونوف الكلام. كانت له طريقة بطيئة في النطق، يشدد فيها على لفظ بعض الحروف على غير عادة اهل موسكو.

ـ إسأل.

ـ كلا، ليس لك. السؤال لهذا الشاب. يسمونك فكتور؟

– نعم.

لبث فكتور هادئاً في مظهره. كان في عينيه فقط اشعاع غير مألوف.

سأل انطونوف:

– هل تعرف فاسيلي غوريايف؟

ويتوقف لحظة. ثم يجيب:

– اعرفه.

– من زمان؟

– تعارفنا في سفرتي الماضية. كنا نذهب معاً الى الملعب.

– متى كان ذلك؟

– سنة اربع وخمسين.

– وفي هذه السفرة، هل كنت تراه؟

صمت قصير.

– كنت اراه.

وتدخل زافيالوف:

– وما القضية، اخيراً؟ من هو فاسيلي غوريايف هذا، يا فكتور؟

– لحظة! – رفع انطونوف سبابته، ومن جديد التفت الى فكتور: – اين كنت تقابله؟

– في الشارع. فهو يعيش قريباً من هنا، في زقاق كيسلوفسكي.

– لنقل كان يعيش. وبعد ذلك؟

فسأل فكتور: «ماذا بعد ذلك؟» كان جالساً منتصب الجذع، واصابعه تلف بعناد على مسندي المقعد.

– وهل كان يجيء لعندك؟ اريد ان اقول الى هذه الشقة؟

– جاء مرة واحدة لمدة خمس دقائق. ربما عشر.

– هل كنت تعرف من هو ومن اين؟

– ماذا يعني «من ومن اين»؟

– آ، وهل كان يحدثك عن شيء ما؟ عن حياته وهلم جراً.

– ما كان يحدثني عن شيء. كان يسأل كيف اعيش، وهل انهيت المعهد، وماذا اعتزم ان اعمل فيما بعد. كنا نتحادث ونفترق.

وتدخل زافيالوف في حزم، قائلاً:

– اسمع. اوضح لي اخيراً ما الامر. هذا الفتى قريب لي، وقد انهى في لينينغراد معهد...

فانهى انطونوف الجملة مشدداً على لفظ بعض الحروف:

– طرقات السيارات.

وكرر زافيالوف في انفعال:

– نعم، طرقات السيارات. واعتقد ان قد حان الوقت...

فقاطعه انطونوف دون ان يظهر على وجهه اي انفعال، مشيراً بسبابته القصيرة من جديد:

– لحـ...ظة! يعني ان غوريايف لم يحدثك بشيء خاص؟ لم يحدثك بشيء البتة، يا فكتور؟

– كلا.

– هل ذاكرتك حسنة؟

– ممتازة.

– ايوه... نعم... – وراح انطونوف يهز رأسه في بطء. ثم التفت الى زافيالوف: – ان غوريايف هذا كان قد هرب من ايدي الحرس. كان قد اشترك في عملية سطو على دكان. وقد حكم، الا انه هرب.

– وهل تريد ان تقول ان لفكتور علاقة بذلك؟..

– كلا، كلا، ابداً! كل ما في الامر ان غوريايف قد شوهد مع هذا الشاب، مع صاحبك فكتور. في الشارع. ومرة اخرى حين كانا خارجين من مدخل هذا البيت.

كان فكتور ما يزال جالساً بذلك الوضع المتوتر ذاته. خداه محمرّان. الا ان نظراته، كما في السابق، ثابتة، صافية، بل ومتحدية.

وسأل زافيالوف:

– هل كان يذكر لك شيئاً عن فراره؟

– كلا، طبعاً.

فقال زافيالوف لانطونوف:

– آمل بانك فاهم ان فكتور ما كان يمكن ان تكون له علاقة باعمال هذا الشقي. فما كان في موسكو خلال عامين و...

فوافق انطونوف بطيبة خاطر قائلاً:

– انا فاهم هذا. على انه كان لا بد لنا من الاستيضاح عما اذا كان فكتور يعرف اي شخص هو غوريايف هذا. أما كنت عارفاً، يا فكتور؟

– ما كنت عارفاً.

ونهض انطونوف ووضع الكاسكيت على رأسه بعناية.

– ارجو المعذرة على الازعاج – قال هذا وهو يتجه الى الباب، الا انه توقف عند العتبة – اذن الى شق الطرقات في سيبيريا؟ – هكذا سأل بصورة فاجئة.

كان فكتور صامتاً.

ثم لاحظ انطونوف قائلاً بطيبة نفس:

– في الحق، ان الطرقات عمل حسن. عمل ضروري، الطرقات...

ومضى الى الممشى. وسار على اثره زافيالوف لكي يفتح له الباب. وفجأة خطر له ان يستوقف انطونوف ويسأله عما اذا كان يشك في صدق فكتور ام هو يصدقه. الا انه سكت. فالسؤال يعني عدم الثقة بفكتور.

وفتح الباب. ودون ان يقول شيئاً رفع انطونوف يده الى طرف الكاسكيت.

وبصوت عال، قال زافيالوف: «مع السلامة»، واغلق الباب وراء انطونوف، وعاد الى الغرفة.

كان فكتور واقفاً امام النافذة، ينظر الى الشارع. فلم يلتفت. فسأل زافيالوف:

– ما هذا الفتى؟ آ، غوريايف هذا؟ ولماذا تجيء الى هنا دون اذن مني، بمثل هؤلاء المشبوهين؟

وادرك متأخراً جداً انه ارتكب خطيئة. «تجيء» بدون اذن...» يا للسخافة! كأنما يريد التنويه بان هذا البيت غريب على فكتور، وانه هنا ليس في بيته.

ولكن فكتور، كما هو جلي، لم يكن يسمع شيئاً. كان ما يزال واقفاً امام النافذة، ولم يلتفت حتى لصوته.

فسأل زافيالوف في الحاح:

– فكتور، هل تسمعني؟

والتفت فكتور، اخيراً، وقال:

– كنت انظر كيف خرج من مدخل البيت. ثم راح يسير في الشارع.

– اي معنى لهذا؟ خير لك ان تجيب على سؤالي: ما قماش غوريايف هذا؟

فقال فكتور بفتور:

– فتى من الفتيان.

فكرر زافيالوف في انفعال:

– «فتى من الفتيان!» حلو هذا الفتى، الذي ينهب دكاناً...

– هو نفسه لم ينهب. حشروه حشراً في هذه القضية. الاصدقاء.

– لم ينهب؟ ولكن، اسمح لي، من اين تعرف هذا انت؟ معنى هذا ان الحديث جرى حول هذا الموضوع.

واضطرب فكتور.

– ايوه، قال لي ان لديه مزعجات، وانه كان مشتبهاً به. ولكن بعد ذلك جرى كل شيء على ما يرام.

– ولكن بعد ذلك، يعني، «جرى كل شيء على ما يرام»؟

اجاب فكتور باقتضاب: «نعم»، ثم جلس من جديد على المقعد، وفتح الراديو، مشيراً بذلك الى انه يعتقد ان الحديث قد

انتهى.

ويتكلم المذيع. وتعزف احدى الاوركسترات السمفونية. ثم اذا بالجاز يسمع صافي الصوت، بدون تشويش.

وبصورة مفاجئة سأل فكتور:

– يا فلاديمير اندرييفيتش، اي نوع من الجاز تحب اكثر من سواه: الحديث ام التقليدي؟

فاجاب زافيالوف على نحو آلي:

– الجاز الذي يمكن الرقص عليه.

– وتحب الرقص؟

– كنت احبه ذات يوم... اسمع، يا فكتور، هل قلت كل شيء كما وقع: ألم تكتم شيئاً؟

فاجاب فكتور باقتضاب: «كلا»، وحرك حاجبيه قليلاً. كان جلياً ان هذا الحديث لا يروق له.

فقال زافيالوف:

– طيب، اني اصدقك.

وظلا بضع دقائق يصغيان للراديو صامتين. ثم قال فكتور:

– احطني علماً متى وجدت فتاتك: فسوف اجيء. ولن اكون مزعجاً. انما ساتطلع اليكما معاً وانصرف.

– كيف تُفهم هذه – «ساتطلع»؟

– لعلي لم احسن التعبير. كل ما في الامر اني ما كنت اتصور حتى الآن ان مثل هذا الحب يمكن ان يوجد في زمننا هذا.

فسأل زافيالوف على نحو غير متوقع منه هو نفسه:

– قل، من فضلك، يا فكتور، هل لديك فتاة؟ هناك، في لينينغراد؟

فهز فكتور بكتفيه، واجاب لا على الفور:

– كانت. الآن، لا.

– اختصمتما؟

– لم تتوافق طباعنا.

– أثمة شيء خطير؟

– كلا، حكاية عادية. كالتي تكتب في الجرائد. هو بدوي النزعة تجتذبه القفار. اما هي فعلى العكس تماماً: اولاد، عربات اطفال... وبكلمة، لقد كانت تتصور حياتنا المقبلة على غير ما اتصورها. فافترقنا. كانت تود شيئاً، وانا اود شيئاً آخر.

– وماذا تود انت؟

– بصورة عامة؟

– ايوه، ولو بصورة عامة.

– الترحال. في ارجاء العالم كله. حول الكرة الارضية. ان ارى كل شيء. هذا.

– وهل تعرف اللغات؟

– كلا، قليلاً. كنت اتعلم الفرنسية. بحجم عبادة الشخصية.

– ماذا!؟

– لا عليك، هكذا انا، امزح... فانت تعلم كيف كانوا يعلمون اللغات في السابق. مقدار من الدروس، ومقدار من الكلمات تترجم بواسطة القاموس. وينتهي الامر. اما التحدث

فلسنا نستطيعه، ولماذا؟ فما كنا نحن لنفسنا نسافر الى اي مكان، واما القادمون الينا فاننا نتجنبهم. وعلى العموم، ما كان ثمة من سبيل للمطالعة. فالكتب الاجنبية الحديثة لا يمكن الحصول عليها، واما الكتب الكلاسيكية فمتوفرة كلها باللغة الروسية. تلك هي المعارف في حدود عبادة الشخصية. ليس في وسعنا ان نتكلم، ولا نستطيع ان نفهم، واما القراءة – فمقدار من الكلمات في مقدار من الساعات، مع القاموس... ليس لذلك اهمية عملية. الفن للفن، كما يقال... علك... وماذا يقرأ؟ الآن فقط اخذوا يبيعون «الاومانيته». اما بلزاك فاني اقرأه بالروسية على نحو احسن. وما حاجتي لبلزاك هذا، هناك، في سيبيريا؟

واوشك زافيالوف ان يقول واعظاً: «ان بلزاك لازم في كل مكان»، الا انه كبح جماح نفسه. وحين كان فكتور يتكلم كان يمعن النظر الى وجهه في اهتمام. ما قماش هذا الفتى، بعد كل شيء؟ هل هو صادق، كما يبدو؟

واما فكتور، فيواصل الكلام:

– اجل، الترحال هو حلمي. ولو ظهر ساحر حاملاً عصا الاشارة، فقال: «هات، ما هي رغباتك الثلاث، يا فكتور، وسأعد حتى الثلاثة: واحد... «لقلت: «الترحال!» ثلاث مرات. فليس لدي رغبات اخرى. وانت، يا فلاديمير اندرييفيتش؟ اذا جاءت مثل هذا الساحر فقال: «واحد...» على اني اعرف. ان تجد اوليا. صحيح؟ اثنان... اعرف ايضاً: الطيران. صحيح؟ والثالث؟ آه.. قل بسرعة.

– ان اعرف هل قلت لانطونوف الحقيقة ام لا.

صمت... ثم يلتمس زافيالوف قائلاً:

– اغلق الراديو، من فضلك.

وبطواعية يدير فكتور مفتاح الراديو؛ فتحدث وشوشة فتنطفئ اللمبات الصغيرة، ويحل السكون.

– ايوه، كيف؟ لقد قال الساحر «ثلاثة»...

– ماذا تريد مني، يا فلاديمير اندرييفيتش؟

نهض زافيالوف، ومضى نحو المقعد، وجلس على المسند، وبسط يده على كتف فكتور. وكرر القول في اصرار:

– اريد معرفة الحقيقة.

فسأله فكتور، دون ان يرفع رأسه:

– ولماذا تظن اني اكذب؟

– لست ادري، ولكن هكذا يبدو لي. واذا كنت تؤكد هذه المرة انك قلت الحقيقة، فلن اعود الى السؤال. فليس لدي اساس لعدم تصديقك. فهيا، للمرة الاخيرة: هل قلت لانطونوف الحقيقة؟

– كلا.

– وقد كنت اظن ذلك. – نطق زافيالوف بهذا وهو يتنفس الصعداء. ونهض، وراح يخطو بضع خطوات في الغرفة. ثم توقف امام فكتور وقال: – والآن اوضح لماذا.

– آ – آ، حكاية سخيفة. تعارفنا انا وغوريايف هذا قبل عامين، حين كنت اعيش لديك في الصيف. كان اذ ذاك قد انهى المدرسة لتوه. اما اليوم، فقد التقيت به. مصادفة...

– ايوه، ايوه، وبعد!

– بالاختصار، حكاية سخيفة. كانت له في هذه السنوات علاقات مع عناصر مشبوهة. اما ان يكونوا قد سطوا على الدكان، واما انهم كانوا يسطون عليها، واما هو فكان واقفاً بالمرصاد... ثم ضربوا احدهم... بالاختصار، اوقفوه، ولكنه هرب. كان ذلك منذ وقت جد قريب. انه هائم على وجهه. متوار عن الانظار. منهك. عيناه حمراوان. قال انه ظل ليلتين بدون نوم. بالاختصار، حياة كلاب. ورآني، فغمرته البهجة: بيننا معرفة قديمة... ايوه، وكنت اعلم انك سترجع متأخراً: لديك شغل في نادي الطيران. فدعوته للدخول الى البيت. وقد نام هنا، على هذا المقعد، حوالي اربعين دقيقة... وها انت الآن تعرف كل شيء. فالقضية مختومة، أليس كذلك؟

ورفع فكتور رأسه، ونظر الى زافيالوف، وابتسم.

فقال زافيالوف:

– يستخلص من ذلك انك كنت عارفاً بان هذا الفتى قد هرب من تحت الحراسة، وهو متوار عن الانظار؟ ايوه وماذا فعلت انت؟ – قال زافيالوف وهو ما يزال غير فاهم ما يجري تماماً.

فسأل فكتور في ارتباك، رافعاً بعض الشيء حاجبيه الكثيفين:

– وماذا كان عليّ ان افعل، في رأيك؟

– كيف ماذا؟ لص، نهاب هرب من تحت الحراسة. كنت عالماً بهذا و...

– وشاية؟!

هكذا صاح فكتور بغتة بصوت مرتفع.

فقال زافيالوف:

– اسمح لي، اسمح لي، انا نفسي احتقر الوشاة. ولكن أترى هي «وشاية» ان تبلغ الميليشيا انك كنت ترى مجرماً هارباً من تحت الحراسة؟

– اولاً، انا لا اعرف الى اي حد فاسيلي مجرم. فانا لم احقق في قضيته. وهو نفسه يؤكد انهم قد حشروه في هذه الحكاية حشراً. ولكن المسألة ليست هنا. اني الآن لا افهمك، حقاً، يا فلاديمير اندرييفيتش. الى اي شيء تدعوني؟ انسان وثق بي، فاذهب انا القي به وراء القضبان؟ وسيكون هذا عملاً شريفاً؟ أهكذا تفكر؟

فقال زافيالوف مغضباً:

– مجرد سخافات ما تقول. ولكن ينبغي التمييز...

فقاطعه فكتور:

– لا ينبغي! سفسطة كل هذا! الشرف واحد في جميع الظروف! اما حين يتعدد، فان المحاسبة تبدأ بالازدواج في كل حالة. واذ ذاك تظهر الوشاية وما الى ذلك. اني غير راض عن اسلوب حياة فاسيلي، وهو نفسه ابله. ولكني لن اذهب الى الميليشيا اطلاقاً، لا بداع منه هو. بل بداع من نفسي انا. أتفهم؟ فالوشاية وشاية. ولو انه كان جاء اليك سنة سبع وثلاثين واحد من معارفك وفق للفرار من السجن، أكنت سلمته، نعم؟ ولكانوا، افتراضاً، قتلوه رمياً بالرصاص. ولكنهم الآن يعاد اليهم اعتبارهم. يستخلص من هذا انهم سجنوه، عبثاً، ظلماً!...

فكيف ترى كنت تشعر بنفسك الآن؟ ايوه هكذا، ولكنك تريد مني ان ابادر الآن للذهاب الى الميليشيا...

فقال زافيالوف:

– ستفهم الآن، يا فكتور، ما اريده منك. ولكن اولاً... اولاً لنتكلم عن المثال الذي قدمته. كنت تشير الى سنة سبع وثلاثين. لست اعد نفسي مسؤولاً عنها. وما ذلك فقط لاني اذ ذاك لم يكن لي من العمر غير خمسة عشر عاماً. والملايين من رفاقي الاكبر سناً، الذين لم يعتقلوا سنة سبع وثلاثين وما بعدها اناساً ابرياء، بل خلقوا بلاداً ذات قدرة وبأس، ليسوا هم ايضاً بمسؤولين عن تلك الجرائم. لقد قدمت مثالاً. ورحت تتخيل وضعاً. انها في الحق ظروف رهيبة. ومع ذلك فاني لن اتهرب، ساجيبك عما كنت فاعلاً في مثل هذه الحال. سنة سبع وثلاثين، ما كنت، في الوضع الذي تتخيله، لاخفي ذلك الشخص. اجل، ولقد كان يكون تصرفي مؤلماً لي الآن ومخزياً. اما اذ ذاك فما كنت لأخفيه. لماذا؟ لاني كنت مؤمناً بستالين. كنت مؤمناً باقواله المكرورة آلاف المرات عن ان النضال الطبقي في بلادنا يزداد حدة باطراد. فما كنت لأسلم بفكرة انهم يمكن ان يوقفوا ويدينوا انساناً بريئاً – كلا، ما كنت لأسلم بذلك! كان صعباً علينا، اذ ذاك، نحن الناس العاديين البسطاء، ان نتبين الامور ونفرق بين تجاوز القانون وبين النضال العادل ضد الجواسيس والمخربين. وليس ذلك بصعب فقط لأن هيبة ستالين المغطية لتجاوزات القوانين هذه كانت جد عالية، بل كذلك لأن سنة سبع وثلاثين والسنوات

التي اعقبتها ما كانت مجرد حكاية تجاوز على القانون. ففي تلك السنوات تحققت امور عظيمة جليلة. وفي هذه الامور وضع الناس شبابهم وقوتهم وحياتهم. فلعلك تفهم الآن لماذا ما كنت، سنة سبع وثلاثين، لاخفي ذلك الشخص، الذي كنت تتحدث عنه. فما كنت لاستطيع اذ ذاك ان اتصور ان سيف ديكتاتورية البروليتاريا قد اصاب ابرياء. ما كنت اعرف ولا كنت اقبل التفكير بان هذا السيف يمكن ان يوجه الى قلب ذويه. ولو اني كنت واثقاً بذلك الشخص لكنت قد وجدت في نفسي، على الارجح، الرجولة لأن اعلن واكتب اني ما كنت اعرف عنه الا الخير . اما ان اخفي هارباً من تحت الحراسة، فما كنت لاستطيع ذلك.

— كلا، — كرر زافيالوف — ما كنت لاستطيع، وذلك ايضاً لأن التفكير بماهية الجريمة النكراء التي اقترفها ذلك الشخص كان من شأنه ان يحفر في رأسي ليل نهار. اجل، ما كنت لاستطيع ان ابعد عن رأسي التفكير في ان هذا الشخص، وهو ما يزال متمتعاً بالحرية، قد يكون فيه الخطر على ما هو عزيز عليّ، وما في سبيله احيا. فما كنت لاستطيع تقرير مصيره على حساب مصائر اناس آخرين، اناس سوفييتيين بسطاء، مثلي. وبناء على كل ما ذكرت لك، فان الحالة التي تخيلتها انت الآن، كان من شأنها ان تبدو لي فاجعة ومتناقضة. لقد كانت تخلقها عبادة الفرد اللعينة وكل ما كان يتصل بها في حياتنا. ولكن هات اجبني الآن على هذا السؤال: اي جامع يمكن ان يجمع في تماثل بين الوضع الذي كان قائماً سنة سبع وثلاثين وبين يومنا

هذا؟ ان بين سنة سبع وثلاثين وسنة ست وخمسين فرق ما بين الارض والسماء. فما هي الظروف التي تحملك على اخفاء غورايف؟ انك تعلم، اجل، تعلم ان غورايف هذا يبحث الآن عن ملاذ له لدى شركائه في الجريمة، — فالناس الشرفاء، ناس العمل يكرهون اللصوص، فهم لا يخفونه! واغلب الظن انه الآن مع صحابه يبحث قضية خلقية — مسلكية معقدة: اية دكان جديدة يجب ان يقع السطو عليها، بل ربما لا يتناول الامر دكاناً من الدكاكين — فقد اصبح الآن لدى صاحبك غورايف خبرة — بل مخزن من المخازن او شقة من الشقق او مجرد سلب عابر سبيل! وقد حل المساء الآن، يا فكتور، وقد يكون الرجل الشغيل سائراً في مكان ما، مطمئن البال؛ وقد يكون قبض اجرته، فهو يحث الخطى في طريقه الى اسرته، وفي زاوية من الزوايا، او في مدخل البيت، يتربصون له، يتربص له صاحبك غورايف! وانت جالس هنا تتفلسف!..

— هذا كل ما اود ان اقول لك، يا فكتور، بصدد المثال الذي قدمت. — وبعد توقف، تابع زافيالوف كلامه — والآن جاء دورك في الاجابة. فقل لي: اي جامع يجمع بين الحال التي تخيلتها وبين غورايف هذا؟ اي جامع يجمع بين الوضع الذي كان قائماً سنة سبع وثلاثين، وبين الوقت الحاضر، اذ يعاقب ويسجن لا الناس الشرفاء، بل اولئك الذين يستهينون بهؤلاء الناس الشرفاء. فاي تماثل يمكن ثمة ان يكون؟ انك، بمثالك، تريد ان تتستر على نفسك، ان تنفض يدك من الامر. كلا، ايها الفتى، لن يتسنى لك هذا. أتريد ان تسمع مثالاً آخر؟ هاكه، اذا شئت.

لنفترض انك قابلت شخصاً لا تشك في جوهره السوفييتي، الا انه، لنقل، ضالّ السبيل. لا هو بجاسوس، ولا عميل للاعداء، ولا شقي، ولا لص، طبعاً، — فعن مثل هؤلاء ينبغي الابلاغ فوراً — بل مجرد شخص ضالّ السبيل. فاذا ما سألتني في مثل هذه الحال: «أليس ينبغي ان اسارع الى الدوائر المسؤولة وابلغ عن مثل هذا على الفور؟»، فاني لاجيبك: «ايها الجبان، ايها الوصولي، ما انت على غير اطمئنان من هذا الشخص، انما انت على غير اطمئنان من نفسك!» من شأني ان اقول لك هذا!

— بالله عليك؟! — قال فكتور ماطّاً كلامه في سخرية. — هكذا تكون قد سلمت اذن بأن يعيش شخص كهذا على الارض السوفييتية؟

— كلا. لم اسلّم . ولكنت قلت لك: «جادله، يا فكتور. اقنعه. انفق الساعات في هذا، انفق ليلة وليلتين، اذا اقتضى الامر، كافح على المكشوف، في مواجهة الناس، دافع عن الحقيقة، لا تتهرب!» هذا ما كان من شأني ان اقوله لك، يا صديق. والآن، هلم نعد الى واقعة غوريايف هذا. من هو، بعد كل هذا؟ شقي. سطا على دكان. انه واحد من اولئك الحشرات، اللصوص، الذين ينغصون حياة الناس. وعمن انت تسترت عليه؟ عن الميليشيا؟ كلا، انما عن الشعب انت اخفيته، والدرب الى الدكان التالية انت له مهدته.

فقاطع فكتور زافيالوف قائلاً:

— ربما، وما هو بمسؤول البتة، فلربما جُر الى هذا جراً، وحشر حشراً، ليس الا...

— غير مسؤول؟! اذن ساجيبك هنا عما اريد منك. فاذا كنت عارفاً لهذا الفتى الى حد الاقتناع ببراءته، فهيّا هبّ للدفاع عنه. ولكن بصراحة، وعلى المكشوف! اذهب الى التحقيقات الجنائية، اذهب الى قاضي التحقيق، اعرب عن كل ما تعرف، برهن، جادل، دافع عن الفتى، اذا كان لديك اساس لذلك...

فقال فكتور في اكفهرار:

— وسيصغون اليّ ... ثم قل لي، يا فلاديمير اندرييفيتش، اذا كان الامر كذلك حقاً، فلأي قرد احشر نفسي هذه الحكاية؟

— يا للعجب! ليس لك رغبة؟! تريد ان تظل نظيفاً؟ تريد المحافظة على صحتك واعصابك؟ واما لي، فتحدثني عن سنة سبع وثلاثين؟!.

— وهل كنت اريد اهانتك؟.. على اني لست حريصاً على شيء، وان تكن الاعصاب والصحة اشياء ليست ايضاً بعديمة الفائدة، فما زلت في حاجة للحياة. انما اريد فقط ان اكون شريفاً. هذا كل ما انا راغب فيه. فهل ترى ينبغي من اجل هذا ان يكون المرء بطلاً، فيذهب الى مكان ما، ويجادل شخصاً ما، ويبرهن على شيء ما؟

— ولكن يجب ان تكون لديك، فيما عدا هذه الرغبة، آراء في الحياة، مبادئ، ينبغي الدفاع عنها... فهل هي لديك؟

— لديّ. الشرف. ذلك هو المبدأ. وكل ما تبقّى — اغلال.

— ولكن من هو الحكم الذي يقرر؟

— الانسان نفسه. وكل مرة من جديد. حسب الشرف. حسب الوجدان. الخير خير. والشر شر. وما اريد لدماغي ان

تعكره مختلف السفسطات الوسط. يقال ان الطيار حين يجري تدريبه او التثبت من اهليته، يضعونه في قفص ويروحون يديرونه في الحال على عدة وجوه. لفوق، لتحت، وجانبياً، وعلى انحراف، وعلى استقامة، وبالوراب... وحين يخرج الشخص من القفص لا يعرف في اللحظة الاولى ولا يشعر اين فوق واين تحت، واين اليمين واين اليسار، واين المخرج واين اللامخرج. او انها النابذة ايضاً... وهكذا كانت الحال معنا ايضاً. فاذا تراكمت عليك الصيغ، والوقائع، والاستشهادات، والارقام، والمتشابهات، فليس يعود في وسعك ان تفهم ما الخير وما الشر، وكيف ينبغي لك ان تعمل، هكذا او بالعكس. في مثل هذه الحال النفسية يرتكب المر النذالات.

كان زافيالوف صامتاً. فما كان يريد، حين بدأ هذه المحادثة، الا ان يحمل فكتور على قول الحقيقة، وان يسمع «نعم» واضحة او «لا». وما كان يمكن ان يخطر في باله ان فكتور، في تستره على النشال، كان يتمشى على فلسفة له غريبة مشوشة يدافع عنها بمثل هذه الحماسة. وقد رأى زافيالوف امامه الآن فكتور جديداً تماماً. فما كان قد كشف فيه، من قبل، ميلاً الى التفكير الفلسفي المجرد. وفي الحق، لقد مر عامان على رؤيته اياه للمرة الاخيرة.

وقال زافيالوف:

— لست افهمك. فلنأخذ مثالك عن الطيار. لا يمكن، في حال الانبهات الموصوفة، ان يخرج من النابذة غير المبتدئ ومن هو، فوق ذلك، غير اهل للعمل في الطيران. اما اذا وجد في

مثل هذه الحال طيار ذو خبرة، فما هي بالنسبة له بذات بال. ولكن ليست هذه هي المسألة. انك تتكلم عن الشرف، عن الوجدان. فاين هي البوصلة؟

— هنا...

قال فكتور هذا واشار الى صدره.

— لنسلم بذلك. ولكن ليس يمكن حتى للملاح الخبير الاعتماد في عرض البحر على...

فقاطعه فكتور قائلاً:

— لا حاجة! انها النابذة من جديد. وانا لا احب المقارنات. فبواسطتها يمكن ان يبرهن المرء كل ما يروق له.

فقال زافيالوف في غضب مفاجئ:

— افّ لك، ولكنك لست روبنسون في جزيرة غير آهلة! من قبلك عاش ناس، وسيعيش من بعدك ناس. وثمة تجربة بشرية وقوانين لتطور المجتمع...

فقال فكتور في سخرية:

— قوانين؟ اني لا اعترف بغير قانون واحد: «الانسان هو المقياس لجميع الاشياء». وبالاصح، وجدانه، شرفه.

— اسمع — قال زافيالوف — ها انت تتكلم عن الوجدان، عن الشرف. فلنأخذ هذا المثال التقليدي. الحرب الاهلية دائرة الرحى. وثمة شقيقان: احدهما ابيض، والآخر احمر. فايّ منهما الشريف، اي منهما على حق؟

فاجاب فكتور:

— كل منهما يمكن ان يكون على حق، حسب رأيه.

— وجماعة بيتليورا، وجماعة ماخنو، والمتدخلون، وغيرهم من اعداء الثورة؟ كذلك «حسب رأيهم»؟ كم حقيقة في العالم؟

— من جديد، النابذة.

— كلا، يا فكتور، ولماذا؟ ان حقيقة ناس معينين يجب ان تكون على انسجام وتوافق مع حقيقة واحدة كبيرة، وبهذا الانسجام والتوافق يكون المعيار لحقائقهم... فلن يكون في وسعك باية حال البقاء في حدود حقيقتك الفردية الشخصية وحدها، او كما يقال، في حدود اقتصادك الخاص الطبيعي. فالعامل، الذي يستولي على معمل الرأسمالي، هل هو على حق؟

— يا الله!

— على حق ام لا؟

— طيب، على حق!

— عال. ولكنه، من وجهة نظر الرأسمالي، سارق. وها انت ترى ان حقيقة تقليدية، كالتوصية القائلة «لا تسرق»، حتى هي موضع جدل.

فاعترض فكتور قائلاً:

— ولكن العامل، اذ يستولي على المعمل، لا يعتقد حيال وجدانه الخاص، انه يسرق. انه، كما يقال، يقيم العدالة الاجتماعية.

— ولكن الرأسمالي يعتقد العكس تماماً! فمن وجهة نظر وجدانه، يعتقد هو ان العامل انما يعبث بهذه العدالة. وهل ممكن انك لا تفهم ان ليس يمكن ان يكون ثمة وجدان واحد، ومقياس واحد لدى الشخص الذي يبدع ويخلق والشخص الذي يغتصب؟

اذن فليس ثمة غير حل واحد للجدل حول «من الذي على حق؟» هو الاعتراف بالحقيقة الكبرى، الرئيسية، الموضوعية. حقيقة من يبدعون ويخلقون. واذ ذاك يغدو كل شيء في وضوح وجلاء. فالعامل على حق، اما الرأسمالي فلا.

ونهض فكتور. وقال في حزم:

— لا اريد البدء الاستماع الى هذا. فعما قليل تروح تبرهن على ان كل ما يكشف الآن للناس لا يغير من الامر شيئاً، ويظل بافليك موروزوف، كما في السابق، مثالاً على الشهامة. اما انا فاني، اذا شئت ان تعرف، لست اطيق بافليك هذا..

فقال زافيالوف:

— ان بافليك موروزوف قد كشف عن جريمة. كان ابوه ملاذاً للمجرمين، الكولاك. وكان هؤلاء يريدون قتل الناس جوعاً.

وفي تشبث وعناد قال فكتور:

— ولكن منهم، من الذين كبروا وترعرعوا من امثال بافليك، نشأ فيما بعد كل نظام الوشاية ذاك. كل عهد عبادة الشخصية ذاك!

فصاح زافيالوف:

— هذا كذب! نظام الوشاية لا يمكن ان ينشأ من الاعتراف بان لا شيء في الكون اقدس من سلامة الثورة! بالعكس! انما هو ينشأ حيث ينسى الناس مصالح الثورة، حين لا يكون تفكيرهم منصرفاً اليها، بل الى سلامتهم الخاصة، حين يهرع المرء الى دوائر الامن لا لأنه عارف بخطر يهدد البلاد، وخيرة ابنائها، والقضية العامة، بل بالدرجة الاولى لانه خائف على نفسه: خشية

ان يظنوا انه كان يتستر، كان يخفي، كان لا يبلغ... او بدافع من التطلع الى جر مغنم لنفسه، لا للناس الآخرين، بل لنفسه بالذات! من هذا الطمع الخسيس ومن هذا الخوف تتولد الوشاية. ولكن بافليك موروزوف ما كان يفكر بالمكافأة. ولا كان يفكر في نفسه. وليس امثال بافليك موروزوف هم المسؤولين عما جرى فيما بعد، بل ذلك الذي كان يحمل الناس غير المرتكبين اي ذنب على ان يخافوا على حياتهم، على سلامتهم، ذلك الذي كان يشجع على الطمع المعنوي!..

وكرر زافيالوف في انفعال:

– بافليك موروزوف! انه لامر رهيب، بالطبع: الابن يفضح امر ابيه. ولكن ليس ينبغي النظر الى حكاية بافليك موروزوف بمقياس الاخلاق المجردة. أتعرف من كان بافليك هذا؟ كان غلاماً فلاحاً بسيطاً. وما كانت هذه الكلمات، مثل «التعاونية» و«الكولاك» و«اعادة تنظيم القرية»، تمثل في ذهنه مفاهيم مجردة. كان منذ طفولته يعرف ويرى بنفسه كم هي شاقة وكم هي كئيبة حياة الفلاحين، وكان يريد لها ان تتبدل. وكان يدرك ان لا بد من النضال في سبيل هذا التبدل. كان يعيش في ايام صعبة. وما هو اختلاق هذا، يا فكتور. هل تعني لديك شيئاً كلمة «مراسل قروي»؟ لقد كان الكولاك، في تلك السنوات البعيدة، يذبحون هؤلاء المراسلين القرويين، ويحرقونهم، ويسلخون جلودهم وهم احياء. وهل تعلم ما هو الكولاك؟ من هو بالنسبة لك؟ مفهوم تاريخي، صورة بعيدة لا تثير الاهتمام؟ اما هو، الكولاك، فلو انك مسست ارضه، ومستودعه، وماشيته، لداسك بقدميه، ولانتزع شرايينك منك وانت حي. اما بافليك فقد كان يرى كل هذا بعينيه... كان يعلم: ان الناس يعيشون من اجل تنظيم حياة جديدة، نيّرة جميلة، خيّرة... اما الكولاك فيرفعون السلاح في وجه هذه الحياة، وفي وجه هؤلاء الناس... وبينهم – ابوه. فما العمل؟ هل ينبغي التزام الصمت؟ ولكن معنى هذا ان تخون الناس، ان تخون ما تؤمن به، وما في سبيله تعيش. كلا، ينبغي الانذار... ان الصراع الرهيب يولد حالات رهيبة. وما كان يولّدها الطمع، ولا الرغبة في اغتنام شيء ما، واستلابه للذات، بل كانت تولدها الحياة نفسها، ومنطق الصراع الطبقي، فهل في وسعك ان تفهم هذا؟! ففي تلك السنوات، كان الصراع الطبقي في اوج عنفوانه! وما هو بذلك الصراع الطبقي المختلق الذي كان ينادي به ستالين منذ سنوات عديدة لتبرير التجاوز على القانون، بل هو الصراع الطبقي الواقعي الذي لا هوادة فيه!.. في ظروف عبادة الشخصية كان الوشاة يلقون التشجيع. ولكن اية فائدة، اي مغنم شخصي حصل عليه بافليك موروزوف؟ الرصاصة القاتلة من يد الكولاك؟

فقال فكتور:

– اننا نخرج عن الموضوع الرئيسي، عن الشيء الاهم في جدالنا. فانت، يا فلاديمير اندرييفيتش، تريد ان تبرهن لي ان ثمة حقيقة رئيسية ما، ومبدأ حديدياً ما، يجب ان بسترشد بهما الناس في جميع اعمالهم، وان يكونا المعيار والمرشد لهم. واما انا فاعتقد ان الانسان يصادف في حياته الالوف من الحالات المختلفة. وهو يتخذ تبعاً لها الالوف من القرارات. واذا كان،

بدلاً من مشاورة ضميره الخاص، سيزن قراره بميزان التقاويم المقدسة وحسب، فانه سيتحول آخر الامر الى هيكل لا روح فيه ويحمل الاذى لنفسه وللناس.

وبدأ زافيالوف يقول:

– ولكن تجربة الجيل الكبير...

الا ان فكتور قال بصوت عال:

– ايوه – ايوه، تجربة الجيل الكبير! انتم الذين عقّدتم كل شيء، ايها الجيل الاكبر! لا تغضب، يا فلاديمير اندرييفيتش، اني لا اتحدث عنك شخصياً، فانت نفسك كنت ضحية هذه التجربة... ولكن اذا كنت الآن كأنما تتحدث باسم القدامى، فليكن في اعتبارك اني اتكلم باسم ابناء جيلي الكثيرين. الا فاوضحوا لنا، انتم يا ابناء الجيل الاكبر، كيف تترابط الامور!

فكرر زافيالوف:

– ان نوضح! حسن! سأوضح لك ما افهمه. ها انت تقف امام الجيل الكبير وقفة الفارس من غير ما خوف ولا اتهام وتقذف قفّازك في وجهه قائلاً: انتم مسؤولون عن كل شيء!.. صحيح انك تصفح عني صفح الكرام، على قدر ما عانيت في ذلك الوقت. يستخلص من ذلك انك تسمح لي متكرماً بالخروج، كما يقال، من كيان هذا الجيل الكبير ذاته وأقف الى جانبك فابصق على وجوه ابناء جيلي. لا بأس، ساروي لك الآن حكاية. فاستمع. كنا في الجبهة نعرف احد الجنرالات. كان ضابطاً حين حدثت الثورة. ضابطاً قيصرياً، بالطبع. اما من سلالة كونت، او من سلالة امير – بالاختصار، من النبلاء. وهكذا انضم سنة

سبعة عشر الى جانبنا. وفيما بعد كادت التشيكا* ان تعتقله خطأ، ولكن تدخل هنا دزرجينسكي، رئيس لجنة التشيكا بالذات. وكان هذا الضابط يعمل في الجيش الاحمر، وبلغ رتبة جنرال سوفييتي. ولكنه سجن سنة سبع وثلاثين. بيد ان دزرجينسكي ذاك ما كان بعد في الوجود... وفي سنة احدى واربعين، حين كان الالمان قد بلغوا تخوم موسكو، استدعى ستالين هذا الجنرال، على ما يقولون. قال: «ليس الوقت وقت قعود: ينبغي الدفاع عن الوطن». وقد كان في وسع هذا الجنرال ان يرد على هذا «المزاح» بالكثير، لأنه ما كان يعرف انه ارتكب اي ذنب. ولكنه كان رجلاً عسكرياً، ولقد اجاب باقتضاب: «امركم، انا مستعد للخدمة». فعينوه قائداً لاحدى الفرق. وحدث ان طوق الالمان هذه الفرقة، فظلت تحارب، وتشق الطريق نحو جماعتها، حتى النقطة الاخيرة من الدماء. ومع ذلك فقد تمكن الالمان من قتل جميع الجنود تقريباً، واما الجنرال فقد اخذوه اسيراً.

وتابع زافيالوف حديثه قائلاً:

– وقد عمد الفاشست الى قتل جميع الذين بقوا على قيد الحياة رمياً بالرصاص او وضعوهم في معسكر على الثلج – فقد كان الوقت شتاء – وراء الاسلاك الشائكة. اما الجنرال فقد وضعوه في بيت دافئ تتوفر فيه جميع شروط الرفاهية، مع حرس على المدخل، اما للمحافظة عليه، واما للتكريم. ويمر يوم، ويعقبه آخر. ويستدعى جنرالنا للاستجواب. بل انه لم

* اللجنة الاستثنائية لمكافحة اعداء الثورة. – الناشر.

يستدع استدعاء، انما جاء اليه شخصياً الجنرال الفاشستي، قائد الجيش.

ويقول الالماني: «مرحباً. اتشرف بالتهنئة بالتحرر من البلاد البربرية، متمنياً – على زعمه – الخير. باية لغة يفضل مقامكم الرفيع التعبير: الالمانية، ام الفرنسية، ام الانكليزية؟

ويسكت الجنرال.

ويتابع الالماني: «ايها السيد الجنرال. اننا نعرف كل شيء. انك ضابط قيصري سابق، تمثل اسرة النبلاء القديمة. وقد سجنتك التشيكا. وبعد ذلك قضيتم، دون ذنب، اربع سنوات في السجن. وانها لمناسبة سعيدة انكم موجودون لدينا. فان يأتي الشيء متأخراً خير من ان لا يأتي ابداً. اتشرف بان اقدم نفسي: انا الجنرال البارون فون فلان...»

ويجيب جنرالنا: «اتمنى لكم الصحة». وعليّ اقول لك انه كان رجلاً في منتهى الكياسة.

ويتابع الالماني قائلاً: «كل شيء واضح لدينا، ايها الجنرال. ان كونك قد انضممت الى جانب البلاشفة هو تناقض، شيء لا معنى له، سوء تفاهم. والآن ستعيش بين اناس، متعادلين معك في النسب، وفي التعليم، وفي التربية. اننا بطيبة خاطر نقدم لكم وظيفة قيادية في الجيش، او نرسلكم الى برلين، اذا كان ذلك يطيب لكم، للعمل في الاركان العامة. وسنقوم الآن ببعض الشكليات... ستبلغ رئيس قسم العمليات لديّ كل ما تعرف عن وضع القوات السوفييتية في قطاعي من الجبهة. ثم نقدم لكم طائرة...»

فيقاطعه جنرالنا قائلاً: «عفواً، صاحب المقام الرفيع (اعيد القول انه كان رجلاً فائق الكياسة) ولكن كيف يمكن لي، انا الضابط الذي اقسم على الامانة في الخدمة للجيش الاحمر، ان احنث بالقسم، واعطيكم المعلومات المطلوبة؟»

فصاح الالماني: «ماذا تقولون، يا جنرال! القسم، الامانة في الخدمة!.. اي معنى يمكن ان يكون لهذه المفاهيم في المجتمع الذي قدر لكم ان تعيشوا فيه؟ وهل تراهم هناك يؤمنون بالله؟ وهل ترى يمكن لهذه التعابير ان يكون لها هناك المعنى الرفيع الذي نعطيها اياه نحن، الضباط العاملين في الجيوش المتمدنة؟».

«ومع ذلك، فقد اقسمت، ايها السيد الجنرال».

ويوافق الالماني قائلاً:

«طيب، عفواً. لقد كنت قليل اللباقة. انكم متعبون، مرهقون، فلنؤجل هذا الحديث الى الغد. فكروا. تشرفت. وتذكروا انكم لستم في الاسر. انكم مجرد عائدين الى بيتكم بعد اسفار طويلة مؤلمة».

وفي اليوم التالي يظهر الجنرال الالماني من جديد، فيسأل: «ايوه، كيف؟ موافقون؟»

فيجيب جنرالنا المهذب: «عفواً، يا صاحب المقام الرفيع. ولكن سبق ان تشرفت بابلاغكم... لقد اقسمت».

وهنا اخذت الالماني موجة من الحنق:

«ولكن – تباً لك – ان القسم لا يمكن الا لله الذي لا يؤمنون به في الجانب الآخر من الجبهة، والا للسلطة التي تمثل الله على الارض!»

فيقول الجنرال: «لست شديد التبحر في علم اللاهوت، ولكن لدي في هذا المجال مفاهيم مغايرة بعض الشيء. ولعلكم ترون ان الناس، في البلاد التي اتشرف بان اكون مواطناً وضابطاً فيها، يقسمون على الوفاء للشعب».

فيقاطعه البارون قائلاً:

«للشعب؟! ولكن كيف تتكلمون هكذا، انتم الضابط القيصري النبيل؟ لاي شعب؟ للغوغاء؟ للرعاع؟ لجمهور الناس الهمج الجهلة؟»

فيقاطع الجنرال قائلاً:

«عفواً، يا صاحب المقام الرفيع، ولكن عدم اطلاعكم يشدهني. ان الشعب الذي وجدتم من المناسب التحدث عنه بمثل هذه الزراية، قد انشأ مجتمعاً كانت تحلم به اجيال من خيرة الناس. وقد كان لي انا نفسي شرف الاسهام في بناء هذا المجتمع. وان شئتم، فاني في سبيله كنت اعيش. ولقد اقسمت له».

ويبسط الالماني ساعديه في تعجب، قائلاً:

«لست اصدق سمعي. ساؤجل حديثنا النهائي مرة اخرى، وارجوكم ان تواصلوا التفكير وتقدير الامور. واذا كان لديكم رغبات ما، طلبات...»

فيقول الجنرال: «لديّ. ارجو ان تنقلوني من هذا المسكن الى المكان الذي يعتقل فيه الباقون على قيد الحياة من جنودي وضباطي. فانتم نفسكم ضابط عامل، وتعلمون ان شرف الضابط لا يسمح لي...»

ولقد نقلوه. الى هناك، على الثلج، وراء الاسلاك الشائكة. صحيح ان ذلك لم يتم على الفور. فبعد بضعة ايام راح الجنرالات يحاولون دفعه الى الخيانة، واقناعه بان يبصق في وجه ذلك الشعب وذلك الجيل الذي كان يعتبر نفسه جزءاً منه. فكان يجيب بكياسة، على الاسلوب القديم — فقد كان هذا الجنرال كبير السن — ولكن اجوبته كانت صارمة. واذ ذاك نقلوه الى المعتقل. الى اسوأ اقسامه. فتأثر من البرد، ومرض. ومن جديد، مراراً وتكراراً، كانوا يحضونه على الاستسلام. كان يبصق دماً من السعال، ولكنه كان ينوه بالقسم. واخيراً، نفذ صبره، ونسي كياسته الملازمة له، والقى بهذه الكلمات في وجه الالماني الذي كان يدعوه الى الخيانة:

«ان هذه، اخيراً، لنذالة، ايها السيد الجنرال. فليس غير الرجل الذي لا شرف له، ليس غير الانكشاري، الذي يقيس الجميع على شاكلته، ليس غير هذا اهلاً لان يأمل بان الضابط الروسي السوفييتي يمكن ان يصبح خائناً. انك قليل التربية ثقيل الظل، يا صاحب المقام الرفيع! فاغرب عن وجهي، وليأخذك القرد!»

واذ ذاك، دفنوه ، هو الشيخ، المريض، الذي يبصق دماً، في كومة من الثلج، الى اكتافه. وكان ذلك القائد نفسه، البارون، لم يأت بعد. وكان قد كلف بتوجيه السؤال الاخير للجنرال جندي عادي من الفرقة الهتلرية الخاصة. فاقترب من الشيخ وقد كان على وشك الاغماء، والتجمد من البرد، ونطق بكلمة واحدة:

«موافق؟»

فاجاب الجنرال: «اعتن، يا اخيّ، بجنودي، فانت على كل حال انسان...»

وصمت زافيالوف. ثم قال:

ـ ستسألني، على الارجح، لماذا رويت لك هذه الحكاية. واني لاجيبك. ان لهذا صلة بالسؤال عن الجيل الكبير. أفهمتني؟ واريد ان اقول لك كلمة اخرى، يا فكتور. انك تقول «عبادة، عبادة»، «في عهد العبادة...» فماذا تقصد بهذه الكلمات؟

فسارع فكتور للاجابة:

ـ العهد المظلم في تاريخنا، العهد الذي كان يلقى فيه بالناس الابرياء في السجون، حين كانت الحقيقة منبوذة، حين... وما لك تطرح علي، يا فلاديمير اندرييفيتش، مثل هذه الاسئلة البدائية؟ فهل ترى هذا كله غير واضح لديك انت نفسك؟

فاجاب زافيالوف:

ـ بلى، ليس كل شيء واضحاً لديّ، اليوم، يا فكتور. وذلك، مثلاً، على خلاف ما انت عليه، انت الذي كل شيء لديك واضح وضوح اثنين باثنين يساوي اربعة. على اني لا اشك في المسألة الرئيسية التي هي في الدرجة الاولى من الاهمية. انك تعني بكلمة «عبادة» عهداً بكامله. كان العصر الحجري، والعصر الحديدي، والبرونزي، وكان عهد العبادة... ولقد سألتك ماذا تقصد بعبارة «عهد العبادة» هذه؟ فاجبتني: عهد تجاوز القانون، وخنق الحقيقة... ولكني على غير وفاق معك.

فصاح فكتور بدهشة صادقة:

ـ غير موافق؟! انت، الانسان الذي كان شخصياً ضحية هذه العبادة بالذات، غير موافق؟ لست اصدق اذنيّ! وهل يمكن ان تكون آسفاً للقضاء عليها؟!

ـ كلا، يا فكتور، لست آسفاً. اني سعيد. ولكن لا بد لي، قبل ان اتفق معك او اواصل الجدل، من ان اعرف اي مضمون تعطي لعبارة «عهد عبادة الشخصية». فانا اخشى ان تكون سنوات تاريخنا الطوال انما تمثل بالنسبة لك عهداً لم يكن فيه غير التجاوز على القانون، والكذب، والعسف فقط.

ـ وبالنسبة لك؟

ـ بالنسبة لي؟ كلا، ان القضية، بالنسبة لي، اكثر تعقيداً بعض الشيء..: ايام الخطة الخمسية الاولى، كنت ما ازال يافعاً، الا اني اتذكر كل شيء، اتذكر كل شيء. اتذكر كيف كنا نودّع ابانا الى العمل في القسم السياسي من محطة الآلات والتراكتورات، وكيف تم انجاز مصنع موسكو الكهربائي الاول في بلادنا للسنوات الخمس بسنتين ونصف ـ وكان ابي يشتغل هناك، ـ وكيف تم انقاذ رجال بعثة تشيليوسكين من الطافية العائمة في المحيط الشمالي المتجمد، وكيف عاد طيارونا تشكالوف وبايدوكوف، وبلياكوف من تحليقهم التاريخي الى الولايات المتحدة عبر القطب الشمالي. كنت اذ ذاك واقفا في شارع غوركي وسط الزحام. من محطة بيلوروسكايا حتى الكرملين كان الناس واقفين متراصين كالسياج، ينثرون الزهور، والشمس ساطعة، ومن اجهزة الراديو تنطلق اغنية: «بلادي الرحبة الحبيبة»، وكانت تلك الاغنية اذ ذاك في مستهل ظهورها. والحرب في

اسبانيا، اتذكرها... كل شيء اتذكر، يا فكتور، كل شيء... وقد كنت ارى الطيارتين الشهيرتين وهما البطلتان مارينا راسكوفا، وغريزودوبوفا، واتذكر كيف ارتفع فيدوسيينكو، وفاسينكو واوسيسكين الى السماء، الى الطبقات العليا من الجو على منطاد — واغلب الظن انك لم تسمع بهذه الاسماء قط. اما انا فما ازال اتذكرحتى الآن... كانوا يريدون ان يرتفعوا الى السماء اعلى من الجميع، ان يرفعوا العلم السوفييتي اعلى من جميع الاعلام، الا انهم استشهدوا. الثلاثة جميعاً استشهدوا. وكان اوسيسكين من الكومسومول. والاثنان كانا قد تخطيا سن الشباب، كانا قد اشتركا في الحرب الاهلية. اما هو الكومسومولي ففي عمرك. هاك، انهما جيلان. حين كان منطادهم يهوي، كانوا يسجلون ملاحظاتهم، لكي يعرف الناس... وقد دفن رمادهم في جدار الكرملين. فهل كنت هناك ذات يوم، قرب جدار الكرملين بالذات؟ اذهب... اقرأ اسماء هؤلاء منقوشة على المرمر. كنت واقفاً يومذاك في الساحة حين شيع هؤلاء الثلاثة الى مقرهم الاخير. كان ذلك منذ وقت بعيد، منذ اكثر من عشرين عاماً، ولكني اتذكر، اتذكر كل شيء... وبعد ذلك جاءت الحرب. وكان غاستيللو، وماتروسوف، وزويا، وجماعة بانفيلوف. وجميع ابطال الحرب هؤلاء لم يحاربوا ايضاً في سبيل عبادة الشخصية. وانا نفسي اصبحت في تلك السنوات انساناً...

فقاطعه فكتور قائلاً:

— ولكن في تلك السنوات ايضاً حرموك من اعز حق لديك، حرموك من الطيران!

— صحيح. ومع ذلك فليس يمكن ان اسمي السنوات التي عشتها بكلمتين فقط — «عهد العبادة»، كما تفعل انت، وذلك لأن في تلك السنوات ايضاً كانت تتحقق المآثر، لان الملايين من الناس، وانا من جملتهم، انما كنا نؤمن بقدسية ما نعمل. لا خوفاً ولا رغماً، بل لاننا ما كنا نستطيع العيش على غير هذا النحو!

فصاح فكتور:

— ولكن العبادة، العبادة؟! لماذا تسكت عنها؟

— كلا، لست اسكت عنها. لقد القت على حياتنا ظلاً فاحماً. كانت الطاقة البشرية، كانت المبادرة فياضة زاخرة، ولكنهم كانوا يقيمون في وجهها السدود، كانوا يكبحونها، ويحاولون ان يخضعوها لعقيدة جامدة متحجرة... ولو لا هذه العبادة وكل ما كان يتصل بها، لكنا نحن في الحرب قد ارقنا من الدماء اقل مما اريق... وكيف يمكن ان اسكت عن العبادة! ولكن «عهد العبادة» هو بالنسبة لك «وقت عكر» فقط، هو سلسلة من الجرائم والاخطاء. واما انا فاني على يقين من ان تاريخنا لم يكن فيه عهد اقتصر مضمونه كله على الاخطاء والجرائم. وفي هذا موضع خلافنا!

وقال فكتور بعد توقف:

— لست اريد اثارتك، يا فلاديمير اندرييفيتش. وخير لي ان اذهب للقيام بجولة. موافق؟ — وتطلع الى الساعة — عليّ ان اقابل احدهم...

وتناول معطفه الرقيق من على المشجب ولفه كما تلف الخرقة والقاه على كتفه، وخرج من الغرفة.

وظل زافيالوف وقتاً طويلاً جالساً بلا حراك ، مفكراً بالحديث الذي انتهى للتو.

وفكر في نفسه: «اني لم اقنع فكتور بشيء. وقد ذهب دون ان يتخلى عن اية فكرة من افكاره الغريبة الخرقاء. اني لداعية غير موفق... ينبغي لنا الآن ان ندرس الكثير من جديد. ان ندرس الاقناع. الخير، الشر، الوجدان، الحقيقة، الشرف. الجبن، الشجاعة... فنادراً ما بحثنا هذه المفاهيم. كان يبدو لنا ان كل شيء محدد مسبقاً، موضوع من قبل في المكان المناسب له. واما الآن فها هي هذه الكلمات – المفاهيم تدور في الهواء، وتتطاير وتلسع كالنحل فتية مثل فكتور... واما نحن فصامتون... وفي الحق ان هذا كله لا يشرح بمثل هذه البساطة! وان ثمة لكثيراً مما لا استطيع انا نفسي فهمه. لقد عشنا عشرات السنين على الاستشهادات، على الكلمات المأثورة الطنانة، نلوكها ونجترها!.. «موجز تاريخ الحزب» – الفصل الرابع»، «كيف يعلمنا الرفيق ستالين»، في «مؤلفات الرفيق ستالين العبقرية»...

وتخطر لزافيالوف فكرة مباغتة:

«ايوه، وانت، انت نفسك؟ ترى أما كان في وسعك ان تكون اكثر بلاغة واقناعاً في الجدل مع فكتور؟ لكأنما فرض عليك هو ميدانه وساحته للجدل. فما انت ولدت عبادة الشخصية. لقد خلقت انت شيئاً آخر مع الملايين من الناس البسطاء. ذلك الذي به تعتز البلاد. فلِمَ لم تجد الكلمات الضرورية في الجدل؟ لقد ظهرت دون المستوى، واضعت رأسك ليس لأن الآخرين هم المسؤولون. انت نفسك مسؤول. لقد لبثت وقتاً جد طويل

في وضع المغيظ الموتور. واستسلمت لهذا الوضع. ولقد كنت تقنع نفسك بان المهانة التي نزلت بك تحدد كل حياتك المقبلة. استسلمت لوضع طير مقصوص الجناحين، لوضع غراب مربوط. وها هو سيمونيوك – لقد فهم هذا على الفور. وحين احس بشيء آخر في كلماتي وفي نزعاتي، استبد به الخوف، ورأى في هذا تحدياً، وتوبيخاً له هو نفسه... القضية في نفسك، يا زافيالوف، في نفسك. لقد ظللت وقتاً طويلاً جداً في عطالة وجمود. نارك كانت خامدة تحت الرماد. ولكنها لا تشتعل. وها انت لم توفق لاشعال النار في الجدل مع فكتور... الى اين ذهب، هذا الفتى؟ الى حديقة الشارع؟ للتمشي في شارع غوركي؟ لوحده؟ قال ان عليه ان يلتقي باحدهم. ربما، بفتاة؟»

ويحل الليل...

٨ ـ حلقة مغلقة

ومرت ثلاثة ايام اخرى، وها هو زافيالوف جالس من جديد في الممشى الضيق، الذي لا ينيره غير ضوء كامد منبعث من مصباح معلق في السقف يعلوه الغبار، على مقربة من الباب ذي اللوحة المكتوب عليها: «ك. م. بروخوروفا».

ولقد جاء زافيالوف بدون اتصال هاتفي مسبق؛ فاذا لم يكن ثمة من جديد، فانه يحبذ ان يسمع ذلك من بروخوروفا مباشرة.

كل شيء هنا كما كان من قبل، لم يتغير شيء. اللهم الا بروخوروفا. لاحظ زافيالوف على الفور تغيراً في وجهها. لقد زاد نحولاً على نحول، وازدادت وجنتاها نتوءا على نتوء، وبدا ان ثمة ظلاً ما قد خيّم على عينيها.

وباشر القول: «كنيتي زافيالوف»، وهو ما يشك في ان هذه الامرأة، التي تستقبل كل يوم الكثير من الناس، لا تتذكره.

ـ فلاديمير اندرييفيتش زافيالوف.

هكذا كررت بروخوروفا بنصف صوتها، على نحو واضح لها بالذات. ثم قالت:

ـ اجلس.

فاقترب من الطاولة، واما بروخوروفا فالتفتت الى خزانة حديدية، كان بابها نصف مفتوح، ومدت يدها الى الخزانة، واخرجت منها اضبارة رقيقة.

ـ فلاديمير اندرييفيتش زافيالوف... ـ هكذا راحت بروخوروفا تكرر من جديد، كأنما لنفسها، وهي تلقي النظر على الاضبارة.

وراح زافيالوف يفكر: «ما الذي جرى لها؟ أتراها مرضت؟ ام هي الآن مريضة؟»

ـ اي نعم، ما من خبر الآن. ـ هكذا قالت بروخوروفا، وكان كلامها هذه المرة بصوتها المألوف، الرسمي، الجاف، ذي الصرير، وفتحت الاضبارة ـ لقد وجهنا طلبين. احدهما الى الادارة الرئيسية للملاكات لدى وزارة الدفاع، والآخر الى قسم الاوسمة. من قسم الملاكات جاء الجواب، اما من قسم الاوسمة، فلم يأت بعد. انك على درجة كبيرة من فراغ الصبر ـ هكذا اضافت بروخوروفا بلهجة تأنيب.

وباشر القول: «حبذا لو انك...»، ولكنها قاطعته ودفعت اليه بالاضبارة:

ـ اليك، اقرأ.

وكان مطبوعاً على قطعة من الورق الرقيق الشفاف ما يلي:

الادارة الرئيسية للملاكات

ارشيف وزارة دفاع الاتحاد السوفييتي

جواباً على طلبكم رقم ٩/٨٢١٠ نفيدكم بناء على المعلومات الرسمية لدى الادارة الرئيسية للملاكات، ان الرقيب الاول اولغا ميرونوفا، المولودة سنة

١٩٢٤، مسجلة في جبهة فولخوف، الفرقة الـ ١٨ للطيران. قتلت في ١٤ اذار (مارس) ١٩٤٤ اثناء تأديتها مهمة حربية. اقاربها (عمتها) تعيش في مدينة آستراخان، شارع سوفييتسكايا، ١٥، الشقة رقم ١.

التوقيع.

واعاد زافيالوف قراءة هذه السطور الجافة، الرسمية، غير المتوافقة فيما بينها. «مسجلة»... «قتلت»... كيف يجتمع هذا؟! كل شيء يجتمع على الورق»، — هكذا فكر زافيالوف وازاح الاضبارة جانباً.

فسألته بروخوروفا سؤال المستخبر العملي:

— هل قرأت؟

فاجاب زافيالوف بصوت يكاد لا يسمع:

— قرأت.

— ايوه، فلننتظر الآن جواباً من قسم الاوسمة. ولننظر ما لديهم من معلومات.

— وهل سيكون هذا سريعاً؟

— لا اعرف. ليست قضيتك لوحدها عندهم. واذا ما تأخر جوابهم طويلاً، فسنكتب اليهم مذكرة.

كانت تجيب كالآلة الاوتوماتيكية، الباردة، التي لا حياة فيها. ان اية ورقة تقع في يد مثل هذه المخلوقة يمكن ان تتحول الى ورقة نعي.

وسأل زافيالوف بنبرة مرتفعة بعض الشيء:

— ولكن لِمَ لا تسألون آستراخان؟ فثمة اشارة الى ان عمتها تعيش في تلك المدينة. وهذا واضح! حين التقينا للمرة الاولى، سنة واحد واربعين، كانت ذاهبة الى آستراخان، الى

بيت عمتها، فلماذا لم تسألوا؟.. وكيف لم اتذكر انا نفسي، كيف لم احزر!..

فقاطعته بروخوروفا قائلة بلهجة قاطعة:

— لكل شيء اوانه.

فقال زافيالوف، وهو لا يكاد يتمالك نفسه:

— استمعي، انك انت ايضاً انسان! أممكن انك غير اهل لفهم الأسى والبؤس لدى شخص آخر؟

نطق بهذه الكلمات وخشي هو نفسه من التأثير الذي احدثته. امتقع وجه بروخوروفا فجأة، وراحت شفتاها الجافتان الرقيقتان ترتجفان، واخذت يدها تضطرب في اعياء على الطاولة، باحثة عن شيء — دورق ماء، منديل...

فسألها زافيالوف في ارتباك:

— ما جرى لك؟ هل تشعرين بوعكة؟ أتحتاجين الى ماء؟

ولكن هذا لم يستمر طويلا. واستطاعت بروخوروفا تمالك نفسها. وانطبقت الشفتان الجافتان من جديد انطباقاً محكماً، وهدأ الساعدان، الا الشحوب فقد ظل، كما كان، يصبغ وجهها.

فقال زافيالوف باقصى ما يمكن من اللطف، ناقماً على نفسه:

— لقد جرحتك، طبعاً، فالمعذرة. كنت خشناً، فظاً. يصعب على من هو في الحال التي انا فيها ان يأخذ بالحسبان ان لديك المئات من القضايا. يسير فهم هذا، اما الاستسلام له فعسير. وبودي انك...

وقطعت كلامه رنة جرس الهاتف. فسارعت بروخوروفا لتناول السماعة، وقالت:

ـ آلو!

ظلت تصغي صامتة بضع ثوان، ثم نطقت بكلمتين فقط: «الآن آتية»، واعادت السماعة الى مكانها.

وباضطراب راحت بروخوروفا تضع في الخزانة الحديدية، بيديها الراجفتين الاوراق الموجودة على الطاولة، ثم قالت وهي تنظر الى زافيالوف كأنما تراه للمرة الاولى:

ـ اعذرني... لم اعد استطيع... عند ابنتي طفل يحتضر.

ولقد هم ان يقول في تأثر وانفعال: «اعذريني، ما كنت اعرف، ما كنت اعرف!»، الا انه لم يستطع. فصاح في نفسه: «يا لي من احمق، يا لي من قالب لا روح فيه! كيف اني...»

واخيراً، حشرت بروخوروفا في الخزانة جميع اوراقها، واقفلت عليها، وتناولت عمرة الميليشيا الموضوعة على الطاولة. ثم ترامت صوب الباب، وترنحت، ولو لا ان سندها زافيالوف لكانت وقعت، حتماً.

ولقد اوصل بروخوروفا الى الشارع؛ وبدا انها لا تلاحظ انه ماش الى جانبها يسندها من ساعدها.

وفي الشارع، سارعت بروخوروفا نحو موقف الترولياس. وكان ثمة حشد من الناس ينتظر في صف طويل. وادرك زافيالوف ان بروخوروفا لن تجد لها مكاناً لا في الترولياس الاول، ولا في الذي يليه.

فصاح بها: «انتظري! قفي هنا!»، وقذف بنفسه من الرصيف

الى وسط الشارع لكي يأخذ سيارة تاكسي. كان يسيطر عليه الشعور الذي كان يحس به في الجبهة حين كان يحتاج لرفع يده لايقاف سيارة، ولكن السائقين كانوا يأبون التوقف، و يمرون بسرعة خاطفة بشاحناتهم ذات الحمولات المختلفة، وبسياراتهم من ماركة «دودج» و«ستوديبكر». كان ينبغي حمل مسدس، والانذار بان دواليب السيارة ستطلق عليها النار اذا لم يتوقف السائق...

ولا سيارة تاكسي واحدة! كان زافيالوف واقفاً وسط الشارع. وكان المطر قد توقف منذ وقت غير بعيد، والسيارات العابرة ترشه بالرذاذ.

والتفت زافيالوف صوب بروخوروفا. كانت واقفة، مستندة الى الجدار، ويبدو عليها انها على وشك الانهيار. ودون ان يدرك ما يفعل، بسط زافيالوف ساعديه على رحبهما والقى بنفسه في اتجاه سيارة سوداء كبيرة. فارتفع صرير الفرامل على الارض، وانهال سيل من الكلمات المقذعة على زافيالوف من باب السيارة المفتوح. وراح السائق يصيح بانه سيستدعي الميليشيا على الفور، وان هذه سيارة وزير. الا ان زافيالوف لم يصغ سمعاً لكل هذا. فقد كان يرى ان السيارة في الداخل فارغة، وليس فيها ركاب، فصاح وهو يسرع نحو السائق:

ـ اوصل هذه المرأة... امر مستعجل!

ـ سأريك! ـ صرخ السائق وهو في سورة من الغضب.

فصاح به زافيالوف بصوت آمر: «اسكت!»، واشار الى بروخوروفا، الواقفة على الرصيف.

ولقد فعل فعله على سائق اما عنف لهجة زافيالوف، واما بزة الميليشيا التي كانت ترتديها بروخوروفا. فرضخ، وهدأت ثائرته، واقتصر على السؤال:

ـ الى اين المسير؟

ـ الى امام!

هكذا زمجر زافيالوف، وهو يجلس بروخوروفا في السيارة ويدخل وراءها.

«الى اين انا ذاهب؟ ولماذا؟ ـ هكذا راح زافيالوف يسائل نفسه وهو جالس قرب بروخوروفا على مقعد السيارة المغطى بسجادة من الخلف. ـ لعل هذا مزعج من قبلي؟ فهي غريبة عني تماماً، وانها لحزينة، فلماذا انشبث بها، والى اين انا ذاهب؟»

بعد ان جلست بروخوروفا في السيارة، تبعها زافيالوف بصورة لاشعورية، كأنه الآلة تتحرك في حالة العطالة. كان جلياً ان بروخوروفا في حالة صحية سيئة، وهي على وشك ان يغمى عليها، فما كان يجوز ان تترك لوحدها في مثل هذه الحال. يضاف الى هذا ان السائق كان فظاً غليظ القلب.

ولما عاد الى بروخوروفا وعيها، ذكرت العنوان، وتحركت السيارة الى جادة لينينغراد. كانت جالسة في الزاوية اليسرى، ناظرة بامعان الى نقطة واحدة، الى منفضة للسكاير، لماعة، من النيكل، مسمرّة على ظهر مقعد السائق. وفي هذه الاثناء، كانت السيارة قد تجاوزت محطة بيلوروسكايا، ومضت تسير نحو شارع كراسين. وبعد بضع دقائق توقفت عند عمارة

10—871

من العمارات التي تم بناؤها منذ وقت جد قريب. مخلفات اعمال البناء ما تزال قائمة امام المدخل، مجموعة في كومة.

بحث زافيالوف عن النقود في جيبه، وقال للسائق، مادّاً يده اليه بورقة عشرة روبلات عبر الزجاج المسدل:

ـ هاك، خذ.

ونظر هذا صوب بروخوروفا في خوف، الا انها كانت قد خرجت من السيارة.

فكرر زافيالوف القول: «لا بأس، لا بأس، خذ!»، والقى بالنقود على مقعد السائق، وخرج في اثر بروخوروفا. وقال: «ايوه، ها قد جئنا. انت الآن في بيتك. آمل ان يتحسن كل شيء.

جلي، ان بروخوروفا لم تكن تسمع. فقد كاد مسيرها الى المدخل ان يكون ركضاً، وكان زافيالوف قد قرر العودة حين بدا له من جديد ان خطوات بروخوروفا غدت مترنحة وباتت على وشك السقوط كما جرى لها منذ حين في الممشى. فدنا منها، وامسك بساعدها، وسألها:

ـ انت منزعجة؟ الشقة في اي طابق؟ أيوجد مصعد؟

فقالت بروخوروفا وهي تلهث:

ـ عفواً. اني مصابة بالربو. ورأسي في حال سيئة... في دوار... الطابق الرابع. اوصلني، اذا لم يكن صعباً عليك.

كان المصعد في مكان ما، فوق. فترامت بروخوروفا نحو الدرج.

وقد ناشدها زافيالوف قائلاً: «انتظري المصعد!»، ولكنها

اجابت: «كلا، كلا! اسرع!»، وراحت، وهي مستندة الى ذراع زافيالوف في اعياء، تصعد الدرج في تشبث واصرار.

الطابق الرابع. وضغطت بروخوروفا على زر الجرس، وقرعت الباب بيدها في الوقت نفسه... وبعد دقيقة، انفتح الباب. كانت تقف في الوصيد امرأة مسنة.

ـ ليزا... اين ليزا؟.. ـ سألت بروخوروفا.

ـ عزيزتي، كلافديا ميخايلوفنا، لا تضطربي... انها في المستشفى. سيارة اسعاف سريع اخذت الصغير الآن، ومعه ليزا... واما انا فقد طلبت مني ان انتظرك...

ـ وماذا جرى لكوليا؟ ـ استفسرت بروخوروفا، وراحت تلهث بعناء.

ـ ساءت حاله في منتصف النهار. ازرقّ كله، اخذ يبكي. ليزا الى الصيدلية، وانا مع كوليا... ثم تحسنت حاله. اما بعد ساعة، فمن جديد... الزبد في فمه، كله يرجف... استدعت ليزا سيا ة اسعاف سريع. جاء الطبيب، قال: فوراً، الى المستشفى. بظرف خمس دقائق راحوا كلهم...

ـ الى اي مستشفى، اي مستشفى؟!

ـ لا اعرف، يا كلافديا ميخايلوفنا، الحال كانت مشوشة، وما سألت. على كل، ليزا معه هناك، ليس لوحده.

فقال زافيالوف في حزم:

ـ ينبغي لك ان تجلسي، وتهدئي، وتشربي ماء، وتتناولي دواء ما. هل لديك دواء؟

فراحت المرأة المسنة تثرثر قائلة:

ـ ايوه صحيح، ايوه صحيح، اسهر عليها انت، لا تتركها. انا رائحة، الزوج، أكيد جاء، قاعد جوعان. لا تحزني، يا حبوبتي، سيكون كل شيء خيراً..

وانسلت من الممشى وهي تسير جانبياً.

وخلف بروخوروفا، دخل زافيالوف غرفة صغيرة. كانت رائحة الادوية هنا شديدة. وعلى طاولة صغيرة مدورة، قائمة وسط الغرفة، رأى زافيالوف لفافة قطن وقنينة دواء مفتوحة، وامبولات زجاجية مكسورة. وعلى الارض، قرب الطاولة، مغسل صغير فيه ماء، وعلى ظهر كرسي منشفة مدعوكة.

وترامت بروخوروفا في اعياء على مقعد طري، دون ان تنزع عمرتها، وعيناها مغمضتان. كانت ما تزال تلهث في عناء.

وسأل زافيالوف بصوت جهوري:

ـ ايوه، واين دواؤك؟ قولي، اجئك به.

ومضت بضع ثوان، وربما دقيقة، ففتحت عينيها، والقت بنظرة الى زافيالوف الحائر، وتساءلت بصوت خافت:

ـ لماذا يوجد في الدنيا هذا العدد الكبير من الناس الاشرار القساة؟ لماذا؟

ـ ومع ذلك فهم اقل من الاخيار.

ـ طول عمري كنت اعتقد ذلك ايضاً...

وراحت بروخوروفا تهز رأسها هزاً خفيفاً.

وفجأة نهضت في عنف. كان واضحاً ان نوبة الربو قد مضت. وبحركة سريعة نزعت بروخوروفا العمرة، ورمتها على الطاولة. ثم سألت:

– كيف السبيل لمعرفة المستشفى الذي اخذوهما اليه؟ ليس عندنا هاتف بعد. العمارة جديدة.

– نتلفن من الهاتف في الشارع. ولكن الى اين؟ أسيارة اسعاف سريع ام فوري؟ ممكن، بالطبع، الاتصال بالاثنين معاً. ولكني اعتقد بوجوب الانتظار قليلاً. تلك المرأة قالت ان السيارة كانت قد ذهبت للتو. وماذا اصاب الطفل؟ أكان مريضاً منذ وقت بعيد؟ كم عمره؟

– ولد منذ شهر. وفي هذا الشهر كله، كنا نحاول انقاذه. منذ اسبوع بدا لنا انه سيعيش، وان كل شيء قد سار على ما يرام. وعادت ليزا معه من دار الولادة... والآن...

والتفتت بروخوروفا صوب الجدار، واجهشت بالبكاء. كانت تبكي بصوت لا يكاد يسمع، وبدا لزافيالوف انها تبذل جهوداً جبارة لحبس الدموع.

واقترب، ووقف وراء ظهر بروخوروفا، وراح يتكلم باقصى ما يمكن من الاقناع:

– اني اكاد لا اعرفك، ولكني لا ادري لِمَ انا على اقتناع بانك صلبة العود. اغلب الظن، انك قد مررت في حياتك بكثير من المآسي. وفوق ذلك، فان العمل الذي تمارسينه هو...

– كلا! – هكذا ارتفع صوت بروخوروفا فجأة والتفتت بوجهها التفاتة عنيفة صوب زافيالوف – كلا! ان عملي هو عمل حسن، بهيج، طيب. لقد سألتك لماذا يوجد في العالم هذا العدد الكبير من الاشرار – فهل تحسب ان هذه الكلمات كانت لي؟ كلا! ليزا سألتني هكذا ليلة امس. واما انا فقد اجبتها كما اجبتني

انت الآن: هذا غير صحيح، ان الاخيار لاكثر، اكثر بكثير! واما الآن؟ فماذا سيكون جوابي لها اذا مات الصغير؟

وصمت زافيالوف. كان جلياً له ان وراء كل ما قالته الآن بروخوروفا يكمن ما هو اشد ايلاماً للنفس وادهى، وليس فقط مرض الطفل المفاجئ. ولكن يكون بعيداً عن اللباقة والكياسة ان يتدخل في الشؤون النفسية الخاصة لهذه المرأة التي لم يكن يعرفها، في الواقع.

– ينبغي للمرء دائماً ان يأمل بالاحسن، – هكذا قال زافيالوف، مدركاً انه انما ينطق بكلمات مبتذلة. – فالطفل تحت اشراف الاطباء، والام بجانبه. واثق، سيكون كل شيء على ما يرام.

ولكن بروخوروفا كانت كأنما لا تستمع اليه. انها غارقة في افكارها البعيدة عما كان يقول زافيالوف. ولقد اجابت، فما كان جوابها له بل لها هي نفسها او لشخص ثالث غير مرئي موجود في تلك الغرفة. وتابعت كلامها:

– في الماضي كان الاشرار غير ملحوظين. ما كانوا، دائماً، يحسبون في عداد الاشرار... اما الآن فقد رفعت عن الشر جميع الاقنعة. لم يصبح الاشرار اكثر، بل اقل، الا انهم الآن من غير ستار يخفي عوراتهم، فهم يفقأون العيون... طول الليل وانا اتحدث عن هذا لليزا.

وهنا كانت قد عادت الى وعيها تماماً، فقالت وهي تنظر الى زافيالوف:

ـ اعذرني، من فضلك. اني لفي خجل لكوني قد حملتك على الانشغال بأمري... ولكني لو لاك ما كنت، حقاً، وصلت...

ـ لا، لا، ابداً، ابداً! لعل علي مع ذلك ان اذهب لاتلفن؟

ـ لا، لا، انا نفسي. لقد زال ما كان بي. واما انت فاذهب. ولك الشكر. شكراً جزيلاً!

ومدت يدها الى زافيالوف. وشد على اصابعها الرقيقة الجافة. واوقفته بروخوروفا قائلة:

ـ مهلاً! اريد ان اقول لك... بشأن آستراخان. لقد بعثنا بطلب. فور تلقينا جواب الوزارة. ولكن بالبريد. ليس لدينا من المال ما يكفي لارسال برقيات. في وسعك، اذا اردت، ان تبرق انت نفسك الى هناك. هل تذكرت العنوان؟

ـ شارع سوفييتسكايا، ١٥، الشقة رقم واحد ـ هكذا، اوتوماتيكياً، اجاب زافيالوف ـ اني ساذهب الى هناك.

ـ ولماذا؟ ابعث ببرقية، اولاً. الى ادارة الشؤون المنزلية. والآن اذهب. مرة اخرى، لك الشكر.

وراح زافيالوف يسير في شارع غوركي نزولاً، نحو دار الهاتف المركزية. كان ما يزال بكل كيانه تحت تأثير ما حدث. كلا، طبعاً، ان القضية ليست فقط قضية مرض الطفل، وان يكن هذا بحد ذاته، يمكن ان يدفع بالانسان الى حالة اليأس. غريبة بين النساء بروخوروفا هذه... انها من حيث الانطباع الاول الذي تتركه في النفس ـ خبز يابس. ومن المؤكد ان الحزن يجعل الخبز اليابس ايضاً طرياً... ففي مثل تلك اللحظة

تذكرت آستراخان. انها تعيش في هذه الشقة مع ابنتها وحفيدها. والزوج؟ اين زوج ابنتها؟ لماذا لم تفه عنه بكلمة؟ اين هو؟ مسافر؟ ام هو غير موجود مطلقاً؟

كان يسير ببطء في شارع غوركي. والشمس تشع وهاجة. وعلى الارصفة ازدحام شديد.

وها هو قد وصل دار الهاتف. عقرب الدقائق يختلج في تشنج على وجه الساعة. شبان، وفتيات متجمعون على الدرجات العريضة المؤدية الى الباب الزجاجي... المكان المفضل لمواعيد التلاقي.

واخذ زافيالوف يصعد الدرج.

٩ ـ «لينا تتكلم!»

كان ذلك من اقتم الامسيات بعد عودة زافيالوف الى موسكو. لقد عاد مفعماً بالآمال. فانهارت جميعها، الواحد أثر الآخر.

وفي المرة الاخيرة ـ وكان ذلك اول امس ـ افهمت كوروستيليوفا زافيالوف انها قد فعلت كل ما كان في وسعها، ولم يعد من جدوى للاتصال بها هاتفياً. أكيد انها حاولت تهدئة خاطره، فقالت انها ستواصل الاستعلام، فاذا ما اتضح شيء فستتلفن هي نفسها، او تكتب لزافيالوف...

ولكنه ادرك ان ليس وراء كلمات كوروستيليوفا هذه من شيء سوى العطف. وهكذا مني بالخيبة في ادارة التحرير. وقسم البحث لم يستطع حتى الآن مساعدته في شيء، وكانت النتيجة الواقعية الوحيدة للبحث ورقة من وزارة الدفاع، تؤكد وفاة اولغا.

والامل الاخير بات معلقاً على جواب البرقية من آستراخان المدفوع الاجرة مسبقاً، الذي مضى على زافيالوف خمسة ايام وهو في انتظاره.

حين عاد الى البيت، كان قد حل الغسق. لم يكن فكتور هناك، فمنذ الصباح كان قد انبأ زافيالوف بانه لن يعود قبل

الحادية عشرة. فكان بانتظاره امسية طويلة فارغة. كان زافيالوف جالساً بمفرده... وبغتة رن جرس الباب.

موزع بريد. وتناول زافيالوف من يده برقية، ووقع على الوصل، ونزع غلاف البرقية...

وبعد ذلك جلس وراء الطاولة، وبذهول، ودون ان يدرك تماماً ماذا حدث، راح ينظر بلا انقطاع الى السطرين الشحيحين، المطبوعين على ورقة برقية رمادية اللون :

«ميرونوفا ايفدوكيا نيقولاييفنا توفيت ١٩٥٢. لم يكن لها اقارب ساكنون معها. مدير الشؤون المنزلية كوسيتشكين».

اذن، انتهى كل شيء. لم يعد ثمة داع للسفر الى اي مكان، لم يبق من احد يوجه اليه سؤال، ولا من احد يرسل اليه برقية...

هذه هي النهاية. لا وجود لاوليا. انه على خطأ. ليست هي التي تنظر اليه في تلك الصورة. فلا انبعاث لمن يحترق في الهواء. هذه ليست اوليا واقفة على الثلج بين اناس غرباء، ليست هي. انها امرأة اخرى. كل ما في الامر انها شديدة الشبه باوليا. شبيهة فقط!

وتمتد يد زافيالوف الى الصورة. يود ان يمزقها، ان يمحقها، لكي لا تقع عليها عينه ابداً. انه لا يريد النظر الى هذه المرأة الغريبة، التي تجاسرت على ان تكون من شدة الشبه باوليا بحيث بعثت في نفسه الامل، وخدعته على هذا النحو الرهيب.

ولكن، في اللحظة التالية، يسحب زافيالوف يده في هلع. ينبغي ان يكون ممتناً للمرأة الغريبة. انه مدين لوجودها بكونه قد عاش ثلاثة اسابيع زاخرة بالسعادة، والقلق، والترقب. وقد

اقتنع بانه لم يفقد بعد تماماً الفة الحياة، وانه اهل للاحساس بدفق القوى، وقادر على النزوع الى شيء ما.

«اهل»... «قادر»... «نزوع»... ولكن ما جدوى كل ذلك الآن؟

«ينبغي نسيان كل شيء. فيا كوسيتشكين الآستراخاني البعيد، مدير الشؤون المنزلية، لقد قضيت القضاء المبرم على الآمال جميعاً! بعد الورقة الرقيقة الشفافة الحاملة ختم وزارة الدفاع، بقي الأمل الاخير، أمل راجف، بالكاد يلمس، كأنه السحابة، كأنه الضبابة في نهار لا رياح فيه. وانت اجهزت عليه. نفخت، فتلاشى، كنت جالساً وراء طاولتك في ادارة الشؤون المنزلية، تكلف بالمهمات اليومية الحداد، والاختصاصي في مجارير المياه، والبواب، وتعد هذا بتصليح السقف، وترفض لذاك التصليح لحساب ادارة الشؤون المنزلية، وبعد ذلك تذكرت برقيتي المدفوعة اجرة الجواب، فكتبت «ماتت... لم يكن لها اقارب...» وختمت المسألة، كما يقال. اذن، كل شيء باق كما كان».

ويرن جرس الهاتف.

ـ لينا تتكلم!

ـ عفواً، من؟

ـ كنت اعتقد انه لا يجدر بي ان اتلفن. وفوق ذلك، فما لك انت طول هذا الوقت لم تر ان من الواجب ان تخبر عن نفسك. ولكن أتحزر الآن، على الاقل، من التي تتكلم؟

لينا؟ ها، ولكن، أكيد، انها هي، لينا. شاطئ ريغا. كل شيء يعود الى مكانه. كل شيء!

ـ مرحباً، لينا.

ـ ايوه، الحمد لله!

ان لها لصوتاً جميلاً. لا سيما في الهاتف. خفيض، الا انه لطيف. وتواصلت الكلام:

ـ أكيد، ما كان يجدر بي ان اتلفن. ولكني، بصريح العبارة، فضولية. أتعتبر هذا عيباً؟..

ويصمت زافيالوف.

ـ نعم؟ ايوه، اذن لدي عيب آخر زيادة غماً بي. يهمني فقط ان اعرف كيف حالك. هل انتهت تلك الحكاية السرية على خير، كما آمل؟ ما لك صامت؟

ـ نعم، يا لينا، انتهت الحكاية.

ـ انك تقول هذا بلهجة غريبة... ام ترى انا قد نسيت لهجتك؟

ـ الراجح، نسيت لهجتي.

ـ ولكني لست راغبة في النسيان! اسمع، يا زافيالوف، انك، على ما يبدو، ساكن في شارع «بوابة نيكيتسكيه»؟

ـ نعم.

ـ انظر، اني متذكرة! اني بصورة عامة اتذكر كل ما كنا نقول احدنا للآخر. وانت؟ ولكن ما لك تلتزم الصمت من جديد؟

ـ انا استمع اليك، يا لينا، استمع اليك بانتباه.

– وما دام الامر كذلك، فان لدي اقتراحاً. اني الآن في زقاق كيسلوفسكي. أتريد ان آتي لمرافقتك؟

– تعالي، – يجيب زافيالوف وفجأة، وعلى نحو غير متوقع منه هو نفسه، يكرر القول بصوت عال، وفي اصرار، وغضب: – تعالي! وباقصى السرعة!..

– آه، ما اقساك، ايها الرفيق المقدم! اذا كنت فارغ الصبر الى هذا الحد، فلماذا كنت صامتاً قرابة شهر؟

– سنتكلم عن هذا حين نلتقي. تعالي! هل تعرفين العنوان؟

وجاءت لينا بعد عشر دقائق. كانت ترتدي فستاناً مشرق اللون مفتوحاً على الصدر، يلف جسمها لفاً وثيقاً، كجميع فساتينها، كأنما كانت تستحم به، ثم جففته عليها، دون ان تنزعه.

هي ذي لينا تخطو في الغرفة، وها هي تضع على طاولة الكتابة محفظتها الطويلة، وتروح تنزع عن يديها قفازها الاحمر الرقيق. نظر اليها زافيالوف وراح يفكر: «كل شيء كما كان في الماضي. وها هو هذا الماضي قد عاد. ها هو يصل. يمكن ان لا يفكر المرء في شيء. كل شيء يجري لذاته بذاته. وان تكن المسافة تبقى دائماً. ضئيلة، كصفحة من ورق، ولكنها تبقى. في اوثق المعانقات. ولدى اعنف المداعبات. لا يتفق ابداً ان تصبح «انا» و«انت» وحدة. تبقى المسافة. لا يمكن تخطيها. ولا حاجة لذلك».

– اي... وه، يعني، كيف تعيش! – قالت لينا وهي تجلس على المقعد قرب الراديو – وحدك، وحدك تماماً؟

– لست، الآن، لوحدي. قريب لي ينزل ضيفاً عليّ من لينينغراد.

واقترب منها، وجلس على طرف المقعد، وراح يداعب بيده شعر لينا المشرق المتلألئ. فقالت وابعدت رأسها قليلاً:

– ايوه، على مهلك! هات لي كأس ماء، اني عطشانة.

فقال زافيالوف في نفسه: «اسلوب سخيف، عتيق»، الا انه نهض، فذهب الى المطبخ، وفتح الصنبور.

ومرة اخرى راح يفكر في نفسه: «باي يسر يعود كل شيء. كل ما لست شديد الانتظار له، وشديد الرغبة فيه. مثل المد على البحر. يرتد الماء فيغمر ما كان قد كشف لعيون الناس وقتاً قصيراً. من رمل طري، كبشرة الطفل، وقطع خشب متحجرة ربما كانت، وقتاً ما، سفينة... ولكن الماء، بعد ذلك، يغمر كل شيء. ولا يبقى غير الشاطئ تعرفه، وتسير عليه، وتدوسه الوف الاقدام».

ولعلع صوت لينا:

– واين الماء، يا زافيالوف؟ أتراك، على ما يبدو لا تملأ كأساً بل سطلاً؟

ولكن زافيالوف كان قد نسي مطلقاً ان يضع كأساً. فكان الماء يجري سدى، والرذاذ يتطاير في جميع الجهات.

وبسرعة يغلق الصنبور ليخفف من تدفق الماء، ويضع تحت المسيل كأساً...

وتشرب لينا جرعة صغيرة وتضع الكأس على الطاولة. ثم تقول:

ـ ايو ه، فلنتحادث الآن. الفضول يرهقني. فما الذي جرى ومذاك، مع ذلك؟

ويقف زافيالوف لدى الجدار قبالة لينا، ينظر الى ساقيها الطويلتين اللتين صبغتهما الشمس بلون البرونز، ويفكر: «لو انها كانت اقل كلاماً، لو انها ما كانت تتكلم اطلاقاً، اطلاقاً!»

وتلح لينا قائلة:

ـ ايوه، كلي اذان صاغية!

ويفكر زافيالوف في نفسه: «وما العمل، لا بد، على ما يبدو، من سلوك هذا الدرب ايضاً»، وبصوت مسموع يقول:

ـ وقع خطأ، يا لينا. سوء تفاهم. والآن اتضح كل شيء.

ـ اي خطأ؟

ويجيب زافيالوف بحدّة:

ـ الامر كله سواء، في النهاية!

ـ كلا، ليس الامر كله سواء.

وتسأل في الحاح. جلي انها مصممة على الوصول الى جواب. هناك، على البحر، قامت بتنازلات. كانت تريد استبقاءه مهما كلف الامر. بالاذعان، بالاستعداد للموافقة على كل شيء، وعدم السؤال عن شيء.

ولكن ذلك لم يكن ذا جدوى. فقد ذهب. واما الآن، فها هو ينظر اليها نظراته يومذاك على شاطئ البحر، نظراته من قبل ان تحدث «الحكاية». حقاً، انها اليوم لفي عرس.

ومن جديد يقترب زافيالوف من لينا، ويجلس على مسند المقعد، وباطراف اصابعه يلامس عنقها الممشوق. ١٧٤

فلا تتنحى، الا انها لا تأتي بحركة مطاوعة واستجابة.

ـ وهكذا، كلي اذان صاغية.

ـ وهل ترى لا بد لي من الكلام؟

وبيرودة تجيب لينا: «نعم».

ويفكر زافيالوف: «طيب، ساجيبها. ساقول. وبعد ذلك يمكن نسيان كل شيء خلال نصف ساعة». ثم يقول:

ـ طيب. ساشرح. بدا لي، ذلك الحين، اني رأيت في المجلة صورة شخص كان قد قتل على الجبهة.

ـ ليس هذا بصحيح، يا زافيالوف. تقول انه قتل، فكيف امكن تصويره؟

ـ خطر لي انه ربما كان قد حدث خطأ، وانه حي.

ـ ومن هو هذا الشخص؟ قريب لك؟

ـ كلا، من معارفي وحسب.

ـ وفي سبيل ذلك رميت بي وحيدة هناك، على شاطئ البحر؟

ـ ما كان في وسعي اذ ذاك ان اتصرف على غير هذا النحو، يا لينا. كان ذلك اقوى مني.

ـ واقوى مني، على ما يبدو؟

ـ الامر هنا لا يعنيك انت.

ويبسط يده على عنقها. وتحس كفه ببشرة ملساء كالرمل، كالرمل الندي بعد انحسار الماء عنه. وترد رأسها ردة خفيفة الى وراء. وبعينين نصف مغمضتين، تتكلم لينا:

ـ كان الامر رهيباً، حين ذهبت. رحت امشي وانا حائرة ١٧٥

تماماً. وجميع الذين كانوا يروننا معاً، راحوا ينظرون اليّ باشفاق. وانا اشعر بالكراهية حين يشفق عليّ الناس. حين يظنون اني مهجورة...

وترد رأسها الى وراء اكثر من ذي قبل. فيلامس شعرها يده.

وينهض زافيالوف، ويبسط ساعديه اليها. وهي الآن ستمد اليه يديها، فينمحي اذ ذاك كل شيء، ويتقلص كل شيء، مثلما يحدث على شاشة التلفزيون حين يتعطل فجأة، فيضيق كل شيء ويضيق، حتى لا يبقى من الصورة غير خط واحد. وبعد ذلك يتوهج هذا الخط ايضاً ويتلاشى، وتعود الشاشة ملساء لا حياة فيها. واذ ذاك يطوي النسيان كل شيء.

ولكن لينا لم تبسط بعد ساعديها اليه. انها في شوق الى الحديث.

ـ اضطررت للاختلاق، للتأكيد بانك قد استدعيت على عجل. ولكن ما صدقني احد. كنت ارى ذلك في وجوههم. وبخاصة في وجه المحاسب، جارك في الغرفة... فقل هل انت على الاقل آسف لحدوث الامر بهذا الشكل السخيف؟

فيقول زافيالوف بصوت مرتفع غاضب:

ـ آسف.

ـ تصور، لقد كان بوسعنا البقاء مدة اطول هناك، على شاطئ البحر، فلا نختنق في حر موسكو. كان في وسعنا ان نستحم. وان نتنزه على الشاطئ في الامسيات. وان نذهب الى الكثبان... أتذكر كل ذلك؟

ـ اذكر. هات يديك...

ويرن جرس الهاتف. فلا يلتفت زافيالوف الى الجهاز. فتقول لينا:

ـ ولكن، اذهب الى الهاتف.

ـ لا اريد. هات يديك...

ولكنها تزيحهما، مواصلة الكلام:

ـ اسمع، أليس بوسعنا ان نسافر معاً ايضاً الى مكان ما؟ ولو لاسبوعين. طيب، لعشرة ايام! في وسعنا ان نقفز الى سوتشي، الى البحر. او لا، الى باكورياني، احسن... ما كنت هناك ابداً. يقال ان الناس هناك يستطيعون التزحلق على الثلج حتى في الصيف. منذ وقت قريب رأيت صورة في مجلة «اوغونيوك». صيف وشمس وثلج، يمكن التزلج بثياب الاستحمام تقريباً... نروح؟.. او على الاقل الى مكان ما على النهر في ضواحي موسكو...

ـ طيب، سنروح. ولكن هات يديك.

ولكن لينا تشبك يديها وراء رأسها وتحدق في عيني زافيالوف وتقول:

ـ على مهلك. لن يهرب منا هذا. اني حزينة بعض الشيء. فما مصدر هذا، يا ترى؟ ـ وتبتسم في خبث ـ لا تعرف؟ وانا لا اعرف. كلا، كذابة، اعرف ذلك... تزوجني، يا زافيالوف...

فيتراجع خطوة الى وراء في ارتباك. فتقول لينا:

ـ طيب، طيب، لا تأخذك الدهشة ولا تفزع، من فضلك. انت لا تفهم المزاح... وربما اني لا امزح.

فيلاحظ زافيالوف جاهداً ان يكون كلامه بمثل لهجة لينا:

ـ وما لك وللزواج؟ ولأي شيء؟

فتقول لينا متأنية كأنما تتحدث مع نفسها، وتبتسم من جديد ابتسامة ساخرة:

ـ ايه، لا تتزوجن يا بنات، فلا بهجة في الزواج. وما هو المبهج؟ أتعرف ما المبهج؟

فيجيب زافيالوف بابتسامة ساخرة ايضاً:

ـ ملكوت الرب في نفوسنا. على اننا ستتمكن من الحديث عن هذا فيما بعد.

ـ كلا، لن نتمكن فيما بعد. فانا اعرف ان في هذا سخافة من جانبي...

ـ وما السخافة؟

ـ كل هذا الحديث. والمسألة فقط هي اني شعرت فجأة بالأسى. أتستطيع تصور مثل هذه السخافة، بالله عليك؟ اسمع، يا زافيالوف، اني فعلاً جد راغبة في الزواج.

فأوشك ان يقول لها زافيالوف: «وما شأني انا في هذا؟»، الا انه قال بدلاً من ذلك:

ـ اعتقد ان هذه ليست بمشكلة بالنسبة لمن لها مثل شكلك.

ـ تواسيني؟ كلا، يا زافيالوف، ثمة شيء ما وقع لي. فلم يعد احد يتزوجني. ولو انك تزوجتني لكنت على قسط كبير من الحمق. على انه، كلا. قد يكون ذلك حكيماً جداً. حكيماً الى درجة لا يستطيعها حتى واحد حكيم مثلك. ولكنت لك زوجة طيبة، أتعرف؟

فقال زافيالوف بفراغ صبر:

ـ لعلنا مع ذلك نؤجل هذا الحديث؟

ـ كلا، انما نقطعه قطعاً. انا اعرف ما عليّ ان افعل الآن. ان امدّ اليك يدي وانهض، فتأخذني الى ذلك الباب، وهناك لديك سرير او، ربما، ديوان، فما تمكنت من تمييز ذلك. انك، اجمالاً، على حق، طبعاً. الا اني قد اصبت بهوس جامح. هوس او سوداوية اني متعطشة للحديث. خمس دقائق اخرى. ممكن؟

فيرفع زافيالوف كتفيه.

ـ كنت متزوجة. ثلاث مرات. فكم انا شاطرة! أتعرف من كان زوجي الاول؟ جنرال. فكان يزورنا في البيت جنرالات، ومدراء، ورؤساء ادارات رئيسية، حتى ووزيران... وكانوا جميعاً يسعدهم ان يتزوجوا بي. وكنت اصدق. حتى الذين كانوا متزوجين. كان يمكن ان يهجروا زوجاتهم، ويأتوني. ألا تصدق؟ لقد تحققت من الامر. فحين انزلوا من مرتبة زوجي وطردوه من الحزب لكونه اساء التصرف كثيراً في السنة الاخيرة من الحرب، هجرني هو نفسه. واضح انه كان يعتقد ان ليس له من حق في ان يرتبط بحياتي من غير ان تكون له شرائط ذهبية على كتفيه ومن غير بطاقة حزبية. واذ ذاك ذهبت الى آخر. وكان هذا من كبار رجال مفوضية الداخلية. الا انه قد حدثت مشاكل هناك، فسجنوه. فرحت طول الوقت اعيش في ترقب وانتظار. وقد حدث شيء ما لجميع الذين كانوا يزورونا. سرح هذا، وسجن ذاك، وتلقى الآخر تأنيباً، واهمل وارسل للعمل في مناطق بعيدة. كانوا جميعاً يفرطون في الشراب، ويشتغلون

في الليالي، وما كانوا واثقين من غدهم. وكان لا بد من اعتياد ذلك كله، وقد اعتدته. وحين هجرني جنرالي قلت لنفسي: «واحد!..»، وتزوجت آخر. وحين سجنوه، قلت: «اثنان!..»، وتزوجت الثالث. كان مدير ادارة رئيسية عشت معه سنتين، وما كانوا قد توصلوا بعد لا الى تسريحه، ولا الى سجنه، تصور. وقد قتل في كارثة سيارات. حدث ذلك في نهاية سنة ثلاث وخمسين. وكان الامر جد محزن لي. ولكني، فيما بعد، هدأت من روعي: فالحياة هي الحياة، وقلت لنفسي: «ثلاثة!..» واذ ذاك وقعت الخيبة. فقد تطلعت، فما رأيت احداً بقربي. هل تستطيع ان تتصور ذلك؟ كان يكفي من قبل ان اغمض عيني، واقول: «واحد!..» وافتحهما من جديد فارى ان ثمة واحداً بقربي واقفاً وقفة الاستعداد بانتظاري. اما هذه المرة، فما من احد. وكانت الخيبة. لقد حدث للناس شيء ما. تغير شيء ما. انا نفسي لا اعرف ما هو. فجأة ظهر ان لا حاجة لأحد بي. الجميع، نوعاً ما، ركنوا الى الهدوء... مزعج لك ان تستمع اليّ؟..

ـ كلا، ولماذا؟

ـ حكاية مسلية، أليس كذلك؟ ما من احد راغب بان يتزوجني. قضاء الليل ـ يا حبذا. اما العيش مع مثل هذه الزوجة الجميلة، الذكية، الخبيرة، فلا يريدون. وذلك حين كنت ابيّن اني احسن حتى غسيل الثياب ومسح ارض البيت! غريب جداً... والآن ما بقي شيء. وكفى فلسفة، فقد حان وقت العناق والقبل.

وفي تراخ، تمد لينا يديها الى زافيالوف. فيشدها اليه، فتنهض، فيطوق بساعديه كتفيها العاريين.

ـ مهلاً، سازيل الحمرة عن شفتي. فاني اكره ان تتمرغ الحمرة.

وتنقلت من طوق عناقه، وتندار نحو الطاولة، حيث كانت تضع حقيبة يدها الخضراء الطويلة، فتقع عينها على الصورة.

فتتطلع اليها لينا، وتفتح في الوقت نفسه حقيبتها، فتخرج قطعة قطن ومرآة صغيرة. وتسأل في لامبالاة، وهي تمسح الحمرة بعناية عن شفتيها، وتنظر الى المرآة بين حين وآخر:

ـ ما هذه الصورة الغريبة؟ انت هنا مصوّر ايضاً؟ كلا، لست ارى على ما يبدو. اي اناس تافهين هؤلاء!.. اين التقطت هذه الصورة؟

فيجيب زافيالوف بصوت مخنوق:

ـ لا اعرف.

وللمرة الاخيرة تمر بالقطن على شفتيها الشاحبتين، وتضع قطعة القطن المحمرّة والمرآة في الحقيبة، وتلتفت الى زافيالوف.

ولكنه لم يكن في مكانه السابق. انه واقف لدى الجدار المقابل، ملتفتاً بجانبه صوب النافذة. وبسبب وقفته تلك، وتغير تعابير وجهه المفاجئ، وبسبب ابتعاده عنها، وعدم تقدمه الآن خطوة نحوها، شعرت لينا ان شيئاً ما قد حدث.

منذ دقيقة كانت بكل خلية من خلايا جسدها الخبير الحساس تشعر بشهوته وفراغ صبره. اما الآن فقد شعرت كأنما قد تعرضت لمزاح ثقيل خبيث، كأنما ربطوا على عينيها، كما

في العاب الطفولة، ودفعوها الى المشي، ثم رفعوا العصابة، وسط قهقهات الحضور، فادركت انها قد اخطأت الممشى، اذ سارت الى جهة خاطئة مغايرة تماماً للجهة التي كان ينبغي السير فيها وكانت خطواتها خرقاء.

ـ ايوه... ولكن اين انت؟

هكذا قالت في تردد وفقدان للثقة بالنفس.

ولكن زافيالوف لم يأت بحركة. بل لقد قال بصوت غريب:

ـ كانت هذه خطيئة، يا لينا. لقد التقينا دون جدوى.

ـ دون جدوى؟ ـ سألت لينا وقد طاش صوابها ـ ولكنك كنت تريد ان تراني!

ـ قلت لك غير الصحيح. لست اريد ان اراك. ولن نذهب الى اي مكان. لا الى سوتشي، ولا الى باكورياني، ولا الى النهر. لن نذهب الى اي مكان. اني الآن اعرف هذا بالتأكيد. وما كان ينبغي لي ان ادعوك. ولكنك في هذا غير مسؤولة. انا المسؤول عن كل شيء. واما الآن فخير لك ان تنصرفي.

انه، على ما يبدو، يطردها بصراحة، وتمتلئ عينا لينا بالدموع. من جراء المهانة، من جراء المفاجأة، من الأسى على نفسها.

بيد انها تحاول تمالك نفسها. بل تحاول ان تبتسم ـ ابتسامة كئيبة مفتعلة... وتقول:

ـ وها هو ذا عنصر ما جديد في سيرة حياتي. ممكن ان

لا يراد الزواج مني، ولكن أما من رغبة في النوم معي على السرير؟!.

واذ ذاك يدنو منها زافيالوف. ويطوق كتفيها المكشوفين بساعديه. كلا، كلا، انها تحس، تدرك: ما هذه قط بملامسة رجل. ان له لساعدين غريبين.

ويقول من جديد وهو ينظر اليها نظرات منطفئة فاترة:

ـ ما كنت اظن ان الامر سيجري على هذا النحو. كل ما في الامر اني كنت مبالغاً في تقدير ذاتي. كنت اريد ارغام نفسي. ان انتصر عليها. ولكني لا استطيع. اعذريني.

وبحركة عنيفة تلقي بساعديه عن كتفيها.

وبالكاد تنطق لينا، وهي تلهث من الانفعال والغضب:

ـ انت... انت مصاب بالنوراستينيا يستحق الرثاء! انا التي بادرت للقاء بك... اتصلت هاتفياً... فلماذا دعوتني، لماذا؟

فيصمت. وبغتة ترد لخاطرها فكرة. فتسأل:

ـ اسمع، هذا الشخص... ايوه، الذي قد يكون حياً... أهو امرأة؟

ـ لا اريد... لا استطيع الكلام عن هذا.

فقالت محاولة ان تحمل صوتها كل قوة المرارة:

ـ اما انا فاريد؟ انا استطيع؟ أفي متناولك وحدك العواطف الرقيقة؟ طبعاً، كل شيء ممكن لك، كل شيء مسموح به! «تعالي»، «انصرفي»، «هيا نفترق». وعليّ انا، طول الوقت، ان اتنافس مع شبح من الاشباح، مع طيف من الاطياف، وانت لا تتفضل حتى بان تقول من هي!.. فمن هي، من هي

هذه المرأة؟ اسمع، اني اسألك! لعلك تنتظرها اليوم مساء، حين ساذهب؟

ـ لست انتظرها.

ـ انك ستدعوني مرة اخرى، ستدعوني! فعلى الموضة الآن احياء الموتى، انا اعرف. يا لهذا الزمان! الجميع يريدون تصحيح كل شيء، وعودة مفقودين ليس لهم حتى القبور على الارض...

فقال زافيالوف في نفسه: «كلا، كلا، انك تكذبين! هذه ليست موضة، وما هي بجهود عقيمة. ينبغي تصحيح كل شيء، ينبغي ان يعود جميع الذين يمكن ان يعودوا، وحفظ ذكرى اولئك الذين لم يعد يمكن ان يعودوا! ان اوليا تنادي، حية كانت ام ميتة، انها ليست وراء ظهري بل هناك، امامي...

فتقول لينا في استنكار:

ـ أتسكت؟ كلا، اجب: لماذا دعوتني؟

ـ انت نفسك قلت انك تودين المجيء اليّ.

ـ آه، وتوبخني ايضاً؟

ـ لا ينبغي، يا لينا...

ـ ماذا، ما الذي لا ينبغي؟ اجل، كنت اريد ان اراك، كنت اريد لأني كنت واثقة من انك مع ذلك في حاجة اليّ. اما انت... انت مجرد شخص مريض، انت مريض! انتظر، فسيأتي يوم، وستتضرع اليّ انت نفسك بان اعود! سيرهقك العيش مع اشباحك، مع موتاك الذي لا انبعاث لهم. ولكن سيكون

ذلك بعد فوات الاوان. فهل انت قادر على فهم هذه العبارة: «بعد فوات الاوان»؟

فيقول زافيالوف بلهجة مطاوعة متعبة:

ـ بلى، انا قادر على فهم هذه العبارة.

ـ فابق لوحدك اذن. اني ذاهبة. وهذه آخر مرة تراني فيها!

وبحركة عنيفة تتناول حقيبتها، وقفازيها الاحمرين، وتمضي الى الباب. ويسمع زافيالوف كيف تعالج القفل في الممشى، الا انه لا يستطيع حمل نفسه على القيام بخطوة واحدة لمساعدتها.

ويخبط الباب، اخيراً، خبطة صاخبة. لقد ذهبت...

ويدنو زافيالوف من النافذة المفتوحة، وينظر: هي ذي لينا تخرج من مدخل العمارة، وها هي تتوقف، فتفتح حقيبة يدها، وتخرج المرآة، وقلم الحمرة، وتتأبط الحقيبة، وتقوم بحركتين عنيفتين بقلم الحمرة حول فمها.

وبعد ذلك تعبر الطريق الى البولفار امرأة طويلة الساقين، عليها فستان شديد اللصوق بجسمها، منحدر بين ساقيها، طويلة، ممشوقة، هي اجمل من قابلهن زافيالوف من النساء، زمناً ما، واكثرهن بعداً عن حاجة النفس.

١٠ ـ شعاع ضئيل من النور

كانت قد اختفت وراء المنعطف، واما زافيالوف فما يزال واقفاً يتطلع من النافذة. ويظل بضع ثوان اخرى يفكر بلينا، متمثلاً اياها سائرة الآن في ممشى البولفار الى ساحة بوشكين، قارعة الدرب قرعاً شديداً بكعبيها المسمارين، هازة ردفيها في كل خطوة هزاً خفيفاً، والناس الجالسون على المقاعد يلاحقونها بنظراتهم...

«سيأتي يوم، وستتضرع اليّ انت نفسك بان اعود...» كلا، يا لينا، لن يأتي هذا اليوم. سيتلفن لك شخص ما آخر. او تتلفنين لاحدهم...

ويتطلع زافيالوف الى سيل السيارات، والى عقرب الساعة الكهربائية، يختلج في كل دقيقة، والى الاشارات الضوئية، تشتعل وتنطفئ، حمراء، صفراء، خضراء... صفراء، حمراء، ومن جديد صفراء، خضراء...

كانت مصابيح الشارع قد اشتعلت. وصف الانتظار امام عربة المياه الغازية يطول حيناً، ويزول حيناً آخر.

هو ذا احد العسكريين يسير. من هنا، من النافذة لا يرى كم على كتفه من النجوم. انه شاب. ملازم، على الارجح. يبلغ الزاوية، وينعطف نحو البولفار. وها هما زوجان. عليه هو

قميص ذو رسوم مربعة خارج عن البنطال، مقلوب الكمين قليلاً. وهي بمعطف رقيق رمادي مشرق وحذاء صيفي يكشف عن القدمين. اغلب الظن انهما ذاهبان الى البولفار. كلا، لقد انعطفا. انهما يجتازان الطريق. اذن، الى سينما الافلام المكررة. ويمر شيخ، له لحية صغيرة بيضاء بشكل الاسفين ونظارة، وسترة عريضة من النسيج الابيض الخفيف. استاذ، على الارجح. مثل الذين يعرضونهم في المسارح. وقد لا يكون استاذاً على الاطلاق، بل محاسب متقاعد. ان هذا، بالطبع، ذاهب الى البولفار. يجلس هناك قبل ان يطبق الظلام... ويمر سكران. يطحم بالابواب الواحد بعد الآخر. يصل المخزن الكبير للمواد الغذائية ثم تواريه الابواب. انه لم يشرب ما فيه الكفاية. ولسوف يبحث عن زميلين له، لكي يتقاسم معهما الزجاجة مثالثة... امرأة تحمل شبكة فارغة لشراء حاجاتها. ورجل بقبعة من القش ومحفظة. وثمة احدى الفتيات... انها تنظر الى ارقام البيوت، تبحث عن بيت تحمل عنوانه. اي نعم، هكذا، بالطبع. فقد كانت تنظر الى ورقة تمسكها بيدها. ثم تجتاز حوالي عشر امتار. ومن جديد ترفع رأسها، وتبحث عن رقم البيت. التبس الامر عليها... انها تتراجع. وتجتاز الطريق الى الجهة المقابلة تماماً للنافذة التي يقف وراءها زافيالوف. أيمكن ان يصيح بها: «اي، يا بنت، اي رقم بيت تريدين؟» وتقف طويلاً وسط الشارع، منتظرة سيلاً لا نهاية له من السيارات. انها صغيرة. عليها ملامح بنت تسعة عشر. نحيفة، كالغصن الطري. فستانها قطني منقّط. وها هي اخيراً تحل فترة توقف السيارات، فتجتاز الشارع ركضاً.

ويشرئب زافيالوف قليلاً من النافذة. هو نفسه لا يعرف لماذا. لمجرد حب الاطلاع ، ومعرفة اي بيت تريد هذه الفتاة.

وتقف تحت نافذته تماماً، فترفع رأسها نحو المصباح المشير للارقام وتسرع فجأة لولوج المدخل. وبتكاسل يفكر زافيالوف: «لعند من يا ترى؟ لعند الخياطة؟ انها في الطابق الاول. لعند طبيب الاسنان؟ هذا في الطابق الثالث. الى شقة اسرة ايغوروف؟ لديهم صبي، شاب، طالب. يدرس الراديو — الكترونيك. مهنة على الموضة في الوقت الحاضر. أليس اليه يا ترى؟..»

في الجانب المقابل من الشارع يسير في بطء رجل وامرأة. يجران صندوقاً كبيراً من الكرتون محزوماً بالحبال. اما راديو، او تلفزيون. شيء ثقيل!..

وثمة صبي صغير يرتدي بنطالاً قصيراً، يركض قافزاً على قدميه، وفي يده قطعة من البوظة.

ويرن الجرس. رنة حادة، قصيرة. ولا يخطر لبال زافيالوف على الفور ان رنة الجرس على بابه. بدا له ان رنة الجرس آتية من الشارع. ويرن الجرس من جديد. فيسرع زافيالوف اذ ذاك الى الباب.

في الوصيد تلك الفتاة النحيلة ذاتها. فيا للمفاجأة! انها مخطئة طبعاً... وتسأل الفتاة:

— الرفيق زافيالوف يسكن هنا؟

فيجيب زافيالوف في ارتباك:

— هنا.

— انت هو؟

وتجتاز العتبة في تردد. فيغلق الباب. الممشى يكاد يكون مظلماً.

وفجأة يروح قلب زافيالوف يخفق بشدة. هو نفسه لا يعرف لماذا. لقد استولى عليه شعور من القلق المبهم. وتتكلم الفتاة:

— امي ارسلتني اليك. كنيتي بروخوروفا.

— نعم، نعم... طبعاً.

هكذا يتمتم زافيالوف في تشوش واضطراب، وقد شعر ان شفتيه قد يبستا.

— طلبت ان اوصل اليك هذه... بسرعة!

وتمد اليه ورقة مطوية، فيتلقفها من يدها.

ظلام. ليس يمكن ان يتبين كلمة. فيهرع الى الغرفة. و يقرأ:

وزارة دفاع الاتحاد السوفييتي

قسم الاوسمة

جواباً على طلبكم رقم ١٦/٠٤٨٥، نفيدكم ان الرقيب الاول اولغا اليكسييفنا ميرونوفا، تقديراً لاشتراكها في المعارك ضد المحتلين الالمان وما ابدته خلال ذلك من بطولة، قد نالت سنة ١٩٤٣ وسام النجمة الحمراء، وفي سنة ١٩٤٤ وسام الحرب الوطنية من المرتبة الثانية. وقد قدم لها هذا الوسام سنة ١٩٥٠ في مكان سكناها، في لينينغراد، حيث كانت تسكن العمارة رقم ١٤، الشقة رقم ٨، بجادة مالوأوختينسكي.

نائب رئيس القسم، المقدم للمصلحة الادارية

التوقيع .

وقد كتبت في الورقة هذه الحاشية: «تهانيّ لك، يا فلاديمير اندرييفيتش!

ك. بروخوروفا».

زافيالوف واقف بلا حراك. يغيم كل شيء ويدور امام ناظريه. ومن بعيد، كما من وراء جدار سميك حاجز للصوت، يسمع صوت الفتاة:

– ماذا اصابك؟ أتشعر بوعكة؟

وبحياء تهزه الفتاة المضطربة الوجلة من كتفه:

– أتشعر بوعكة؟

كلا. لقد زال الآن كل شيء. انه يرى كل شيء بجلاء: الغرفة، والنافذة المفتوحة، والمصباح في الشارع، والورقة التي يمسك بها بين اصابعه المتخدرة، وهذه الفتاة.

ويقول زافيالوف:

– كلا، اني الآن في حالة حسنة. لقد زال كل شيء.

في عينيه دموع. وتحول الفتاة ابصارها. اغلب الظن انها لم يسبق لها قط ان رأت دموعاً في عيون الرجال.

فتقول دون ان تنظر الى زافيالوف:

– هذه الورقة تلقتها ماما في نهاية يوم العمل تماماً. اخذت نسخة عنها وامرتني بان احملها اليك. قالت ان هذا جد هام بالنسبة لك.

ويجيب زافيالوف بصوت بالكاد يسمع:

– هام – ليست هي الكلمة.

– تلفنت لك ماما، ولكن لم يجب احد. فامرتني، اذا كنت غير موجود في البيت، بان اضع هذه الورقة في صندوق البريد، او ادخلها من تحت الباب. ايوه، وانا الآن ذاهبة الى البيت.

ويدرك زافيالوف الآن فقط: «ماما امرت. ماما قالت...» ولكن معنى هذا ان امامه ليزا. ليزا تلك ذاتها!.. فيسأل:

– انت... ليزا؟

– نعم، انا ليزا.

– ولكن... ولكن لديك ما يحزنك. كان طفلك مريضاً. أليس كذلك؟ أحاله احسن الآن؟

– مات.

انها تنظر الى النافذة المفتوحة، الى المصباح. العينان جافتان.

كلا، ليست في التاسعة عشرة. عمرها اكبر. حول عينيها تجاعيد بالكاد تلحظ. اما الشفتان فما تزالان شفتي فتاة صغيرة، ليس عليهما اي اثر للحمرة...

ويصمت زافيالوف. فهو لا يدري ما يقول. كلمات عطف، تعزية، عبارات عامة؟..

وسمع قفل الباب يفتح. انه فكتور. ويهتف، اذ يدخل الغرفة:

– ها انذا! ولكن لديك، على ما يبدو، ضيوف!

وينظر الى ليزا، وهي واقفة وقفة جانبية بالنسبة اليه. ويرى زافيالوف كيف يتغير وجه فكتور فجأة. ينعكس عليه الخوف، ثم تحل محله تكشيرة قرف.

ـ لماذا جئت الى هنا؟

هكذا يسأل بعداوة، بل وبفظاظة. وتلتقي نظراتهما. ويغدو وجه ليزا الشاحب ابيض تماماً. وترتجف شفتاها.

وتقول بصوت لا يكاد يسمع:

ـ انت؟.. انت هنا؟

وعلى الفور تتقلص عيناها الواسعتان. انها تنظر الى فكتور لا نظرة دهشة وحسب، ولا نظرة عداء وحسب، بل ان في عينيها لحقداً.

ولكن هذا لم يدم سوى لحظة. ففي اللحظة التالية تنطلق ليزا من الغرفة بسرعة خاطفة. وتفتل مقبض الباب وتشده، غير ملاحظة في الحال وجوب فتل القفل الانكليزي. ويلحق بها زافيالوف الى الدرج، ويناديها، ولكنها تمضي باقصى السرعة نازلة الدرج. وما يدركها زافيالوف الا في الشارع. فيمشي الى جانبها، وهو ما ينفك يسألها: «ماذا اصابك، يا ليزا؟ ماذا جرى؟ أتعرفين فكتور؟ ولكن، اجيبي!»

ولكنها تظل صامتة، مسرعة الخطوات. يبدو انها توشك ان تركض. وزافيالوف لا يكاد يلحق بها.

ومن حين لآخر يحاول ان يمسك بساعدها، ولكن ليزا تسحب ساعدها، كأنما لمسته تحرقها.

واذ ذاك تخطاها زافيالوف، وسد عليها الطريق.

ـ قفي اخيراً، يا ليزا! قولي ولو كلمة! ماذا جرى؟ كنت على معرفة بفكتور؟ انه قريبي، ولي الحق بان اسأل...

12—871

ـ قريبك؟ ـ قاطعته ليزا وكررت ـ قريبك؟ لو اني كنت اعرف، لما جئت الى بيتك ابداً. اسمع، ابداً! لما كنت اقتربت من بيتك ابداً!

انهما واقفان وسط ممشى البولفار، يلفتان انظار المارة. وبالحاح تطالبه ليزا:

ـ اتركني! لقد تسلمت ورقتك، فدعني الآن وشأني. لا اريد ان اراك مطلقاً. لا اريد ان ارى احداً منكما. اتركني!

وتحاول ان تبتعد عن زافيالوف.

فيقول لها في حزم وصرامة:

ـ كلا، لن اتركك هكذا. يجب ان تقولي لي اي ذنب ارتكبه فكتور. هل اهانك؟ هل الحق بك اذى؟

ـ اني اكرهه!

ـ فعليك بالاحرى ان تحكي لي كل شيء بصراحة.

ـ احكي لك؟ ولماذا؟ لكي توبخه؟ لتلقنه درساً؟ وله... الدرس؟ اتركني.

ـ كلا، لن تذهبي الى اي مكان. سنجلس الآن على هذا المقعد، وستحكين لي باسهاب. فليس يحق لي ان اتركك هكذا. لقد حملت لي الآن خبراً قلب حياتي كلها رأساً على عقب. حملت لي السعادة، أتفهمين؟ ولكنك، بالمقابل، تلقيت ضربة، ضربة اخرى. هذا ظلم. ليس ينبغي ان يكون الامر هكذا، ليس ينبغي! وليس في وسعك انت، ليس يحق لك انت ان تذهبي. فلنجلس!

ويمسك زافيالوف بيد ليزا، ويمضي بها الى المقعد.

وقد بدا ان القوة التي كانت تدفع بليزا الى امام دفعاً لا يكبح له جماح، قد تخلت عنها. راحت تتبع زافيالوف فاقدة الارادة، والقت بنفسها قربه على المقعد.

فقال زافيالوف:

ـ اي نعم، والآن ستحكين لي كل شيء. متى تعرفت بفكتور؟ وليكن مفهوماً لديك اني لا اسأل هذا بدافع من الفضول. اني في حاجة لمعرفة هذا.

ـ ولماذا؟ أترى يمكن تغيير شيء ما؟

فيقول زافيالوف عن اقتناع:

ـ يمكن تغيير كل شيء. اني اعرف اليوم هذا على وجه التأكيد. كنت انا ايضاً اظن ان كل شيء لديّ قد لقى مصرعه، وان الشخص الذي كان عندي اغلى من الحياة، قد مات، لم يعد له وجود. ولكني كنت على يقين من انه حي، وقد ظهر اني على حق.

فراحت ليزا تهز رأسها هزاً خفيفاً. ثم قالت:

ـ انك لم تر قبرها. وما دام المرء لم ير القبر، ففي وسعه ان يعتقد. اما انا... فقد دفنت طفلي منذ اسبوع. انا نفسي.

وخاف زافيالوف ان تنفجر ليزا الآن بالبكاء. ولكنها لم تبك. كانت عيناها ما تزالان جافتين.

فقال لها:

ـ اني لأفهم. ان هذا لمصاب رهيب. لا يعوض، ولكنك ما تزالين فتية...

فقالت ليزا بانفعال كأنما اخافتها كلمته:

ـ كلا! يبدو لي اني عشت الف عام! الف عام خلال نصف عام...

ـ سيزول هذا، يا ليزا. ولكن لا تكتمي حزنك في صدرك. هذا افظع شيء. قد يختنق المرء هكذا. احكي لي كل شيء، يصبح الامر اهون عليك. اني واثق، اكاد اكون واثقاً، باني ساتمكن من مساعدتك.

فسألته بارتباك:

ـ مساعدة؟ كيف؟ قل، ما ترى الآن امامك؟

ـ ما ارى؟

ـ نعم. ما ترى الآن امامك؟ ـ كررت ليزا سؤالها بالحاح.

ـ بأي... بأي معنى؟

ـ انت تعرف باي معنى. وانا اعرف. انك ترى الآن رسالة. تلك التي حملتها. ومن ورائها، من وراء هذه الرسالة، ترى الحياة. ترى طريقاً. وفي آخر الطريق ـ هي، تلك التي تريد ان تجدها. اما انا فلست ارى شيئاً. ليس الا هذه الشجيرات، وهذه الحشائش، وهذه المصابيح. ولا شيء سوى ذلك. انا كالعمياء. و... لم يعد في وسعي الكلام. لا تتبعني. لا ينبغي.

ونهضت، وراحت تسير في الدرب بطيئة الخطوات.

١١ – في الربيع الماضي...

... واليكم ما جرى. كانت ليزا قد تعرفت بفكتور منذ عام ونصف، في الربيع الماضي. كانا يدرسان معاً، سوى ان ليزا كانت ادنى بثلاثة صفوف. كانت تعيش في بيت الطلاب. واما الأم فقد بقيت في موسكو.

تعارفا اثناء حفلة ادبية في المعهد. وكان فكتور يتكلم في المناقشات حول القصائد التي كان يتلوها الشعراء. كان يتكلم بعنف وجرأة: كان يؤكد ان في هذه القصائد جميعاً كثيراً من النفاق، وان ليس فيها روح حقيقية انسانية، وانها مكتوبة مرضاة للمحررين ، وعدا ذلك فان هذه القصائد عموماً غير مستساغة لهؤلاء المحررين، وهي تنشر ايضاً مرضاة لمن هم فوقهم. اما الاشخاص الذين هم فوق المحررين، فهم لا يقرأون هذه القصائد اطلاقاً، غير انه لا يعرف لماذا يعتقدون بوجوب طبع وتشجيع مثل هذه القصائد وحدها، التي لا تعبر عن شيء لروح الانسان. وكانت ليزا تصغي لفكتور، وتقول في نفسها انه على حق، ألف مرة على حق، وان جميع هذه القصائد انما نظمت وقت كانت تنتهك القوانين، وقت كان الناس الابرياء يوضعون في السجون، وغالباً ما كانت الاكاذيب تتداول على انها حقائق.

كان ذلك قبل عام تقريباً من ذلك الاجتماع الكبير الذي عقده الشيوعيون في الكرملين، والذي دخل التاريخ باسم المؤتمر العشرين للحزب. وما كانت قد وضعت بعد جميع النقط على الحروف، ولا كانت قد ظهرت بعد الوثيقة التي بعثت قراءتها الفرحة، والايمان بالمستقبل، والدموع في وقت معاً.

بيد ان النسمات الجديدة كانت قد اخذت تهب في الجو. والناس كانوا قد ادركوا وشعروا بما لم يكن قد كشف عنه كشفاً كاملاً.

وكان بين اصدقاء ليزا من كان اهلهم ضحايا عام ١٩٣٧. وانها لتغتبط الآن معهم لانتصار الحقيقة. واذ استمعت ليزا لفكتور، فقد جزمت انها حيال الانسان الجديد للزمن الجديد – الزمن المطهر من الاكاذيب، ومن المظالم. ولقد كانت فتاة سريعة التأثر.

وحين انتهت المناقشات حول القصائد، اقتربت ليزا من فكتور وقالت انه على حق، وانها جد معجبة بالكلمات التي قالها. ومضيا للنزهة، ولكن لا في جادة نيفسكي ولا في جزر، بل راحا يتمشيان في ازقة نصف معتمة. على انه كان سواء لدى ليزا مكان المسير، شرط ان تستمع الى فكتور.

هكذا كانت البداية. وما مضى شهر الا وادركت ليزا انها قد نالت سعادتها، وان كل ما هو عزيز عليها، وكل حياتها المقبلة، انحصرت في فكتور وحده. وما سألت قط أكان هو يحبها، ولكنها كانت على ثقة من هذا. وفي الحق، اذا كان ثمة شخصان يمضيان معاً كل لحظة من لحظات فراغهما، واذا

لم يكن بينهما ما يكتمان احدهما عن الآخر، واذا كانت، ساعة تستلقي للنوم، تكره الليل لانه يفصلها عنه، وتستيقظ بشعور بهيج بان امامها نهاراً كاملاً وبانهما من جديد يمكن ان يكونا معاً – فلا مجال ثمة لاي سؤال...

وحين قالت ليزا لفكتور ان سيكون لهما طفل، تملكه الخوف. لم يعبر عن خوفه بشيء، ولا بكلمة واحدة، ولكن ليزا فهمته.

يقولون ان المرأة في مثل هذه الحالات تصاب بصدمة، وتشعر بأسى قاتل. وما شعرت ليزا بذلك. وقد بلغ من حبها لفكتور انها اشفقت عليه. فما لبثت ان راحت تؤنب نفسها لكونها قد سببت له ازعاجاً. كان فكتور يكبر عن ليزا بثلاث سنوات، الا انها كانت ترى نفسها اكبر منه كثيراً، وانه ما يزال حدثاً فلا يمكن ان يفهم رأساً، ان يدرك اية سعادة هي – تلك التي حدثت – وانهما الآن قد اصبحا اشد قرباً احدهما من الآخر...

ولكن سرعان ما فهمت ليزا: ان خوف فكتور لا يبارحه، وقد اخذ يتجنبها.

كلا، وما شعرت ليزا اذ ذاك انها قد صدمت وجرحت. كل ما في الامر انها جزمت بانه يزن الوضع من جوانبه، وانه قلق على مصيرها وعلى مستقبل الطفل. كانت تعرف ان ليس لفكتور ابوان، وانه سيكون عليه بعد الانتهاء من المعهد ان يذهب الى اطراف البلاد، وعلى اقل تقدير ان يعيش اول الوقت حياة صعبة مشوشة.

ولقد بدا لليزا كأنما يرهق فكتور الاعتراف بانه لن يستطيع العناية بالطفل وبها كما ينبغي، فيربكه هذا الامر. لهذا فهو يستحي ويتضايق من ان يحدثها عن مصاعبه، ولهذا فقط يتهرب منها...

واذ ذاك تحدثت ليزا مع فكتور بصراحة. عليه ان لا يقلق لشيء: فلديها ام ستعني بالطفل اول الامر، واما حين سينهي فكتور المعهد ويذهب الى العمل، فانها هي ستنتقل الى موسكو وستعيش عند امها. وبعد ذلك ينظم فكتور احواله، ويستقر، فتذهب اليه...

كانت ليزا، وهي تقول كل هذا، تنظر الى عينيه واثقة من انهما الآن ستشرقان، وانه الآن سيقول لها ما كانت شديدة اللهفة لسماعه منه...

ولكن فكتور ظل صامتاً. ثم نطق بكلمات كالحة تافهة. من تلك الكلمات التي يقولها عادة الجبان النذل حين تنبؤه المرأة انها تنتظر طفلاً منه.

كلا، انها حتى في ذهنها لم تنطق بهاتين الكلمتين: «الجبان» و«النذل». وانها لحرّية بان تعض لسانها ولا تنعت فكتور هذا النعت ولو بينها وبين نفسها. كان يقول لها ان «هذه القضية ينبغي التفكير فيها» وان «الطفل غير ضروري»، وانه يحبها هي، وان العلاقات بينهما ستغدو من جديد كما كانت من قبل اذا ما عمدت ليزا الى «تصفية كل شيء». اما هي فكانت تصغي اليه وتفكر: «كلا، كلا، أكيد انه لم يفهمني، أكيد اني لم اتمكن من ان اوضح له كل شيء. كل ما في الامر انه لا

يدرك ما يقول، لا يعي كيف ان كل شيء على ما يرام، كل شيء على احسن ما يرام، فينبغي الانشراح لا النطق بهذه العبارات السخيفة الخارجة عن الموضوع. اني انا، انا المسؤولة عن كوني لا استطيع توضيح الامور له، لا استطيع مساعدته على الفهم...»

ومضت بضعة ايام اخرى، وبات واضحاً لليزا انها كانت على خطأ. لن تسمع ابداً من فكتور تلك الكلمات التي كانت متلهفة كل ذلك التلهف لسماعها. ولكنها حتى في ذلك الحين كانت ما تزال تحبه. الا انه كان حباً من نوع آخر، حباً غريباً، تمازجه الشفقة. اجل، ما كانت ليزا قد تعلمت بعد ان تكرهه. كانت تعلم ان فكتور لا يريد اللقاء بها، يخشى هذه اللقاءات، وكانت تسعى لعدم الالتقاء به. كانت تعلم مسبقاً بمواعيد المحاضرات والمناظرات في الصف، حيث كان يتعلم فكتور، فاذا هي فرغت في الوقت نفسه الذي يفرغ فيه هو، فانها كانت تتعمد التأخر في المعهد لكي لا تلتقي به عند المخرج. وما كانت بعد في حال تدرك معها وتألف فكرة انها يمكن ان تكون سبباً ومصدراً لشر ما يصيب فكتور، يمكن ان تحمل له الأسى.

بلى، كانت ليزا ما تزال تفكر به، بخيره، بسعادته. واذا كان اطمئنان فكتور وحسن حاله يقتضيان منها ان لا تلتقي به، فليكن الامر كذلك. فلن يراها.

واستمرت ليزا على العيش في بيت الطلاب، في غرفة مع فتاتين طالبتين. ومنذ بعض الوقت شعرت ان عودتها الى الغرفة ثقيلة عليها، بل ورهيبة. فقد كانت الفتاتان تعرفان حكايتها، وفي كل مساء، حين يجتمع الشمل في الغرفة، تروحان تسألانها

كيف قضت يومها، وهل تراها رات فكتور، وماذا تعتزم ان تفعل في المستقبل.

وجاء وقت ادركت فيه ليزا انها لم تعد بقادرة على مشاطرتهما أساها، بل ان صمتهما العطوف ليصيبها بجرح لا يقل عن الجرح الذي كانت تسببه لها الاسئلة السابقة التي لا نهاية لها. ولقد كانت تجهد لأن تكون عودتها الى الغرفة متأخرة اكثر ما في المستطاع، حين تكون الفتاتان قد نامتا. فاذا هي دنت الى باب الغرفة، تروح تتسمع وقتاً طويلاً، أليست ترن اصواتهما. وفي الصباح كانت تستعجل الذهاب، قبل ان تستيقظا.

واستدعيت ليزا ذات مرة الى لجنة الكومسومول، وراح امين السر يسألها بقسوة وبلهجة ابوية متعمدة في الوقت نفسه، عما جرى لها، ولماذا ساءت دراستها، ولماذا تتهرب من الرفاق، ولماذا غدت عصبية المزاج وسريعة الغضب الى هذا الحد.

واعطت ليزا اجوبة غامضة، وسارعت بالانصراف، لانها حتى في ذلك الحين ما كانت تستطيع تصور نفسها في دور شخص يتهم فكتور ويسوّد صفحته، ويمكن ان يكون مصدر أذى له.

ثم استدعيت ليزا الى عمادة الكلية، وراح نائب العميد، الذي يبدو بجلاء انه قد تمكن من معرفة ما جرى لليزا، يؤنبها تأنيباً قاسياً، ويوبخها على تقصيرها في الدراسة، ويتحدث عن شرف البنت.

ولقد ردت عليه ليزا بفظاظة وحدة، وانصرفت. وبعد ذلك جرى كل هذا...

حدث ان قضت ليزا الليل خارج الغرفة. وكانت تدرك ان مثل هذا السلوك من جانبها يمكن ان يثير الريبة لدى من لا يعرفونها المعرفة الكافية. ولكن كان ايسر على ليزا ان تتجول طول الليل في شوارع لينينغراد او تقضيه في احدى المحطات، من ان تعود الى الغرفة وتواجه نظرات الصديقات المتلهفة المتعطشة لسماع الاخبار.

قالت مرتين لجارتيها انها قضت الليل عند معارف لها.

ولكن حين لم تعد ليزا الى الغرفة للمرة الثالثة، استدعيت من جديد الى العمادة، وقال لها نائب العميد، دون ان ينظر اليها هذه المرة:

ـ اذا كنت ستسرحين في الليالي، فاننا سنطردك من المعهد.

كان لهذا المحاضر، وكنيته سكيبا، وجه مدوّر وخدان صارخا الحمرة. وما كان فكتور يستطيع احتماله، وطالما سخر، اثناء الحديث مع ليزا، من رتبته كمرشح، ومن لقبه استاذ محاضر. كان يعتبر سكيبا وصولياً، ومستغلاً للعلم؛ والراجح ان عداوة فكتور للاستاذ المحاضر كانت تشاطره اياها ليزا ايضاً.

ولكنها في تلك اللحظة ما كانت تفكر لا بفكتور ولا بموقفه من سكيبا. كانت مرهقة، غاية الارهاق، وفوق ذلك فهي في الشهر السادس من الحمل. وقد صفعتها كلمات هذا الشخص على وجهها.

قالت له ان ينتقي عباراته. واذ ذاك، اجاب سكيبا وهو ينظر اليها للمرة الاولى نظراً مباشراً:

ـ بالنسبة لبعض الاشخاص، لا محل لانتقاء العبارات.

فلطمته على وجهه، وحمّلت هذه اللطمة كل حزنها وأساها، بل وكل العداوة لفكتور التي كانت قد اختمرت ونضجت في اعماق نفسها، الا انها كانت تخشى فقط ان تدرك ذلك.

وفي اليوم التالي، طردت ليزا من المعهد. ولكن الضربة الاشد كانت بعد في الطريق.

لم يأت فكتور، ولا بحث عنها. حتى بعد كل الذي جرى. حتى بعد ان نشر الامر على لوحة الاعلانات.

وفي اليوم التالي، طردت ليزا من الكومسومول. ولم يحضر فكتور الاجتماع. ما كان ذلك اليوم في لينينغراد. ذهب الى ضواحي المدينة، مصادفة او عن عمد.

وبعد الاجتماع ذهبت ليزا الى بيت الطلاب لتجمع امتعتها. كانت تعرف ان في وسعها الذهاب الى لجنة الكومسومول المنطقية، والى لجنة الحزب المنطقية، والى اعلى من ذلك، ولكن كان رهيباً عليها مجرد التفكير في ذلك. فقد يكون عليها اذ ذاك ان تقول لماذا لطمت سكيبا هذا، وان تبرر نفسها، وان تفسر قضيتها كلها بانهيار اعصابها، وبالمرض، والله يعلم باية اسباب اخرى...

ولكن ليزا كان يؤرقها شيء آخر. كانت تفكر بفكتور، ولا تستطيع ان تفهم كيف يمكن ان تجتمع لانسان عينان صافيتان ومحبة للحقيقة عاصفة، ومثل هذه القسوة التي لا تجد لها تفسيراً.

كانت ما تزال تطن في اذنيها اتهاماته المحنقة للناس المنافقين المرائين، اولئك الذين كانوا يتشدقون بالعبارات

الكاذبة عن الكرامة الانسانية، وفي الوقت نفسه يمرغون الانسان بالاقذار. وراحت ليزا تحدث نفسها: طيب، عال، اولئك الذين كانوا يتشدقون بهذه العبارات، ويعملون ضدها في الواقع، كانوا منافقين. ولكن فكتور ليس منافقاً، وما كان يقوله كان حقيقة، حقيقة حقة! واذن، فالحقيقة الحقة ايضاً يمكن ان تأتلف مع الظلم، مع القسوة؟ ولكن كيف تمكن الحياة والحالة هذه؟ وعلى اي شيء تعلق الآمال؟ وبِمَ يؤمن الانسان؟

لم تخرج ليزا الى اي مكان. جمعت امتعتها، واشترت بطاقة سفر بالقطار، وسافرت الى موسكو.

اقامت عند امها. وبعد شهر ونصف ولدت طفلاً. وعاش خمسة اسابيع...

١٢ – امسية اسئلة واجوبة

ويصعد زافيالوف الى الطابق الرابع راكضاً. ويتناول المفتاح ويضعه في ثقب القفل، ويديره – وقد شغل ذلك نصف دقيقة. ويخبط الباب من خلفه خبطة تصمّ الآذان وتوقظ الميت بصوتها.

ويسمع لحن جاز ناعم.

واذ يدخل زافيالوف يرى فكتور مسترخياً في اطمئنان على المقعد الاثير لديه، قرب الراديو. فيحرك الفتى زر الراديو، وينقطع اللحن. وتنطفئ العين الخضراء. ويهب فكتور للقاء زافيالوف.

– فلاديمير اندرييفيتش، ها انت اخيراً! لقد قرأت هذه الرسالة! اهنئك!

اجل، الرسالة... هي ذي على الطاولة. طيّاتها لم تنملس بعد. زوايا الورق السميك منتفشة. وليتصور فقط كيف كان في وسعه نسيان هذه الرسالة ولو دقيقة! ينبغي ان يعد امتعته باقصى السرعة. متى يسافر القطار «السهم» الى لينينغراد؟..

ومع ذلك فانه مضطر، قبل ان يهرع الى المحطة، للاستماع الى فكتور.

فلا يجيب زافيالوف على تهنئته، بل يسأله:

ـ كنت تعرف هذه الفتاة؟

فيسأل فكتور باطمئنان:

ـ ليزا؟ اجل، كنت اعرفها. عفواً، فلاديمير اندرييفيتش. اني جد متزعج لكونها قد كشفت عن عنواننا. منذ اسبوع كان ينبغي ان اقابلها في المدينة. ولكنها لم تأت. هل كانت توجه اليّ الكثير من الشتائم؟

ـ لم يكن يشتمك احد. كانت في حالة...

فسارع فكتور للموافقة:

ـ نعم، نعم، انها على العموم تتلقى الامور بكثير من العصبية.

ويقاطع زافيالوف فكتور قائلاً:

ـ اسمع، اني، على ما يبدو، قد سألتك سؤالاً واضحاً...

فيرفع فكتور كتفيه ويقول:

ـ ولكني قد اجبتك، يا فلاديمير اندرييفيتش. نعم، كنت اعرف ليزا. بل كنا نمارس الحب...

ـ تمارسان الحب؟ ولكن كيف امكن ان يحدث ذلك؟ واين تعارفتما؟

ـ كنا ندرس معاً. في معهد واحد... انك، طبعاً، يافلاديمير اندرييفيتش، مسافر الى لينينغراد اليوم؟ لعلي اذهب بسرعة الى المحطة لاشتري لك بطاقة؟ او، اذا شئت، سابرق الى فتيان من معارفي ليبحثوا عن العنوان. كما هو مشار اليه في هذه الرسالة.

ويتناول الورقة من على الطاولة.

ـ انتظر. ضع الرسالة على الطاولة. ايوه. ولا تمسها. تقول انكما كنتما تمارسان الحب. فكيف يفهم هذا؟ انت... كنت انت على علاقة بها؟

ـ نعم. بل لقد بدا لي ذات حين اني كنت احبها. ولكن هذا مضى وانقضى. انها الآن، كما هو واضح، تكرهني، اما انا... انا لا انطوي على اي شعور نحوها اللهم الا الرثاء، على الارجح... فها انا قد رأيتها و... كأنما هي غريبة. لقد لحقت انت بها، واما انا فقد كنت واقفاً هنا فنظرت الى هذه الرسالة، وفي الحق، اني لاحسدك حسداً شديداً. ذلك لأني لم التق بشخص استطيع ان احبه مثل حبك.

ويقاطع زافيالوف فكتور، شاعراً ان اسوأ شبهاته تتحقق، الا انه ما يزال يأمل بان لا يكون الامر كذلك:

ـ كفى كلاماً عني! ارجو ان تحكي لي كل شيء عن علاقاتك مع ليزا. أتسمع؟ كل شيء!

ويبسط فكتور ساعديه قليلاً... ويقول:

ـ طيب، يا فلاديمير اندرييفيتش. اية اسرار يمكن ان تكون لديّ مكتومة عنك؟ اني اتصور ماذا كان في وسعها ان تفتري عليّ في مثل هذا الوضع!

ـ اكرر لك القول انها لم تقل لي شيئاً. اريد ان اسمع كل شيء منك. هل فهمتني اخيراً؟

فينطق فكتور بلهجة حالمة:

ـ ولكن، اي نعم... اذا كان الامر ضرورياً الى هذا الحد. ايوه، تعارفنا في المعهد. كانت حفلة ادبية. شعراء

موسكوفيون كانوا يلقون قصائد. وشعراؤنا الليننغراديون ايضاً. ثم بدأت المناقشة. وتكلمت انا ايضاً، وبعد ان انتهى كل شيء، دنت مني وقالت انها جد معجبة بكلمتي، وان كلماتي كانت تمس قلبها ... بالاختصار، قالت شيئاً من هذا القبيل. لا اتذكر بالضبط.

كان زافيالوف لا ينقطع عن النظر اليه. كلا، انه لن يدع فكتور يبرح الغرفة قبل ان يعرف كل شيء، حتى التفاصيل الدقيقة. لكأنه يرى فكتور للمرة الاولى، وانه ليسائل نفسه: اي انسان هذا الفتى؟ ولا يستطيع الاجابة. ولكن لا بد له ان يجد الجواب!

— ولكن ماذا قلت في تلك الحفلة؟ — يسأل زافيالوف.

— ايوه... اني لا استطيع الآن ان اتذكر بالضبط. القصائد لم تعجبني. كانت قد نظمت في ذلك العهد الذي جرت فيه كل تلك التجاوزات على القوانين. قصائد عهد العبادة.

— مفهوم — قال زافيالوف — يعني ان ليزا استطابت روح كلمتك الجريئة. اكمل.

— ايوه، وقد ظللنا نتنزه حتى ساعة متأخرة من الليل. كنا نتمشى في المدينة. وغدونا نتلاقى. وهكذا جرى الامر. ثم قالت لي انه، على ما يبدو، سيكون طفل.

— وانت؟

— يا فلاديمير اندرييفيتش، فكر: بماذا كان عليّ ان اجيبها؟ قبيل ذلك الحين كنت قد ادركت ان هذا ليس حباً. كنت استطيب ليزا، ولكن هذا لم يكن حباً حقيقياً. اما حين كنت تحدثني عن شعورك نحو تلك الفتاة...

— خل شعوري وتلك الفتاة بسلام!

هكذا قاطعه زافيالوف، كابحاً ما كان يثور في نفسه من حنق. ثم اردف يقول:

— اني اسأل: ماذا قلت لليزا حين علمت ان ثمة طفلاً سيولد؟

— لم اقل شيئاً! على كل حال، لم اقل شيئاً حاسماً. على اننا بعد ذلك اصبحنا نادراً ما نلتقي...

— مفهوم. ام سعيدة تبلغ الاب انها تنتظر مولوداً. والاب لا يقول «شيئاً حاسماً». غير انهما بعد ذلك، وبعجيب ألاعيب المصادفات، «اصبحا نادراً ما يلتقيان». وبعد ذلك؟

— ما هذا الاستجواب، يا فلاديمير اندرييفيتش؟

— كلا، وما الداعي! كل ما في الامر ان لدينا امسية اسئلة واجوبة. ويبدو لي اني صاحب حق في ان اعرف السبب في ان امرأة ترى قريبي فتفر منه فرارها من الطاعون.

— ولكني قد اوضحت لك ان القضية كلها في طباعها، في شدة حساسيتها الطفولية! — قال فكتور بانفعال، وبدا لزافيالوف في الحال ان هذا الفتى لا يفهم في الواقع ما يراد منه — وماذا كان ينبغي عليّ، في رأيك، ان افعل؟ ان اتزوج فتاة لا احبها؟

— مهلاً عن الكلام في الحب. انما انا اسأل: ماذا جرى بعد ذلك؟

— معي؟ لا شيء. كنت على ثقة من انها ستفهم كل شيء، ولن يكون طفل. ونحن، بعد ذلك، قد كففنا تقريباً عن التلاقي. وقد حدثوني ان ليزا اصبحت سيئة الدراسة، ومهملة للدروس...

ـ وهل تحدثت معها، وحاولت المساعدة؟

ـ ولكن اية مساعدة كان في وسعي ان اقدم؟ كانت المساعدة الوحيدة التي من شأنها ان تؤاتي ليزا هي زواجنا وموافقتي على ان يكون لنا ولد. واما انا...

ـ واما انت، فلا تريد هذا، طبعاً.

فقال فكتور بحدة غير متوقعة:

ـ خل عنك السخرية، يا فلاديمير اندرييفيتش. انا افهم: لقد ساعدتني وقت الدراسة، وانا الآن اعيش عندك، وبالتالي فانا ملزم بالاجابة على اسئلتك. ولكن لا تحاول، من فضلك، ان تجعل مني شاذاً عن الطبيعة. ليس في الامر ما هو خارق للعادة. انك الآن تتفحصني تفحص ذبابة تحت المجهر. ولكننا نرى الذبابة ألف مرة ولا ندهش: الذبابة كذبابة. اما اذا نظر الى الذبابة تحت المجهر، فان رأسها يبدو كرأس النمر، واما ارجلها فكبيرة جداً ولها شعر... فقل اخيراً، بكلمتين، ماذا تريد مني؟

ـ اريد ان اعرف، هل ترى تعترف انت بالقواعد الخلقية البدائية...

ـ ها ـ ها! القواعد الخلقية! كنت انتظر فقط متى ستنطق بهذه الكلمات الفخمة. القواعد الخلقية. لا بأس، هلم نحلل هذا المفهوم الرفيع. شخصان كانا وقتاً ما على اتصال احدهما بالآخر. بل كانا يمارسان الحب. ومع الأسف، يتولد عن هذا اطفال. ولنقل بالضبط: احياناً «مع الأسف». وعليه، وباسم قواعدك الخلقية المزعومة، يلزم هذان الشخصان، وقد باتا على غير اكتراث احدهما بالآخر، او كما يحدث هذا في الاغلب، اذ اصبح

احدهما على غير اكتراث بالآخر، ـ يلزمان على ان يعيشا معاً. فيرتبطان باغلال من صنع قواعدك الاخلاقية هذه.

ـ باغلال؟!

ـ نعم، نعم، هكذا بالضبط! ذلك ان الانسان، هو كان ام هي، لن يكون في وسعه ابداً، ولن يكون من حقه، باسم هذه القواعد، ان يحب شخصاً آخر! وكيف يكون ذلك ما دام هذا بموجب هذه «القواعد» يسمى «عملاً لااخلاقياً» او، بالاحرى، «سلوكاً خاطئاً في المعاشرة»... أما تراك سمعت كيف تقرقع هذه الكلمات الحديدية المربوطة بالاغلال؟ قرأت، طبعاً، «الجثة الحية»*؟ ألم يخطر في بالك ان هذا حقاً ينطبق على زماننا ايضاً؟

فقاطعه زافيالوف قائلاً:

ـ انت... انت هل تفهم ما تقول؟

ـ اجل، افهم جداً! ـ صاح فكتور ـ فكر فقط: حين يعاب عندنا على الانسان كونه لم يعد ينطوي على اي شعور نحو زوجته، او ـ لنقل ـ خطيبته، فالاهتمام انما ينصرف قبل كل شيء الى آلامها «هي». ولكن ما من احد يريد تصور تلك الشهور والسنوات الرهيبة التي سيلزم بان يقضيها الناس معاً مكبلين بقوة «القواعد الاخلاقية»! وهل تعلم لماذا يجري هذا؟ نتيجة لانكار حق الانسان في الحرية الداخلية. انا اعرف، اعرف انك الآن ستنقض عليّ، وستقول اني انادي بحرية الفوضوي والانسان ذي الآفاق الضيقة، والقرد في الهاون! ستقول ان الامر سيؤدي هكذا الى حرية الحرق، والقتل، والله يعلم ماذا! ولكن هذا كلام

* تمثيلية لليون تولستوي. ـ الناشر.

طنان، هذا لعب بالالفاظ، لا اكثر. ان حريتي الداخلية لا تهدد المجتمع، وانا...

– والانسان الذي نبذته؟ والذي بصقت على روحه؟ والطفل؟

فاجاب فكتور بدون ابطاء:

– وهل ترى ما من احد يتألم، بموجب قواعدك الخلقية؟ ولكننا نغمض العين عن هذا لان الامر يتعلق، كما يقال، بالألم المعترف به رسمياً. ان انفعالات صاحبة ملكية راغبة في ان تكبل رجلاً بسريرها على اساس لا اساس سواه، هو انهما قد ذهبا، لبضع سنوات خلت، الى دائرة سجل الزواج، تثير سيل الحنان. واما المراؤون والمنافقون فانهم في الحال يستخلصون على الضوء الالهي قيد «القواعد الاخلاقية» الصدئة، ويرفعونه بمهابة على السواعد الممدودة. ويكون قد نفخ في الكور، والحداد واقف باستعداد، حاملاً المطرقة...

كان فكتور يتكلم، ويتكلم، بدون توقف تقريباً، وساعداه مرتفعان الى مستوى وجهه، وفيما هو يقوم بحركاته، كان تارة يقبض اصابعه، وتارة يرخيها.

وفي احدى اللحظات، خطر لذهن زافيالوف ان فكتور اشبه بالمشعوذ يطلق من فمه مناديل ملونة لا نهاية لها، ويمسها باصابعه فقط من حين لآخر.

وسأل زافيالوف نفسه: «ولماذا استمع اليه؟ وماذا كان الداعي للبدء بكل هذا الحديث، والسماح لهذا الحقير بالتهرب، وتجميع انفاسه، وحشد قواه؟ لماذا لم ابادر لصفعه منذ البداية، لماذا لم انفض عن هذا الجسد الهزيل اجوبة واضحة صريحة؟»

وسأل زافيالوف:

– والحب؟

فصمت فكتور، كأنما اصطدم بحاجز غير منظور. فسأل:

– ماذا... الحب؟ – وقد اربكه ان توجه اليه اسئلة لا صلة لها بالموضوع.

– ما رأيك، أكانت تحبك ليزا؟

– الظاهر، نعم. ولكن، ماذا يعني هذا؟ وانا ايضا كنت احبها!

نطق بهذا كأنما هو يتلقى تهمة لا اساس لها بالتخلف عن دفع دين مالي.

فقال له زافيالوف:

– الظاهر، انك تعتقد ان من حقك تقرير كل شيء بنفسك، اما الآخرون فما عليهم الا ان يتكيفوا مع قراراتك. هكذا؟ واية اهمية لمحبتها هي لي ام عدم محبتها، ما دمت انا قد كففت عن حبها؟ هكذا؟

فبدأ فكتور يقول متهيجاً:

– اذا كنت تريد ان تحول كل شيء الى الميدان العاطفي لا غير...

– ولكن الحب هذا هو حقاً «ميدان عاطفي»، يا فكتور، أليس صحيحاً؟ الحب فرح، ودموع، وعذاب، كل شيء، كل شيء! «ميدان عاطفي» – باللتعبير الرائع! كنز حقيقي لجميع الذين تدمرهم. وبودي ان اسألك ما الذي ليس ميداناً عاطفياً؟ الانسان، في اي ميدان هو، يا ترى؟ أليست حياته كلها مكونة من الفرح،

والحزن، والاندفاعات، والحماسة، والخيبة؟ فيا لأنت، ايها الانساني العظيم! حب ليزا، بالنسبة لك، مجرد «ميدان عاطفي»، اما انا فارى دموعها الحقيقية، عذابها! وتريد ان تقنعني بانك تعيش «حسب الوجدان». وهل انت انسان حقاً؟ انك مجرد آلة سيبيرنيتيكية مقيدة ببرنامج معبأة بتعابير على الموضة، هذا انت! آلة مقيدة ببرنامج!

فقال فكتور مبتسماً ابتسامة تسامح:

ـ انا فاهم انك الآن تصغي اليّ في تخوف، والواحدة من شبهاتك تعقبها الاخرى، تخشى ان يكون لدي حقاً برنامج سياسي انت ملزم بشجبه والكشف عنه. فكن مطمئناً. اكرر القول: لست اريد غير شيء واحد ـ ان اترك في راحة بال.

ـ وعلى مَ تقوم «راحة بالك» هذه؟

ـ إ ـ إ... على الشعور بالحرية الداخلية، اذا شئت ان تعرف. اريد ان افعل ما اريد. وان لا يزعجني احد.

ـ طريف ان يعرف المرء ماذا يريده فرد مثلك؟

ـ لا شيء بوجه خاص. بدهي، اني سافعل ما ينبغي. سابني طرقات، بقدر ما علموني. ولكني لا اريد ان يخرجوني من حال حريتي الداخلية. لا اريد معرفة اي شيء «مسبقاً». فالمعرفة «المسبقة» ربط للنفس. وانا لا اريد ان اكون مربوطاً لا باغلال صدئة، ولا بشرائط وردية. اجل، لقد خفت ذات يوم خوفاً رهيباً على حريتي الداخلية، وبدا خطر يهددني بان اصير دابة مكدونة. ولقد ادركت ان عليّ ان اقطع علاقتي بليزا.

ـ والطفل؟

فسأل فكتور في دهشة:

ـ الطفل؟ ولكن هل ولد حقاً مع ذلك؟

ـ نذل! وتسأل ايضاً؟

ـ ولكن... ولكن، بالشرف، ما كنت اعرف هذا!

هكذا صاح فكتور، وانعكست في صوته فجأة رنة قلق. واردف قائلاً:

ـ سافرت ليزا من لينينغراد منذ ثلاثة شهور. حدثت لها هناك حكاية كريهة، تشاجرت مع نائب العميد... فاضطرت للسفر! هكذا، اذن، الطفل ولد؟..

فقال زافيالوف في تأن:

ـ انك، يا فكتور، من صنف الناس الخطرين، انك أهل لأن تقتل انساناً.

ـ فلاديمير اندريفيتش!..

ـ اسكت!

اتضح لزافيالوف كل شيء. لقد وجد مفتاح هذا الفتى. ذلك المفتاح الذي كان يبحث عنه في عناء، وما كان في وسعه ان يجده في ذلك الحوار الاول.

كان هو نفسه اذ ذاك غير متسلح بالسلاح الحسن. الاساءة القديمة كانت ما تزال تنقض ظهره. ولقد ود الاعتقاد بان فكتور انما يوجه هجماته كلها الى اولئك الناس الذين ربطوه هو ايضاً، زافيالوف، الى الارض. وكانت خطب فكتور الانتقادية تدعم زافيالوف نفسه، على نحو غير مباشر، وتلقى

في نفسه الارتياح، فكأنما هي تؤكد شرعية مسلكه، وسلبيته، وحقه في ان يعيش خافت النور.

وقال زافيالوف:

ـ اسكت واصغ اليّ. لقد تحدثت كثيراً عن الاوقات العصيبة التي عانيناها نحن. فعندي المزيد من دواعي الكراهية لما كنا جميعاً شهوداً عليه. ذلك لأني ما كنت شاهداً وحسب انا نفسي عانيت كل هذا. اياماً كثيرة بلياليها كنت فيها، والجراح تملأ جسدي، والجوع يفتك في احشائي، ازحف عبر المستنقعات والاغوار، شاقاً طريقي الى جماعتي. ثمة اسماك من هذا النوع: حيثما وجدت، فهي تسعى وقت التناسل للعودة الى المكان الذي ولدت فيه. ان هذه الاسماك تجتاز مئات الكيلومترات في المياه العميقة وغير العميقة، عبر المجاري السريعة والشلالات؛ المجرى السريع يزعجها، فتنتزع حراشفها، وتصاب بجراح. ولكن السمكة ما دامت حية فهي تسعى الى غايتها. ولقد كنت مثل هذه السمكة. زحفت الى جماعتي وزحفت حتى النهاية. ولكني كوفئت بحرماني مما كان اعز شيء لدي. واولئك الناس الذين منعوني من الصعود الى السماء، كانوا هم ايضاً يتشدقون عن العدالة. ولكنهم كانوا يعملون على المكشوف ضدها. وكان سلاحهم نظرية تؤكد مبدأ سخيفاً يقول: كلما مضينا قدماً الى الشيوعية، كلما اشتدت ـ حسب هذه النظرية ـ مقاومة الاعداء داخل بلادنا. وبودي الآن ان اسألك، ايها الشاب، ابن الاربعة والعشرين: أمن اللائق التذرع بالوجدان وبالعدالة لمجرد ان تلقي بظلهما على قسوتك الخاصة؟

فصاح فكتور فجأة بصوت رفيع:

ـ ولكن، يا فلاديمير اندرييفيتش! ولكني ما كنت اعرف...

ـ اسكت. انت بالذات قلت لي في المرة السابقة: لا عقيدة جامدة، بل وضع وقرار. ولقد سألتك اذ ذاك: واين البوصلة؟ فاجبتني: الوجدان. ايوه، واذا كان هذا الوجدان سافلاً ملطخاً بالقذر؟ واذا كان هذا الوجدان وجداناً ـ آلياً، مطواعاً، انضباطياً، راضياً على الدوام بالقرار الذي يؤاتيك؟ انا ايضاً ضد المرائين الذين يحلون رباط العلاقات البشرية المعقدة بدون اي تفكير. ولكن اية عقد كانت واقفة امامك؟ من الذي كان يحمل اليك، من الذي كان يعدّ لك اغلالاً صدئة؟ من تريد ان تخدع؟ لقد كان كل شيء بسيطاً جد بسيط. كانت تحبك فتاة، طيبة، شريفة، مخلصة. كانت تستطيب احاديثك عن الضمير، وعن حرية الانسان الداخلية. ولقد اصبحت في نظرها تجسد كل الخير الذي انفتح الآن امامنا، كل ما له صلة بمستقبلنا. وباتت تنتظر طفلاً. فاذا بك يتملكك الرعب. وان هذا ليحدث. فالجبناء، في اغلب الظن، سيكونون موجودين حتى في ظل الشيوعية! ما كنت افهم للوهلة الاولى ماذا كنت تخاف. وانا الآن اعرف: انك تسمي هذا فقداناً للشعور بالحرية الداخلية. على انه يكون اقرب الى الفهم اذا انا سميت هذا خوفاً من المسؤولية. ولسوف تسأل: اية مسؤولية، وعن اي شيء؟ قبل كل شيء عن مصير اناس آخرين. وفي الحالة المعينة عن مصير ليزا والطفل. انت تعارض تدخل «المنافقين» والمسؤولين الحزبيين

تدخلاً مستهتراً في حياة الانسان الخاصة؟ انت ضد البيروقراطية؟ وانا ايضاً اعارض في ذلك. انا معك حين تناضل ضد الجمود العقائدي، ضد النفاق والرياء. ولكن في سبيل ماذا انت تهاجمها؟ لعلك تؤيد العناية والاهتمام؟ لعلك تؤيد تفهم النفس البشرية؟ تكذب ، انما تنادي انت بالحرية التي لا وازع لها ولا رقيب عليها، حرية ارتكاب النذالات والسفالات، تلك هي القضية! ولهذا فانا ضدك! انت تدافع عن مفاهيمك للضمير والعدالة. وقيمتها وواقعيتها، بالنسبة للاكثرية، انما يحددهما ما اذا كانت القرارات التي توحي بها تنسجم ومصلحة الناس. واما بالنسبة لك فان هذه المفاهيم موجودة على نحو مستقل، بذاتها لذاتها. وليس لأحد الحق في ان يكون رقيباً على ممارستك لها في الحياة. لا احد، الا انت نفسك. هكذا تعتقد. ولكنك انت نفسك، على ما هو جلي، لست بالرقيب الصارم. لقد عقدت صفقة سرية مدى الحياة مع الوجدان والعدالة. انك تحملهما، شكلياً، كسلاح، وتطنب بهما في كل مجال، اما في الواقع...

— هذا غير صحيح!

— صحيح! وبالمناسبة، ألم يكن يخطر في ذهنك ان خير وسيلة لاختبار الوجدان انما هي خير الناس؟ ولكن اسمع بعد. فتاتك تهجرك. لا تريد الارتباط بك. ولكن قد تكون ما تزال تثق بك. وهذا يسمى بالحب، ولكن في وسعك ان تسمي هذا في جرأة وجداناً. ولن تكون مخطئاً. وهكذا تدير ظهرك لليزا، ولا تعود تكترث بها...

ومن جديد صاح فكتور:

— كلا، كلا، كل ما في الامر اني حاولت اقناعها باننا الآن غير قادرين على ان يكون لدينا طفل، وانى لم اصبح بعد في وضع...

— تكذب! انا موقن بانك لم تقل لها شيئاً من هذا القبيل. واغلب الظن انك انما ألمحت مجرد الماح الى ان كل شيء سيجري كما في السابق، اذا هي تخلصت من الطفل. اما الباقي فقد اخترعته الآن. لقد كنت جباناً. ليزا تتألم. واما انت فصامت. وشعورك الرائع، المنزه، الذي يأبى التساهل والحلول الوسط، شعورك بالعدالة، كان صامتاً، حين كان قلب ليزا يقطر دماً.

ودنا زافيالوف من فكتور وجهاً لوجه، وقال له:

— انك قاتل، ايها الفتى! قاتل بدائي، نذل، رخيص!

فتمتم فكتور، متراجعاً خطوة الى وراء:

— كلا، كلا، لا تستطيع ان تتكلم هكذا! انا لست مسؤولاً عن كون ليزا قد احتفظت بالولد. فقد كانت تعرف اننا لن نكون معاً ابداً. ولكني ساساعد الطفل — هذا امر بدهي.

فقال زافيالوف بصوت خافت:

— لن يمس حريتك احد، يا فكتور. ولن تبيع استقلالك. فالطفل لم يعد في الوجود. ابنك مات.

— مات؟!

وامتقع وجه فكتور، وعلى جبينه ظهرت قطرات من العرق.

— هذا لا يمكن.

— هذا جرى، يا فكتور.

ومضى زافيالوف بعيداً في الغرفة. لم يعد يستطيع النظر اليه.

وقال زافيالوف:

ـ حين كنت قادماً الى هنا كنت افكر: اذا كنت انت المذنب فعلاً في كل ما عانته ليزا، فاني ساطردك طرداً. ساصفعك على وجهك، وادفعك الى السلّم. وجدير بي ان افعل هذا الآن. ولكني لن امسّك. اني اقرف من هذا. اخشى ان تعلق كفي بوجدانك اللزج الطري. واليك هذا ايضاً. لقد كنت مصمماً على السفر اليوم، ولكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة. لقد تأخرت عن القطار، وانا استمع اليك. هذا ما لست تفهمه، ولكني ما كنت استطيع السفر دون ان اعرف حتى النهاية ماذا جرى لليزا. لا بأس، ساسافر غداً. واما الآن فاني خارج لنصف ساعة. ولكنك، حين ساعود، لن تكون في هذا البيت. لقد انهيت المعهد، وما عدت في حاجة لمساعدتي. هذا كل شيء.

وخرج زافيالوف من الغرفة، دون ان يلقي نظرة على فكتور.

١٢ ـ بافليك يريد ان يطير

ـ كلافديا ميخائيلوفنا، هذا انت؟ زافيالوف يتكلم. اريد ان اشكرك. ساسافر مساء اليوم الى لينينغراد.

ـ ايوه، اتمنى لك سفراً سعيداً، ـ تجيب بروخوروفا. ـ اني لست جد مرتاحة لجريان الامور على هذا النحو السيىء. فقد وصلت الرسالة من قسم الاوسمة متأخرة، وقد حاولت ان اتلفن لك، ولكن لم يجب احد.

ومن صوت بروخوروفا يحاول زافيالوف ان يخمن: هل ترى حكت لها ليزا عما جرى مساء امس؟

ليس يمكن التحديد. فان بروخوروفا تتكلم بلهجتها المألوفة الرتيبة الجافة.

ويكرر زافيالوف من جديد:

ـ شكراً. بودي مرة اخرى ان اشكر ليزا. ألا يمكن الاتصال بها هاتفياً؟

ـ انت تعلم ان ليس لدينا هاتف. ولكني سابلغها. مرة اخرى، اتمنى لك النجاح.

انها ستضع السماعة الآن. فليس لديها وقت. لديها زوار.

ـ مهلاً دقيقة واحدة! ألا يزعجك ان تبلغي ليزا اني في حاجة قصوى للتحدث معها؟

– مع ليزا؟

هكذا سألت بروخوروفا، وفي صوتها دهشة بارزة.

كلا، من المؤكد ان ليزا لم تحك لها شيئاً. وقد كان طلب زافيالوف غير متوقع، على الاقل، بالنسبة لبروخوروفا شيئاً غير معقول فعلاً: فاي شأن يمكن ان يكون له مع ليزا؟

ويرتجل زافيالوف حجة، فيقول:

– المسألة، ان ليزا من لينينغراد. هي قالت لي امس ولست اعرف المدينة جيداً...

كلا، ترهات.

– ارجو ان تقولي لها ان سأكون في البيت مساء. ساسافر بالقطار «السهم»... ارجو ان تتلفن لي...

صمت.

وسمع صوت بروخوروفا المضطرب يقول:

– طيب، سابلغها.

فيقول زافيالوف وهو يتنفس الصعداء:

– ايوه، عال. لك الشكر مرة اخرى! والى اللقاء.

ويضع السماعة. ويفكر: هل ستتلفن ليزا ام لا؟ على الاغلب، لا. سترفع كتفيها حين ستحكي امها عن حديثه بالهاتف. ولسوف تسأل: من الذي تلفن؟ زافيالوف؟ ومع ذلك فلا بد ان تفهم: اذا كان قد تلفن فمعنى ذلك ان ثمة داعياً جدياً. يعني ان لهذا صلة بفكتور، بما جرى يوم امس. ايوه، وماذا؟ لقد قالت لزافيالوف بجلاء انها لا تريد الحديث عن هذا.

لن تتلفن. ولكن لا بد له من الحديث معها!

لماذا؟ ينبغي مؤاساتها. مؤاساة؟ يا للكلمة السخيفة. ما معنى مؤاساة؟ القول: «هدئي من روعك»، «كل شيء سيزول»، «الزمن خير طبيب»، «ما تزالين صبية»، «امامك كل شيء»؟..

كلا، كلا، ليس هكذا. فكيف اذن؟ انه لا يدري. كل ما في الامر انه يشعر بوجوب التغلب على يأسها، بوجوب حملها على الثقة بما يقاوم اليأس، ويفتح العيون، ويساعد ليس فقط على رؤية الشجيرات المغبّرة والعشب الذابل في المدينة، ونور المصابيح الاصطناعي الشاحب، بل كذلك على رؤية الدرب المؤدي الى بعيد.

ينبغي له ان يحملها على الثقة بان الحقيقة والعدالة ليستا بكلمتين فارغتين، ليستا طعماً للصيد، كما هي الحال عند فكتور.

حين عاد زافيالوف الى البيت لم يكن فكتور هناك. فقد ذهب واخذ معه حقيبته العتيقة. كان ينبغي طرده، وكان مستحقاً لذلك.

انه منافق بدائي، مرتكب للنذالات، مغطياً اياها على حذر بالكلمات الرفيعة. هكذا؟ كلا، الامر اشد تعقيداً. أكيد ان فكتور نذل، ولا مجال هنا للتفلسف. ولكن المصيبة كلها هي في انه، كما يبدو، ينطق مؤمناً بالكليمات الاثيرة لديه عن الوجدان، والحرية والعدالة، هذا الطفل ابن امس، غير مدرك ان التناقض بين القول والعمل لا يمكن الا ان يؤدي الى النذالة.

وكيف سبيل الايضاح، كيف سبيل البرهنة لليزا على ان الوجدان والعدالة موجودان فعلاً؟ ان الصبي، رعديد النفس، قد ربطها اليه اولاً بتطلعاته الى الحقيقة، ولكنه بعد ذلك شل حياتها.

فكيف السبيل لاقناع ليزا ان هذا ليس بالامر الحتم، ليس بالامر الذي لا مخرج منه، ولكنه مجرد مصادفة. مريرة، وفاجعة، ولكنها مصادفة فقط...

أتراها ستتلفن ام لا؟

بقيت ثمان ساعات لوقت السفر. بعد ساعتين ستنهي بروخوروفا يوم العمل. بعد ساعتين ونصف الساعة ستكون في البيت. فاذا كانت ليزا ستأتي او ستتلفن، فلن يكون ذلك قبل ثلاث ــ اربع ساعات. في الوقت متسع للتحادث.

غداً، صباحاً، سيرى اوليا.

ولقد قرر زافيالوف ان لا يبرق الى العنوان المشار اليه في الرسالة. مكتوب هناك: «... في عام ١٩٥٠...» مضت على ذلك ست سنوات. فقد تكون انتقلت الى شقة اخرى. واذ ذاك يجيبه كوسيتشكين آخر بان «المواطنة ميرونوفا لا تسكن في العنوان المشار اليه...» غداً سيستوضح بنفسه كل شيء. تحت تصرفه يومان: السبت والاحد. رئيس نادي الطيران سمح له بالتغيب.

الساعة السابعة مساء. ليزا لا تتلفن. الثامنة... التاسعة... كان ينبغي ان يحدث مثل هذا الامر. يمكن، بالتأكيد، الذهاب الى بيتها. شارع كراسين... ولكن لا ينبغي التدخل عنوة في نفس الانسان. حتى ولو كانت لديك افضل الدوافع.

الجرس يرن!

ويفتح زافيالوف الباب على عجل...

يا لله، هذا بافليك! بافليك شيفلياغين، هو بالذات الذي يزحمه برسائله ويلاحقه في المطار.

يقف في الباب، غير عازم على الدخول، ويتمتم بارتباك:

ــ اريد...

فيقول زافيالوف في حدّة:

ــ ليس لديّ وقت، يا بافليك. اني مسافر الآن. ستتحدث بعد العودة.

ويهم بان يخبط الباب. ولكن سبق السيف العذل. فان بافليك يطحم الباب، دون ان يصمم على الدخول، ويقف في الوصيد، فلم يعد في الامكان اغلاق الباب.

ــ دقيقة واحدة! اقول واذهب!

لا جدوى من الجدل، ان زافيالوف يعرف هذا ويقول:

ــ لا بأس، ادخل. تحت تصرفك خمس دقائق. هيا، بسرعة، على الطريقة العسكرية.

ويدخل بافليك شقة زافيالوف على عجل، ويقلب طرفه فيها. وفجأة يسأل، وهو يجول بنظراته حول طاولة الكتابة، ورفوف الكتب، والجدران:

ــ ولكن ليس لديك اية نماذج للطائرات؟

ــ ليس عندي نماذج. ايه؟ وهل من اجل هذا جئت؟

فيسرع بافليك الى القول:

ــ لا، لا، جئت لقضية. هاك...

ويدخل يده الى جيبه على عجل ويسحب منها جريدة مطوية بعناية، ويقدمها لزافيالوف.

«ستانكوستروبتيل» («باني الآلات»). لسان حال لجنة الحزب واللجنة النقابية في مصنع «الثورة البروليتارية».

وينظر زافيالوف نظرة تساؤل الى بافليك ثم الى حقول الجريدة من جديد.

وبسرعة ولهفة يقول الفتى:

– ليس هنا، ليس هنا، اقلب الصفحة!

ها – ها، هو اذ خبر صغير مشار اليه بقلم الرصاص.

«يوم امس احتفل بتسليم فريق برّادي الورشة الميكانيكية العلم الفخري للجنة الكومسومول. وقد وقع على التعهدات الاشتراكية اعضاء الفريق بيربيلكين، وتشيرنوف، وفاسيوتين وشيفلياغين، و...»

فيقول زافيالوف:

– لك مني التهنئة، يا بافليك!

شيفلياغين واقف في الوسط من الغرفة. فتى مضحك. جد قصير بالنسبة لاعوامه الثمانية عشر.

ويقول بافليك وهو ينظر الى قدميه:

– ما جئت اتباهى. انا اسأل: الآن سيقبلون؟

– أتشير الى نادي الطيران من جديد؟ وما هي العلاقة...

فيسأل الفتى بحدة:

– وهل قرأت حتى النهاية؟

ومن جديد يقرأ زافيالوف الخبر:

«... شيفلياغين واندرييف. ويتعهدون بالعمل شيوعياً... وبان يضربوا مثلاً على السلوك في الحياة...» وهكذا، وهكذا...

وبعد، ماذا؟ «... وبان يرفعوا من مهارتهم ومستواهم الثقافي العام عن طريق ...» هكذا، عال... ولكن، هو ذا: «وعدا ذلك، فان البراد شيفلياغين، قد تعهد بان ينهي، دون الانقطاع عن العمل في المصنع، الدراسة في نادي الطيران، وان يحصل على لقب طيار – رياضي...»

ويعجز زافيالوف عن حبس ضحكه. يا للفتى! كيف السبيل!

فيسأل بافليك، مقطب الجبين:

– وما الذي يضحكك؟

فيقول زافيالوف، وهو ما يزال عاجزاً عن التخلص من الضحك الذي استولى عليه:

– ايوه، انك شاطر حقاً، يا صاحبي. فكرة جريئة! ولكن عليك ان تنجز التزاماتك الشيوعية! واقع. ولكنهم يعيقونك. ولكن منذا الذي يستطيع اعاقة طليعي في العمل الاشتراكي من انجاز التزاماته، من؟ فكرة جريئة!

فيعترض بافليك في انزعاج:

– وهل تظن اني كنت اريد خداع احد؟ هل تظن اني كنت اخفي عن الفتيان انهم لا يقبلونني في نادي الطيران؟ انهم يعرفون كل شيء. وكيف كتبت انا؟ «اتعهد!» ايوه. يعني اتعهد بالتوصل لأن يقبلوني. واضح؟

ويحس زافيالوف في اعماق نفسه بالخجل لضحكه الذي لا محل له.

– معذرة، ايها الفتى، فما كنت حقاً اريد المهانة لك. ينبغي لك ان تذهب الى المفوضية العسكرية...

فيقاطعه بافليك بلهجة يائسة:

– نعم، كنت هناك، كنت! كنت اربع مرات، كأنما انت لا تعرف... يقترحون عليّ الانتساب الى دروس السواقين...

وباكثر ما يمكن من اللطف يقول زافيالوف:

– مع الأسف، يا بافليك، لا يمكن تخطي المفوضية العسكرية.

فيعترض بافليك باندفاع:

– ماذا يعني غير ممكن! في الفريق ايضاً كانوا يقولون هكذا: الامر غير ممكن – فعليك ان تتجاوز الخطة، وعليك ان تدرس في المساء، وعليك ان تساعد الرفاق، وعليك ان لا تشرب مئة غرام من الفودكا، وعليك ان تجيب على كل ما لا يخصك! ولكنهم قرروا بعد ذلك: ممكن!

يقول هذا بحرارة، مقدماً رجله الى الامام، وشاداً قبضتيه.

وفي الحال يفكر زافيالوف: هنا، في هذا المكان بالذات، حيث يقف الآن فتى قصير القامة، شائك، حاد الانف، كان يقف امس تماماً شخص آخر، شاب ايضاً، وان يكن اكبر منه بقليل.

كان يدافع عن حقه في الحرية. حقه في ان لا يعرف ما هو فاعل غداً. حقه في ان يلقي عن عاتقه عبء جميع الالتزامات.

اما بافليك المضحك هذا، فقد بلغ من قدر ما كدس منها على كاهله ما يبعث على التساؤل في دهشة وعجب: كيف لا يترنح. فلو انهما يتقابلان وجهاً لوجه...

على انه ربما لم يكن بافليك ليفهم معنى مناورات فكتور.

ولعلهما كانا يتكلمان لغتين مختلفتين. ضفدع وفرخ نسر. كلا، ليس فكتور ضفدعاً. لو كان كذلك لهان الامر. انما يخيل اليه انه طائر طليق. انه اشبه ببطل الفانوس السحري في السينما. يتراءى للناظر ان ثمة رجلاً يسبح في الفضاء، او انه يقود سيارة بسرعة خارقة، او يقفز فوق هاوية. اما في الواقع، فهو واقف على صندوق يحرك ذراعيه. او يدير المقود بتعجل في سيارة واقفة بلا حراك. او ينط من صخرة مصطنعة فارغة – علوها نصف متر – الى اخرى.

ولكن سر الفانوس السحري السينمائي لا يعرفه بعد جميع النظارة..

وفجأة يقول زافيالوف في نفسه:

«الى الشيطان! هذا الفتى سيطير! مثل هؤلاء بالذات يجب ان يرتفعوا الى السماء! سأتوصل الى هذا. ساذهب الى المفوضية العسكرية. في الخريف فقط يبدأ القبول الجديد، ما يزال في الوقت متسع. سيصبح طياراً، ولسوف يطير، واما فكتور هذا فليزحف على الارض، الى ان يأخذوا بخناقه، ويهزوه ويرغموه على سلوك الدرب الطبيعي للانسان! اما بافليك فلسوف يطير. ساتوصل الى هذا مهما يكن الامر!»

ويقول زافيالوف:

– حسناً، يا بافليك، ساكتب الآن رسالة الى المفوضية العسكرية. انك على حق: لقد نشأت ظروف جديدة.

فهتف بافليك بلهجة تعبر عن الامل، وقد ازداد النمش على انفه سطوعاً.

ـ ستكتب؟! اذن، كل شيء على ما يرام! وهل في وسعهم حقاً ان يرفضوا طلبك؟ انك طيار عسكري!..

ـ كنت طياراً.

ـ ولكن هذا لا يمكن! الطيار يكون على مدى الحياة!

وفي ذهنه يكرر زافيالوف: «الطيار يكون على مدى الحياة». ويجلس وراء الطاولة، وينتزع ورقة من دفتر كبير. ويكتب:

«الى المفوضية العسكرية المنطقية.

اتفق لي ان التقيت غير مرة ببافليك شيفلياغين، وانا على يقين من ان جميع الاسباب متوفرة لديه لقبوله في نادي الطيران. اننا بحاجة لمثل هؤلاء الفتيان. وعلينا باقصى ما يمكن من السرعة ان نربي جيلاً جديداً من الناس الشجعان المخلصين لقضيتنا المشتركة، فقد ظهر لدينا ثرثارون يغطون عجزهم وضعفهم بالعبارات الجميلة. اننا في حاجة لاناس اقوياء، شجعان، يعرفون لماذا يعيشون. ولزام علينا ان نساعدهم على الارتفاع بصورة اسرع الى السماء، ورؤية الافق، فان عيونهم تبحث عنه، فلا تجده احياناً... ينبغي ان نضع في ايديهم دفة القيادة، وعصا تسلق الجبال، ونوصلهم الى الدرب...»

ويعيد زافيالوف قراءة السطور التي كتبها، ويبتسم، ويمزق الورقة، ويبدأ الكتابة من جديد:

«الى المفوضية العسكرية المنطقية.

التمس قبول شيفلياغين في نادي الطيران. فانا موقن بانه سيكون طياراً حسناً، ورجلاً مخلصاً لقضيتنا. المدرب الرئيسي

في نادي الطيران، المقدم الطيار في الاحتياط ف. زافيالوف».

ويضع توقيعه ويلاحظ في الحال انه للمرة الاولى يكتب كلمتي «المقدم في الاحتياط» بدون مرارة وبدون شعور بالمهانة. ثم يقول لبافليك:

ـ خذ، واذا لم يكن في هذا ما يساعد، فساذهب بنفسي الى المفوضية العسكرية. ساعود من لينينغراد واذهب الى هناك.

فيهتف بافليك، وهو يقرأ الرسالة التي سلمه اياها زافيالوف:

ـ شيء عال! الآن كل شيء على ما يرام! ثم يسأل فجأة:

ـ قل لي، ايها الرفيق زافيالوف، وهل سيطير الناس عما قريب الى الفضاء الكوني؟

ـ عما قريب، على ما اعتقد.

ـ وهل سيأخذون هناك طيارين؟ ثمة حاجة للطيارين القصار، اي غير الطوال. فالصاروخ، اول الامر، لن يكون كبيراً، أليس كذلك؟ ما رأيك؟

ـ اعتقد ان الامر كذلك.

ـ اي نعم! ويقولون ان الناس سيطيرون الى النجوم، فما رأيك؟..

ـ سنتحادث بعد العودة يا بافليك. فقد حان الوقت بالنسبة لي.

ويدنو زافيالوف من بافليك، ويربت بيده على كتفه، ويمضي به في بطء الى الباب. ولكن هذا يظل يتكلم، ويتكلم...

ـ ... ولقد قرأت ان ثمة بضعة نجوم لم يعد لها وجود: زالت منذ ملايين السنين، اما نورها فما يزال ينتشر وينتشر. صحيح؟

– صحيح، يا بافليك...

– وماذا لو يطير الناس نحو نجم من هذا النوع؟ كم سيضيعون من الوقت، ثم يرون انهم كانوا يطيرون عبثاً، وهذا النجم لم يعد له وجود....

– سيرون نجوماً جديدة.

ويتابع بافليك وقد بات واقفاً في وصيد الباب:

– واذا كان الطيران الى النجم يحتاج – لنقل – الى الف عام، فكيف الامر اذ ذاك؟ فما تكفي لهذا اية حياة بشرية، أليس كذلك؟

– كفى، يا بافليك، كفى، الحياة البشرية تكفي لكل شيء. اما الآن – فمع السلامة. ساعود سريعاً، واذ ذاك...

وانصفق الباب. وذهب بافليك. يا له من فتى طيب!

ولكن ليزا لم تأت. والساعة بلغت العاشرة. حان الوقت!

ويبدأ زافيالوف بترتيب امتعته. حقيبة صغيرة. قميصان، جرابات، منشفة، صابون، فرشاة اسنان. يكفي، على ما يبدو. ويأخذ الصورة من على الطاولة ويضعها في الحقيبة بعناية بين القميصين.

والآن، كل شيء قد انتهى. البطاقة في الجيب. وفي الوسع الذهاب.

١٤ – هذا هو الشارع...

دفع زافيالوف الاجرة للسائق، وخرج من السيارة، وراح يتطلع. على جانبي جادة مالوأوختينسكي العريضة، تنتصب عمارات متعددة الطوابق، متماثلة تماثلاً عجيباً.

وكان للعمارة رقم ١٤ مداخل كثيرة، وفوقها لوحات سوداء طويلة تحمل ارقام الشقق.

واذ وجد زافيالوف الرقم ثمانية، شعر فجأة باعياء قاتل. وما كان يعرف مصدراً لهذا الاعياء. صحيح انه ما استطاع النوم طول الليل، وظل واقفاً في ممشى عربة القطار وقتاً طويلاً، ثم عاد الى العربة وصعد الى السرير المعلق العالي، واستلقى من غير نوم، الى ان قرعت الموظفة الباب معلنة ان القطار على ابواب لينينغراد.

ومع ذلك فما كان يشعر باي اعياء قبل رؤية هذا الرقم «٨». اما الآن فقد تثاقلت قدماه فجأة، كما يحدث للمرء بعد مسيرة طويلة. واحس بلهيب يجتاح جوانحه. وقال لنفسه:

– ها انا، اخيراً، قد جئت!

كان صوت المصعد مسموعاً في مكان ما في الطوابق العليا، ولكن زافيالوف لم ينتظر هبوطه، فمضى يصعد على الدرج.

الشقة الثامنة...

وشعر زافيالوف بان قواه قد تلاشت. ومثل هذا لم يسبق قط ان حدث له حتى بعد اصعب التحليقات واشدها خطراً.

استند الى الدرابزين، وعيناه لاصقتان بزر الجرس الاسود، على يمين الباب. ونظر الى الساعة. الثامنة والدقيقة العشرون. اذا كانت اوليا هنا، وراء هذا الباب، فهي بالتأكيد على وشك الذهاب الآن الى العمل. وقد تكون قد استيقظت من نومها لتوها: فالعمل في كثير من المؤسسات يبدأ من العاشرة...

وبغتة شعر زافيالوف بالرهبة. نازعته نفسه بان ينصرف، ويفر نازلاً الدرج، قبل ان ينفتح الباب. ما كان يأبى التفكير فيه، تلك الافكار، تلك المخاوف، التي كان سيمونيوك يحاول بكل ذلك العناد ان يفرضها عليه، استولت عليه فجأة.

كانت اوليا ما تزال بالنسبة لزافيالوف تلك الفتاة ابنة الثامنة عشرة، التي رآها بالمعطف الرقيق على شاطئ الفولغا، وبيزة العمل الزرقاء، هناك، على مطار الجبهة...

ما كان يتصور، ولا كان في وسعه ان يتمثلها الآن في شقة على حدة، والى جانبها الاشخاص الواقعيون اليوم. كانت، في ذاكرته، مرتبطة بماضيه. بكل ما كان الافضل والابهى في هذا الماضي. واما الآن، فامام زافيالوف باب واقعي مرئي، مغلف بجلد اصطناعي بني، ومن خلفه — اوليا اليوم بلحمها ودمها. وشعر بالرهبة، ومن جديد راح صوت سيمونيوك يدوّي في اذنيه.

ولقد كان يدرك انه اذا كان لا يدق الآن جرس هذا الباب، فانه سيهرع للفرار نازلاً الدرج. واذ ذاك، ضغط على زر الجرس الاسود، بقوة، وباندفاع، كأنما كان يضغط على زناد رشاش.

وسمع زافيالوف طقة قفل انكليزي، وانفتح الباب. وفي الممشى نصف المعتم، كانت تقف امرأة ببرنس معرّق. عليها ملامح بنت خمسين.

— من تريد؟

— ميرونوفا... عفواً، اولغا اليكسييفنا ميرونوفا ساكنة هنا؟

— غلطان.

هكذا اجابت المرأة، في غير ارتياح، وهي تشد عليها برنسها. الآن ستغلق الباب، الآن...

فتابع زافيالوف الكلام باستعجال:

— عفواً، دقيقة واحدة. انا قادم خصوصاً من موسكو... أليست هذه هي البناية رقم ١٤؟

— اية شقة تريد؟

— ثمانية، ثمانية!

— ايوه، هذه هي الشقة الثامنة. ولكن لا توجد هنا اية ميرونوفا.

واضاف زافيالوف بلهجة يائسة:

— ولكن، ولكن لعل كنيتها لم تعد ميرونوفا. اريد اولغا اليكسييفنا. أتفهمين؟ اولغا اليكسييفنا!

وكان جلياً ان المرأة ذات البرنس قد ادهشها ما في

صوت هذا الرجل الغريب المرتبك من يأس وارتعاد. فقالت في اناة ورفق:

– لقد اوضحت لك، ايها المواطن، ان ليس هنا اية ميرونوفا، واية اولغا اليكسيفنا. هنا تسكن اسرة لازاريفيتش.

– ولكن... دقيقة واحدة ايضاً! لديّ معلومات دقيقة تفيد ان الشخص الذي ابحث عنه كان يسكن هنا. قد تكون انتقلت؟ لا بد انكم تعرفون من كان يسكن هنا قبلكم! انها في عام ألف وتسعمائة وخمسين...

فقاطعته المرأة سائلة:

– في اي عام؟

– في العام خمسين! لديّ بيان رسمي يفيد انها كانت تسكن هنا بالذات، في هذا البيت...

– ايوه، اسمع، ما هذا الذي تقول؟ هذا البيت ما كان موجوداً سنة خمسين. منذ عام فقط تم بناؤه.

– منذ عام فقط؟!

ينطق زافيالوف بهذه الكلمات بلهجة بلغ من تعبيرها عن خيبة الامل ان بعثت الحنان في نفس المرأة.

فدعته قائلة:

– ادخل، ما لك واقفاً هكذا على العتبة ما دام الامر هكذا.

واجتاز زافيالوف عتبة الباب. واغلقت المرأة الباب، ومدت يدها الى الجدار. فطقطق مفتاح الكهرباء، واشتعل تحت السقف مصباح ذو اباجور مغبّش. وقالت المرأة:

– البيوت كلها جديدة هنا، في هذا الشارع. بنيت منذ ثلاث سنوات.

واخيراً تمالك زافيالوف نفسه. ومن جديد راح فكره يشتغل بدقة وتوتر. فسأل:

– والبناية السابقة رقم ١٤، هل كانت قائمة في هذا المكان؟

– ومن يعرفها! كنا سابقاً نعيش في حي آخر تماماً، في ليغوفكا. اربعة في غرفة واحدة. تكومنا هكذا ثلاثين عاماً. اما هنا فانظر...

وابتسمت. واضح انه كان صعباً عليها المحافظة على هدوئها اللامبالي وقد بات الامر يتعلق بشقتها الجديدة. فاستعجلت تقول:

– تفضل انظر الشقة... غرفتان، حمام، مطبخ...

– شكراً، اني جد مستعجل. اذن، انت لا تعرفين اين كانت تقوم البناية رقم ١٤ القديمة؟ فمن يمكن ان يقول لي؟

فقالت المرأة وهي تفكر:

– ليست عندي اية فكرة. ربما، ادارة الشؤون المنزلية؟ انها في بنايتنا، في الطابق الاول. على اليمين رأساً، لدى نزولك الى المدخل.

– شكراً، والمعذرة على ازعاجي لك. يا لسوء الحظ، ان يكون ذلك البيت قد ازيل...

فسألت المرأة بحدة:

– ولماذا من سوء الحظ؟ هل تعلم اية بيوت كانت هنا؟ عتيقة، رثة، اما الآن فهذه هي!

– لا، لا، لست بهذا الصدد. أكيد، البيوت الجديدة امر حسن. حسن جداً. وقد تحسنت الحال بالنسبة لك. فتهاني لك بالانتقال الى البيت الجديد...

وكان ثمة سوء حظ آخر بانتظار زافيالوف في مكتب ادارة الشؤون المنزلية: فما من احد هناك كان يعرف اين كان يقوم البيت القديم رقم ١٤. ولقد اشاروا عليه ان يذهب الى سوفييت المنطقة. فهناك الارشيف، واغلب الظن انهم يعرفون الاشخاص والمكان الذي انتقلوا اليه.

كلا، لن يذهب الآن الى سوفييت المنطقة، فالافضل ان يذهب الى المفوضية العسكرية نفسها حيث سلموها الوسام.

ظل زافيالوف بعض الوقت واقفاً على الرصيف، ينظر الى صف العمارات الجديدة الطويل. انها لعمارات جيدة! الا انها جد متماثلة الشكل. على ان تلك المرأة لا تفكر في هذا، على الارجح، وكذلك السكان الجدد الآخرون، وهم ألوف، ومن المشكوك فيه ان يخطر هذا لاذهانهم. انهم مغتبطون بظروف المعيشة الانسانية. فيما بعد سيفكرون في وحدة النسق المعماري، حين سترقد فورة الافراح الاولى. فسرعان ما يألف المرء الجيد.

قبل ست سنوات كانت اوليا تعيش هنا. كانت تسير في هذا الشارع. ومن جهة اخرى، لا. فان ذاك، بالتأكيد، كان الشارع غير هذا الشارع – وكذلك البيوت، والاسفلت، والناس – كل شيء! وعند المنعطف، حيث تتقاطع الطرقات، رأى زافيالوف كشك الاستعلامات. وفكر في نفسه: «ولماذا لا احاول الاستعلام عن عنوانها بابسط سبيل؟»

فاقترب من الكشك، ونظر من النافذة الصغيرة. كان ثمة فتاة في اذنيها قرطان زاهيان من البلاستيك، تقرأ جريدة «الاومانيته». وفوق الطاولة، على مقربة منها، قاموس فرنسي – روسي مفتوح.

– بودي ان اعرف عنوان...

هكذا بدأ القول زافيالوف.

فرسمت يد الفتاة نصفي كرة في الهواء. ووضعت ورقة صغيرة على المسند.

– الكنية، الاسم، الاب؟ التاريخ التقريبي ومحل الولادة؟ المنطقة التي تعيش فيها في لينينغراد؟..

وسأل زافيالوف:

– ومتى الجواب؟ بعد ساعة؟ بل قبل؟ عال. ويمكن ان اتلفن؟ شكراً.

وسجل زافيالوف رقم الهاتف.

ومضت قرابة ساعة حتى وصل الى المفوضية العسكرية. وفي الرواق وضع زافيالوف قطعة نقدية في الهاتف الآلي

وجمع رقم كشك الاستعلامات. فقال حين بلغ سمعه صوت فتاة:

– كنت قد اوصيت على سؤال قبل قرابة ساعة. ميرونوفا، اولغا اليكسييفنا...

وكان صمت قصير. ثم سمع زافيالوف:

–كل شيء على ما يرام. اكتب العنوان، اني املي عليك...

– دقيقة! مهلاً لحظة، سآخذ القلم.... نعم، من فضلك، املي عليّ!..

– اكتب. ميرونوفا، اولغا اليكسييفنا. مولودة سنة ألف وتسعمائة واربع وعشرين، جادة مالوأوختينسكي، البناية رقم ١٤، الشقة رقم ٨. كتبت؟.. اسألك، كتبت؟ لماذا انت ساكت؟.

١٥ – لن انسى شيئا

هذه هي البناية. المنظر الخارجي للفيلا القديمة ذات الثلاثة طوابق يبعث الارتباك في نفس زافيالوف. سياج من حديد، ولكن البوابة مفتوحة على مصراعيها، وليس ثمة اي «نقطة رقابة» واية علامات حراسة. المدخل مرئي من هنا، من الشارع. وليس على المدخل لا حارس ولا بواب – باب في منتهى البساطة. نصفه الاعلى من الزجاج. الا انه لا ترى اية سجف من الجانب الداخلي. ولو لا اشعة الشمس على الزجاج لكان زافيالوف قد تمكن من رؤية ما يجري وراء الباب.

ما كان بالامر اليسير الحصول على عنوان هذه البناية. وفي المفوضية العسكرية، اجابوا بطيبة خاطر على طلب زافيالوف «اثارة» قضية اولغا ميرونوفا. وخلال نصف ساعة ابلغوه عنوان منزلها، ومن جديد، والآن ايضاً، وللمرة الثالثة، سمع زافيالوف هذه الكلمات : «جادة مالوأوختينسكي ١٤، الشقة ٨».

ولكنه حين سأل اين كانت تشتغل ميرونوفا وقت تسليم الوسام لها، حدث توقف. وبعد كثير من الاخذ والرد، قال الملازم الثاني، القائم بالتحقيق، انه لا يستطيع الاجابة عن هذا السؤال الا باذن من المفوض العسكري.

فكان على زافيالوف ان ينتظر الدور لدى المفوض العسكري، وان يستخدم بعد ذلك كل بلاغته، ويعرض جميع وثائقه، لاقناع العقيد باعطاء الاذن. واخيراً، انتزع زافيالوف العنوان المطلوب: جادة كيروف، ٨١. وقد طلبوا منه ان لا يسجل شيئاً، واكتفوا بذكر العنوان واسم مؤسسة لا يعبر عن شيء: «معهد البحوث العلمية (م. ب. ع.) — ٢٤».

وها هو زافيالوف قد جاء الى الطرف الآخر من المدينة. انه الآن واقف امام هذه البناية. بعض الاشخاص كانوا يدخلون الباب، وآخرون يخرجون. ما من احد كان يدنو من مدخل الفيلا، فيرفع يده بحركة آلية نحو الجيب الداخلي لسترته ليخرج بطاقة الاذن بالدخول. وما كان احد من الخارجين يدس يده في جيبه، كما يحدث عند وضع البطاقة، التي ابرزت منذ لحظة للحارس عند الباب.

لم تكن ثمة علامة لدى البوابة الحديدية. ولكن كانت تلمع على البناية ذاتها لوحة سوداء، الى يمين الباب. ولكي يتبين ما هو مكتوب عليها، عبر زافيالوف البوابة واقترب من الباب.

«معهد البحوث العلمية الكيماوية». م. ب. ع. تمام. ليس ثمة اية سريّة. قد يكون اخطأ العنوان؟ كلا، كل شيء مضبوط. جادة كيروف، ٨١.

على ان المظهر الخارجي قد يكون خدّاعاً. وقد اتفق لزافيالوف ان ارتاد مثل هذه الدور ذات المظهر الخارجي البسيط منتهى البساطة. بدون حرّاس، ولا محرس. حشائش في حديقة

صغيرة. علامة شارع — اشارة منع وقوف السيارات. واما وراء الباب، فالصمت البارد، والى اليمين بواب عسكري اللباس، واقف قرب طاولة صغيرة مغطاة بجوخ اخضر، وضعت عليها تحت الزجاج نماذج من بطاقات الاذن بالدخول، والى اليسار، فوق سجادة مربعة من اللباد، يقف حارس.

يفتح زافيالوف الباب، ويدخل.

رواق صغير، وبلاط من حجر، ودرج عريض من المرمر يؤدي الى فوق. نوافذ عالية. كل شيء يذكر بمساكن النبلاء القديمة، وان تكن درجات السلّم متآكلة في بعض الاماكن، وبلاط الارض ليس نظيفاً نظافة لا غبار عليها... وما من احد في الرواق...

ويصعد زافيالوف الدرجة في بطء. فسحة الطابق الاول. الى اليسار، ممشى عريض. رجل معتدل القامة ذو نظارات يسير متأنياً في الممشى. يحمل في يده، المبعدة قليلاً عن صدره، سندويشة مغلفة بورقة. ويقترب الرجل ذو النظارات باناة، وهو يواصل مضغ اللقمة بشدة.

ويخاطبه زافيالوف:

— عفواً...

فيشرق الرجل من المفاجأة.

وينتظر زافيالوف، في تصبّر، حتى ينتهي سعاله.

— عفواً، اين يمكن ان اعرف عن احدى الموظفات لديكم؟.. كنيتها — ميرونوفا.

فتصدر عن يد الرجل، حاملة السندويشة، حركة مبهمة، ويسأل:

– ميرونوفا؟ من المختبر الاول؟

– ممكن جداً. مع الأسف، لا اعرف بالضبط.

ويكرر الرجل وهو يتطلع بشغف الى سندويشته:

– في المختبر الاول، على ما اتصور.

وبفراغ صبر يقول زافيالوف:

– نعم، نعم، ممكن جداً. اعرف فقط انها تشتغل في معهدكم.

ويقضم الرجل لقمة كبيرة من سندويشته، ويتكلم غير واضح الالفاظ، وهو يمضغ:

– اي نعم، ولِمَ لا تذهب الى المختبر؟ الباب الاول على اليمين!

ويميل برأسه صوب الباب، ويهز يده هزة تحية، ويمر من امام زافيالوف.

فيستند زافيالوف الى الجدار، وعينان لاصقتان بالباب. سيمضي الآن الى هذا الباب ويفتحه...

غرفة كبيرة غارقة في النور. صفوف طويلة من الطاولات الضيقة. بضع فتيات في مآزر بيضاء. وعلى الطاولات جيش من القوارير، والمعوّجات، والانابيب الزجاجية الحلزونية... وتلقي فتاة قرب الباب نظرة تساؤل على زافيالوف.

فيسأل زافيالوف بصوت بح فجأة، كأنه صوت محموم:

– عفواً، هل تشتغل هنا ميرونوفا؟

– راحت...

هكذا اجابت الفتاة. والتفتت جاراتها صوب زافيالوف، بحركة واحدة كأنها صادرة عن ايعاز.

فسأل زافيالوف، وقد شعر ان صدغيه بدآ يضربان:

– و... سترجع؟

فاجابت الفتاة وفي صوتها نبرة ساخرة:

– ايوه، طبعاً. صعدت الى الطابق الثاني، وسترجع الآن... ولكن ماذا اصابك؟

ويفكر زافيالوف: «أكيد اني قد ترنحت. غريب، اني لم الاحظ شيئاً. كل ما في الامر اني اشعر بقليل من الدوار في رأسي». ثم يقول بصوت مبحوح:

– لم ارها منذ ثلاثة عشر عاماً تقريباً. ما كنت اعرف انها على قيد الحياة...

وتنقطع جميع الفتيات في الغرفة عن العمل، ويجثن صوب زافيالوف، وينظرن اليه نظرات عطف. وفجأة تهتف احداهن:

– اسمعوا، هيا نعمل لها مفاجأة.

وقالت لزافيالوف:

– اتبعني! عجل... من هنا!

وتأخذ الفتاة بيد زافيالوف وتسحبه الى حجرة داخلية يفصلها عن الغرفة الكبيرة باب رقيق من الخشب المعاكس. وتوقف زافيالوف عند هذا الباب.

وتمر دقيقة، وثانية... ويسمع زافيالوف صوت باب ينفتح، وبعد لحظة يسمع صوت الفتاة عالياً:

– اسمعي، هل تؤمنين بالمعجزات؟ الآن سنريك اصدق معجزة. واحد... اثنان...

وينفتح باب الحجرة. واذا بالفتاة، التي كانت قد جاءت بزافيالوف الى هنا، تمد يدها وتسحبه برغمه تقريباً من وراء الباب...

صمت. والتفت الجميع صوب امرأة متجاوزة سن الشباب ضخمة، واقفة على بعد بضع خطوات من العتبة. ويرن الصوت العالي فارغ الصبر:

– ايوه؟! هي ذي ميرونوفا! ايكاتيرينا مكسيموفنا، انظري من جاء اليك؟

وترفع المرأة كتفيها في استغراب. وتسأل:

– انت قادم اليّ، ايها الرفيق؟

ويتكلم زافيالوف بصوت لا يكاد يسمع:

– عفواً – غلط.

وفجأة يحل عليه هدوء، هدوء ابله لا مبال.

– اني ابحث عن ميرونوفا اخرى. اولغا اليكسييفنا.

وتدخلت احدى الفتيات في الحديث:

– وما هو عملها؟

فيجيب زافيالوف بحدة ويخشى في الوقت نفسه ان يعتبر انزعاجه ضرباً من الفظاظة:

– وأنّى لي ان اعرف؟ لست اعرف شيئاً قط. كل ما اعرف انها تشتغل، او ربما كانت تشتغل هنا، في المعهد رقم ٢٤...

وبصوت واحد تقاطعه الفتيات سائلات:

– اين؟!

– هنا، في معهدكم!

فتهتف فتاة بمئزر مربوط بشريطة من الشفوف:

– ولكن هذا معهد آخر تماماً.

– معهد آخر؟!

– ايوه، أكيد! ذلك المـ... ايوه، بالاختصار، تلك الهيئة التي سميتها، لم تعد موجودة هنا منذ... اسمعي، يا فيرا، هل تعرفين متى انتقلوا؟

فتقطب جبينها تلك التي اسمها فيرا، وتهز رأسها هزة نفي.

ويحل صمت، وتنصرف الفتيات جميعاً، على نحو مفاجئ الى اعمالهن. ولا تعير واحدة انتباهاً لزافيالوف، حتى لكأنه لم يعد موجوداً هناك.

فيخاطب زافيالوف الفتيات جميعاً دفعة واحدة في ارتباك واستعطاف:

– سمعاً، ولكن ساعدنني! اني ابحث عن انسان. وقد عرفت آخر الامر هذا العنوان: جادة كيروف، ٨١، المعهد ٢٤. فهل كل هذا صحيح؟

– هذا المعهد لم يعد موجوداً هنا – قالت هذا ميرونوفا الاخرى – لقد بدل العنوان منذ عدة سنوات.

– ولكن اين هو، اخيراً؟

صمت. ثم تقول الفتاة القريبة من زافيالوف:

– المعذرة، نحن جد مشغولات. راجع قسم الملاكات. في الممشى، الى اليمين. الباب الاخير.

... في الغرفة الصغيرة، التي يشغلها قسم الملاكات، يجلس رجل مسن على صدره اشارات اوسمة. ويشرح زافيالوف كل شيء: من هو، ولماذا يبحث عن ميرونوفا، و كيف عرف العنوان، رغبة في تجنب تكرار الاسئلة المتشابهة غير المحتملة التي من شأنها ان تبعث على اليأس. ويستمع اليه الشيخ، دون اية مقاطعة. ثم يقول في هدوء ولطف:

– تفضل، اجلس. ولنحاول مساعدتك...

فيتنفس زافيالوف الصعداء، ويجلس. ويقول الشيخ في اناة:

– هكذا، فالقضية، اذن، هكذا... هذه الفتاة، حسب معلوماتك، كانت تشتغل في م. ب. ع – ٢٤. ولكن هذا المعهد ليس هنا. هم كانوا م. ب. ع، ونحن م. ب. ع ايضاً. ولكننا نحن م. ب. ع آخر. فاهم؟ – ثم يبتسم الشيخ – وكما يقال: نعم هذا اسمه، ولكن ليس هو.

ويرتفع صوت زافيالوف، وقد استولى عليه من جديد الخوف من خيبة الامل:

– كنت افهم هذا كله، كنت افهم! ولكن يهمني شيء آخر: اين يوجد ذلك الـ م. ب. ع الذي انا في حاجة اليه؟ ذلك الـ م.ب. ع، فاهم؟

فيهز الشيخ برأسه، ويقول وفي صوته رنة لوم خفيف:

– لقد ذكرت انك خدمت طويلاً في الجيش – ومع ذلك فانت تطرح مثل هذه الاسئلة.

فيهب زافيالوف واقفاً بعنف. ويسأل بمرارة:

– هذا كل ما يمكن ان تقول لي؟ هذا كل شيء؟

فيبتسم الشيخ ابتسامة هازلة:

– كلا، ليس كل شيء. ربما استطيع مساعدتك في شيء ما...

ويرفع سماعة الهاتف، ويجمع رقماً. ثم يتكلم بالهدوء ذاته، هدوء الشيخ:

– ارسنتي بافلوفيتش؟ تلطف بالمجيء الى غرفتي... لا بأس، بعد عشر دقائق سيكون وقت الغداء، في طريقك...

ويرجع السماعة الى مكانها بحذر كأنما هي من الزجاج الرقيق. ثم يشرح لزافيالوف الذي استمع الى هذا الحديث الهاتفي القصير بانتباه شديد:

– ارسنتي بافلوفيتش سوكولوف، هو رئيس احد المختبرات. انسان لطيف جداً، وعالم ممتاز...

– ولكن... ولكن اية مساعدة يمكن ان يقدم لي؟

فيبسط الشيخ ساعديه، ومن جديد يبتسم ابتسامته الطيبة، الساخرة نوعاً ما:

– اما هذا فلا علم لي به. لقد كان يشتغل في ذلك المعهد، وربما...

على عتبة الباب رجل معتدل القامة متقدم في العمر، يرتدي طقماً ازرق اللون مدعوكاً بعض الشيء.

– اهلاً وسهلاً، ارسنتي بافلوفيتش!

هكذا يخاطبه الشيخ، ناهضاً قليلاً عن مقعده. ثم يقوم بحركة صوب زافيالوف قائلاً:

– هذا الرفيق متعطش لمقابلتك.

وينظر القادم بضع ثوان الى وجه زافيالوف، محاولاً ان يتذكر ما اذا كانا قد تقابلا ذات يوم، ثم يرفع كتفيه بمقدار لا يكاد يلحظ، ويقول:

– ماذا بوسعي؟

فيسأل زافيالوف رأساً:

– هل كنت تشتغل في م. ب. ع – ٢٤؟

– آ... لنفترض.

– قل... ارجوك.. ارجوك حار الرجاء ان تتذكر: اما اتفق لك ان عرفت ميرونوفا؟ اولغا اليكسييفنا ميرونوفا؟

فيقول سوكولوف:

– الله! اي نعم، اعرفها، طبعاً.

وتدور الدنيا امام عيني زافيالوف. سوكولوف يعرفها، يعرفها! وفي كل درب بحوثه وتحرياته الخائبة، هذا اول انسان رآها بعد الحرب. ان زافيالوف لفي عجز عن امتلاك زمام نفسه. لقد تأكد كل شيء! فالمتكلم الآن ليس صورة خرساء، ولا سطوراً جافة مضروبة على الآلة الكاتبة، انما هو انسان حي يقول انها موجودة في الدنيا، انها حية!

ودون ان يدرك ما يفعل، يتناول زافيالوف يد سوكولوف ويروح يهزها ويشد عليها بكل قواه، مكرراً الكلمة ذاتها:

– تعرفها، تعرفها، تعرفها!..

وتصيب سوكولوف عدوى انفعال زافيالوف العاصف. فلا يسحب يده، ويسأل في قلق:

– هل حدث لها شيء؟ أهي حية؟ وبصحة وعافية؟

فيكرر زافيالوف غير منتبه لمعنى هذه الاسئلة: – «نعم، نعم، نعم!» – وتنهال كلماته على سوكولوف كالوابل. ويصيح:

– كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام! لقد وجدتها، انها حية، هذا صحيح، الآن سنذهب اليها! هيا، سريعاً، سريعاً!..

فيسأل سوكولوف في حيرة من الامر:

– ولكن... الى اين؟

ويترك زافيالوف يده. اما تراه اخطأ الفهم؟ ويواصل سوكولوف السؤال:

– أهي في لينينغراد؟ هل عادت؟ وهل تعرف عنوانها؟

فيسأل زافيالوف:

– العنوان؟

ويبدو له ان قد اصطدم، وهو راكض، بجدار صلب. فيقول في يأس:

– ... ولكن أما تراك تعرف اين هي؟

ويجيب سوكولوف:

– ك– كلا، طبعاً، كلا. اني لم ارها منذ وقت بعيد، منذ قرابة سنتين، مهلاً، لا، منذ حوالي ثلاث من السنين.

ثم يسأل في ارتباك ظاهر:

– عفواً، ومن انت؟

فيحرك زافيالوف يده حركة معبرة عن اليأس. وما الداعي للكلام؟

ويسمع صوت الشيخ المسؤول في قسم الملاكات:

– الرفيق زافيالوف لم ير ميرونوفا من ايام الحرب. كانت يعتقد انها ماتت، استشهدت. واما الآن، فقد عرف انها حية، وها هو يبحث عنها في كل مكان...

– هذه هي القضية! – هكذا يقول سوكولوف ثم يسأل متوجهاً الى زافيالوف:

– وما رأيتها ولا مرة بعد الحرب؟

فيجيب زافيالوف بصوت خافت:

– ولا مرة.

– هلم بنا نتحدث، هلّم. ساحكي لك كل ما اعرف...

ويلمس يد زافيالوف لمسة خفيفة.

– ... كان ذلك منذ ثمانية اعوام، حين رأيت اوليا ميرونوفا للمرة الاولى. اذكر ان جنرالاً من معارفي تلفن لي وسأل اما ترانا في حاجة لفتاة لبيبة، حسنة السيرة، متخرجة من المدرسة الثانوية المهنية الكيماوية. وما كان تنويهه بالسيرة بالامر الاعتباطي، ففي تلك السنوات كان في هذه البناية معهد آخر تماماً. والآن ما من اسرار خاصة هنا، لا سيما والمعهد الذي اتحدث عنه قد انفصل عنا منذ بضع سنوات، انتقل، بل ولست اعرف ما اذا كان موجوداً الآن... بالاختصار، كنا ندرس مسائل وقود الطائرات.

وتأتي اليّ تلك الفتاة، كما اتذكر الآن: نحيلة، بسيطة الملبس، وفي يدها بدل الحقيبة محفظة عسكرية صغيرة. وتفتح

هذه المحفظة، فتخرج منها وثيقة توجيه: فاقرأ: «ميرونوفا، اولغا اليكسييفنا، متخرجة من قسم الوقود في المدرسة الثانوية المهنية الكيماوية، تتوجه...» ايوه، وهلم جراً.

طرحت عليها بضعة اسئلة، هكذا وفقاً للنظام، حسب التقليد المتبع:

«يعني تريدين العمل في الصناعة الكيماوية؟»

فترفع كتفيها:

«اذا كان ضرورياً...»

«وانت مولعة بالكيمياء؟»

فتجيب اجابة غير محددة:

«كنت ادرس...»

«وما الذي يطيب لك بوجه خاص في الكيمياء؟»

«لا اعرف بالضبط...»

بصريح القول، لم تعجبني كثيراً اجوبتها اذ ذاك. ففي اعتقادي ان الشخص يتقدم الى العمل فيتظاهر بان هذا العمل هو موضع اهتمامه.

واسألها: «اين تريدين ان تشتغلي عندنا؟»

«حيث ترسلونني».

وتطلعت فجأة الى محفظتها وقلت بسرعة خاطفة:

«أتريدين في الطيران؟»

«ماذا؟»

ولمعت عيناها لمعة ادركت معها على الفور اني اصبت الهدف. صحيح ان الجنرال كان قد قال بصورة عابرة ان هذه

الفتاة كانت محاربة في الجبهة، ولكن لم تكن لديّ فكرة عن انها كانت قد خدمت في الطيران.

واقول لها: «ليس يجري عندنا تحليق، طبعاً، ولكنك ستكونين على صلة مباشرة بالطيران. وسألتها: — وهل اتفق لك انت ان طرت؟»

فاجابت: «اتفق».

«وعلى اية طائرات؟»

«على طائرات «ايل». خدمت في طيران الانقضاض».

طيب، قلت لنفسي، ساريك الآن الطيران. واخذتها الى المختبر التجريبي... فتجمد عند العتبة كالمسحورة. تنظر الى المحركات الضخمة الموضوعة على المسند — تمثيل مهيب في الواقع: شبكة من الانابيب الزجاجية، ومصابيح كهربائية صغيرة متعددة الالوان مشتعلة، واجهزة تسجيل منحنية تسجل، والمحركات تهدر... بالاختصار، كما في حجرة الطائرة تقريباً... وانت عفواً — يسأل سوكولوف زافيالوف — ما هي مهنتك؟

— طيار.

فيقول سوكولوف في اضطراب:

— ها — ها! واذن فعبثاً اسهب في كل هذا الوصف الادبي. انك، بالتأكيد، تدرك انه كانت تجري في تلك السنوات اعادة تسليح الطيران. وكان يصنع التكنيك الجديد، النفاث. بالاختصار، اوضحت لميرونوفا: «ان زمان طائراتك الـ «ايل» قد ولّى، ايتها الفتاة. ويحل عهد الطيران النفاث». ايوه، وهنا رحت اسرح قليلاً مع الخيال بصدد الطائرات الجبارة، التي ستطير من

موسكو الى فلاديفوستوك في بضع ساعات، وبينت ان مثل هذه الطائرات لا بد لها من وقود جديد، من شأنه ان يحقق سرعة كبيرة، وارتفاعاً كبيراً، ومدى بعيداً في الطيران. بالاختصار، كل شيء — واضح بالنسبة لك. وفيما انا اقول هذا، كنت اراقبها. فرأيت ان اوليا ميرونوفا تتغير امام عينيّ. كانت شخصاً، فاصبحت آخر: كان الخدان يتوردان، والعينان تتسعان، والرأس المردود الى وراء في شيء من التحدي، ازداد جمالاً. فكأنما قد بدلت تبديلاً. ايوه، واشعر ان شرارة قد اتقدت فيها، ورحت انا انفخ من هذه الشرارة ناراً. فاحكي لها عن الثورة التي ينبغي لنا ان نقوم بها في ميدان الوقود وعن حاجتنا الى اناس ذوي معرفة بالمحركات، اناس كانت لهم صلة بالطيران، ويحبونه... واذ ذاك، بعد هذا الحديث الاول، ادركت اي انسان هي. التقيت غير مرة بمثل هؤلاء: يحتاجون الى هدف في الحياة. لا مجرد ايمان بشيء ما، بل هدف محدد. فلا يحسبون للصعاب حساباً. فاذا كان ثمة هدف، فانهم يعيشون. وانهم اذ ذاك لفي مناعة. فليس يقهرهم شيء: لا البرد، ولا الجوع، ولا الحزن. اما اذا ضاع هذا الهدف، فقد انتهى كل شيء. واذ ذاك تعصف بهم ريح خفيفة ينحني لها الناس البسطاء. ثمة اناس يستطيعون الوجود، عندما تتجمد الحياة، في حالة ركود: فلا هم يعيشون ولا هم يموتون... اما الناس الذين هم من طراز اوليا فالتجمد يقتلهم. اذا لم يكن ثمة هدف، طبعاً. اما اذا كان ثمة هدف، فلا صقيع يرهبهم. بالاختصار، عينت اوليا في الفريق التجريبي. وكانت المهمة تحديد خصائص

الوقود الفيزيائية. وبدأت العمل عندنا. ولم يمض شهران حتى غدت محبوبة جميع معاوني المختبر. ولزام عليّ ان اقول لك بصراحة: كانت عندي بمكان الروح. وقد كان لديّ في المختبر غير قليل من الناس الطيبين والاختصاصيين الممتازين. وانا، ولله الحمد، قد تجاوزت الستين، وقد رأيت الكثير في حياتي...

وتوقف سوكولوف قليلاً، ثم تابع حديثه: — كنت على ثقة بها، من حيث العمل، وكما يقولون، كانسان. فثمة، كما تعلم، اناس من هذا القبيل، ايوه، كيف يمكن التعبيرعن هذا، وجدانهم كاذبٌ، كما يقال، شيء للعرض. الوجدان عندهم مثل... ايوه، من قبيل عدّاد غايغر. فاذا انت قمت بعمل ليس كما ينبغي تماماً — او اكثر من ذلك فكرت تفكيراً ليس على ما ينبغي تماماً — فان العدّاد يكون قد بدأ يدقّ: «طق — طق — طق — طق...» ولقد طوروا ذلك «الشعور الوجداني» هذا لديهم بحيث تحول عندهم الى مهنة. ومرة اخرى، ترى الى جانبك عداد غايغر هذا حياً، انما هو ينتظر حجة لكي يتهمك بشيء ما باسم الاخلاق الكريمة. فتود اذ ذاك من قبيل النكاية ان تلقي الى هذا العداد بشيء غير طيب او تحمله حمولة ثقيلة لكي يطقطق و... يتعطل من جراء فرط التوتر والغضب. اما اوليا فقد كانت انساناً آخر تماماً... كانت شريفة بدون تصنع، بدون تثاقل، وان صح القول، شريفة شرفاً عضوياً. في ذلك الحين، كان الجو في معهدنا متوتراً. وهذا، من جهة، طبيعي ومفهوم، فانت رجل عسكري وتفهم درجة سرية القضايا التي كنا نعمل فيها. ولقد كنا جميعاً ندرك هذه المسؤولية، ولكن ثقل الجو لم يكن في هذا الشعور

بالمسؤولية، ولا في الرقابة الذاتية التي كانت متطورة للغاية لدى شغيلتنا. كانت القضية غير هذه. كنا نشعر ان ثمة رقيباً شرساً، «عيناً ساهرة» مرتابة، تراقبنا جميعاً ليل نهار. فكأنما قرر احدهم انه اذا ما اغمضت هذه «العين» لحظة، فاننا في الحال سنفلت جميعاً، وسننسى اليقظة، وسنهرع لتسليم اسرار الدولة... بالاختصار، ان من اليسير الكلام عن هذا الآن، اما اذ ذاك... ولكن اوليا كانت، حتى في ذلك الجو الصعب، محافظة على ذلك المرح الدفاق وتلك البساطة. ولقد كنت اعلم، بوصفي رئيساً للمختبر، انهم لم يكونوا يحبونها كثيراً في هيئات، مثل قسم الملاكات. من حيث الجوهر، كان من الصعب مماحكتها: فان سيرة حياتها رائعة — محاربة من الجبهة، اوسمة حربية، مداليات. ومع ذلك... فقد قلت لها ذات يوم: «ايوه، لماذا انت على نقار معهم، ومن اي شيء نشأ ذلك؟» فاجابت: «من نكتة عن البيرة». وراحت تحكي لي النكتة. وهي الآن معروفة لدى الجميع: يحكي ان احد القادة في الجبهة قال شيئاً ما تافهاً بصوت خفيف جداً، فراح جميع مرؤوسيه يكررون هذه التفاهة بالوشوشة ايضاً كأنما هي سر من الاسرار الحربية. ولكن اتضح فيما بعد ان الامر كله هو ان القائد كان قد شرب كأس بيرة باردة، فبح صوته. وقد حدثتني اوليا اذ ذاك انهم قد استدعوها الى قسم الملاكات، وراح هؤلاء يسألونها عن شيء ما تافه بصوت خافت، خطير، «متكتم». اما انا — قالت لي — فقد اجبتهم بالوشوشة، ثم روت لهم هذه النكتة ذاتها. وقد حذرتها: «كفى، يا اوليا، حذار منهم». ولكنها قالت لي: «وماذا يمكن ان افعل؟ شيء مضحك

بالنسبة لي. تصور، يا ارستي بافلوفيتش، انك تحفظ في بيتك شيئاً ذا قيمة. وما من شيء اكثر منه قيمة في الحياة بنظرك. ويضيع، فتنتهي حياتك. واذا بك تلاحظ فجأة ان عمّا من الاعمام يروح يتعقبك كأنما لكي لا تعرض هذا الشيء للبيع في السوق. حماقة، أليس كذلك؟»

... سوى اني كنت عبئاً خائفاً عليها – يقول سوكولوف – وكان عليّ ان اخاف على نفسي... وانا الآن احدثك عن هذا. ذلك لأن القضية الرئيسية لم تكن تتعلق بي، بل بها. جرى ذلك سنة اثنين وخمسين... نقلوا اوليا من الفريق التركيبي لتحديد تحاليل نوع جديد من الوقود. كان المعهد كله ينتظر النتائج. وكان الجميع يعرفون ان طائرة تقف في مكان من المطار، بانتظار هذا الوقود. واعطت اوليا استنتاجاً ممتازاً. وبموجب هذا الاستنتاج اعددنا القسم الكبير من الوقود وبعثنا به الى المطار.

ومن جديد قطع سوكولوف حديثه، وقد ازداد انفعالاً. ثم اردف يقول، وقد تخلص من انفعاله:

– اتذكر هذا كله كأنه الآن. سنة اثنين وخمسين. كان الفصل خريفاً. والنهار دافئ، كأنه نهار صيف... كنا نعلم ان الطيران التجريبي كان مقرراً القيام به في العاشرة صباحاً. في الساعة العاشرة تماماً كان ينبغي ان تقلع الى الجو من مكان ما في مطار لا نعرفه طائرة معبأة بوقودنا. وكان مدير المعهد قد وعد بان يتلفن للمختبر فور العلم بنتائج التجربة. كان الجميع متوتري الاعصاب وقلقين في الوقت نفسه. فما كان الامر مزاحاً!.. الا اوليا، فقد كانت مطمئنة. تقول: كل شيء سيكون على ما يرام،

الوقود ممتاز. الساعة الحادية عشرة. الهاتف لا يرن. وفي الحادية عشرة والنصف، لم اعد اطيق اصطباراً، فتلفنت للمدير. فتجيب السكرتيرة: «ذهب، استدعوه الى المطار». الساعة الثانية عشرة. صمت. ويرن جرس الهاتف في الثانية عشرة والنصف. المدير يتكلم: «اصعد الى عندي، لفوق». واصرخ في السماعة: «والنتيجة؟ ما هي النتيجة؟» لا جواب. السماعة اعيدت... فاهرع الى الطابق الثالث. لم أبلغ الا غرفة سكرتيرة المدير. فقد كان في انتظاري هناك اثنان... كل ما ساقوله لك الآن، عرفته فيما بعد، بعد وقت طويل...

استدعى اوليا قاضي التحقيق. قال لها: «الطائرة التي اقلعت بوقودك انفجرت بعد ثلاث دقائق من انطلاقها. الطيار – المجرب قتل. وكنت قد اعطيت استنتاجاً بشأن هذا النوع من الوقود. وهو امامي. الهيئات الخاصة في معهدك تصفك بانك شخص واثق من نفسه عيّاب. وعليّ ان اوقفك على الفور. ولكني واثق منك. ان لك سيرة حسنة. فليس يمكن ان تكوني مخرباً. انك مورطة. فقولي من الذي اوقعك في مثل هذه الورطة؟»

واجابت اوليا ان احداً لم يوقعها في الورطة، وانها واثقة من صحة استنتاجها.

فقال المستنطق ان عنادها سخيف، حتى وان تكن على ثقة من استنتاجها. ذلك انها قد اتيح لها القيام بتجربة عيّنة صغيرة فقط، فمنذا الذي يستطيع ضمان نوعية القسم الاعظم كله؟ وهذا القسم قد افسد عن عمد. والوقائع في حوزة هيئة التحقيق. وكانت النتيجة ان احترقت الطائرة، واستشهد الطيار – المجرب،

وهو من المحاربين السابقين في الجبهة. وقد خلف اماً، وزوجة، وطفلاً عمره ستتان...

كان المستنطق يعرف كيف يصل الى الموقع الحساس من قلب اوليا. فراح يصف لها باسهاب حزن اسرة الميت. وقال ان الطيار الشهيد كان يحارب على الجبهة نفسها التي كانت فيها هي...

وكررت اوليا انها واثقة من استنتاجها، ولا تقبل بفكرة امكانية اختلال الظروف التكنيكية عند صنع القسم الاساسي من الوقود.

واذ ذاك سأل المستنطق: «ماذا كان عليك حسب التعليمات ان تفعلي لو انك لم تكوني واثقة حتى النهاية من نتائج التجربة الاولى؟»

فاجابت اوليا: «كنت طالبت بالثانية».

«وباية صورة – يسأل المستنطق – كتابياً؟»

فاعترضت اوليا قائلة:

«كلا، وما الداعي؟ كنت اكتفيت بالقول لرئيس المختبر اني اريد تكرار التجربة، ولكان اصدر امراً الى فريق التركيب لارسال العيّنة الثانية اليّ».

وسأل المستنطق: «ولعلك قد فعلت هذا؟ طلبت، ولكنهم لم يرسلوا اليك؟»

«كلا، لم اطلب».

والح المستنطق: «ربما كنت ناسية هذا الآن. لقد ابلغت سوكولوف عن نتائج التجربة الاولى، وربما كانت بصورة عامة

مرضية، واما انت فكنت تودين التأكد مرة ثانية، فقد كنت تعلمين ان الامر يتعلق بمصير، بحياة انسان، طيار. وقد طلبت، وان يكن بغير الحاح، وان يكن بصورة عابرة...»

فاعترضت اوليا: «لو اني كنت فعلت ذلك لكانت العيّنة ارسلت لي في الحال. فقد كان يكفي لسوكولوف ان تكون لديّ ظلال من الشك».

وابتسم المستنطق ابتسامة ساخرة، وقال: «نعم، لو انه لم يكن حقيراً، وعدواً للشعب».

فانتفضت اوليا واقفة، ولكن المستنطق ضرب بقبضته على الطاولة، وامرها بان تقعد، وراح يقرأ وثيقة طويلة يستنتج منها ان ارستني بافلوفيتش سوكولوف، اي انا، متستر، وان ابن عمه كان قد سجن سنة سبع وثلاثين بوصفه عدواً للشعب، وهو نفسه عميل للاجانب، مستخدم منذ بداية الحرب، وانه تنفيذاً لاوامر اسياده، قد تعمد اعداد القسم الفاسد من الوقود الجديد، الذي كان لا بد ان يؤدي استعماله الى كارثة...

وبعد ذلك اجلس المستنطق اوليا وراء الطاولة، واعطاها كومة من الورق، وقال لها ان تكتب تفسيرها بشأن كل ما جرى، وان تقدم الوصف اللازم لارستني بافلوفيتش سوكولوف...

وتابع سوكولوف قائلاً:

... وبعد وقت جد طويل اتفق لي ان قرأت هذا التفسير. كان جد مقتضب. صفحة واحدة. وقد كتبت اوليا انها على ثقة تامة من استنتاجها، وانها تستبعد امكانية حدوث عمل تخريبي عند اعداد القسم الاكبر، وتعتبر ارستني بافلوفيتش سوكولوف

انساناً مخلصاً للنظام السوفييتي شق لها الطريق لحياة ما بعد الحرب، وساعدها على ايجاد هدف تعيش وتعمل في سبيله في بهجة وفرح. وكل ما سمعته من المستنطق انما هو في نظرها محض خطأ فاجع. واعربت عن الرأي في ان خسارة الطائرة والطيار ناجمة عن اسباب لا علاقة لها بالوقود...

واذ ذاك بدأ الصراع بين اوليا والمستنطق. وقد استطعت تتبع جميع فصول هذا الصراع حين اطلعوني فيما بعد على محاضر استجواباتها.

كان المستنطق يهدد — وليس بدون اساس — بان في وسعه توقيفها على الفور كشخص قام بالتجربة الاساسية لذلك القسم من الوقود.

وما كان يمكن ان لا تدرك اوليا خطر موقفها. الا انها، كمساعدة مختبر مغمورة، ومحاربة سابقة، ما كان المستنطق بحاجة اليها بصفتها متهمة. ولكن كان يمكن لاوليا كشاهدة ان تغدو لقية لديه. فليفكر المرء فقط: امرأة روسية بسيطة، حاملة اوسمة، ومحاربة، تشهد ضد المتهم الرئيسي. ولكنها اجابت: «كلا!»

لقد انقذتني اوليا ميرونوفا. وقد استمرت المعركة مع المستنطق قرابة نصف عام. كانوا يستدعونها الى «الدار الكبيرة» يومياً، في بعض الاحيان، ثم يتركونها بسلام اسبوعاً، وآخر، ثم يستدعونها مجدداً، ومجدداً. وكلما دخلت مكتب المستنطق كان لديها كل ما يحمل على الاعتقاد بانها لن تعود هذه المرة الى البيت. ولكن بدون «نعم» منها ما كان في وسع المستنطق

ان يجعل لقضيتي خاتمة فعّالة. فقد كان، لعمرك «قانونياً». فمن المعروف الآن ان كثيراً من زملائه كانوا يحسمون الامور حسماً رائعاً بدون هذا التفقه... وقد زال كل هذا الكابوس في ربيع ١٩٥٣. ووصلت اللجنة المعينة مجدداً الى استنتاج يقول ان سبب الكارثة كان عطلاً في المحرك. والوقود الذي اشتركت اوليا ايضاً في صنعه بكل هذا التفاني، اصبح يستخدم في طيراننا النفاث... فليفكر المرء فقط كيف حلت عقدة الوشاية ببساطة. ولكن كان لا بد، لكي يمر هذا بـ «بساطة»، كما هو بيّن من تلقاء نفسه، ان يقوم في الحزب ناس فيقولون وحياتهم الشخصية مهددة بالخطر: «لن يستمر الامر بعد على هذا النحو!»

وصمت سوكولوف.

كانا جالسين على مقعد في حديقة صغيرة خالية من الناس قائمة وراء بناية المعهد. وبالكاد كانت تصل الى هناك ضجة الشارع.

وسكت الاثنان بعض الوقت. واخيراً سأل زافيالوف:

— ايوه، وماذا بعد؟ هل التقيت باوليا بعد ذلك؟

فراح سوكولوف يهز رأسه في أسى:

— الواقع ان لا! فما ان اطلق سراحي حتى ذهبت فوراً الى المعهد، فعلمت ان قد جرى تقسيم المعهد منذ وقت غير بعيد، وان معهدين قد انشآ على اساس معهدنا، وان الثاني المخصص كلياً لحل مسألة الوقود النفاث قد نقل من لينينغراد. وهذا امر طبيعي تماماً: فالمهمات الموضوعة امام البلاد في هذا الميدان لا حد لها. ولقد ذهبت اوليا مع هذا المعهد الجديد. واما الآن فاليك المسألة. انك لم تطرح عليّ سؤالاً طبيعياً واحداً — قال سوكولوف بغتة.

– وما هو؟ – سأل زافيالوف متيقظاً.

– ألم تعجب لما دعاني لأن احكي لك كل هذا؟ فانا لا اعرفك البتة. فبماذا فسرت هذا؟ بثرثرة عجوز؟ مهلاً، لا تقاطعني. بلى، اني لفي رغبة الى التحدث عن كل هذا. مرة، ومرة اخرى. اود ان اتكلم! وادراكي ان في وسعي الآن تسمية الاسود اسود، والابيض ابيض، بصراحة وبدون تحفظ، يبهجني ويبعث فيّ القوى والشباب، اذا شئت! أمفهوم لديك هذا؟ وثمة شيء آخر... القضية هي اني لم ار اوليا حين رجعت. وما ادري اين هي الآن. اما انت... انت، فانك ستجدها. انا عارف هذا. واثق من هذا. كان يكفي ان يراك المرء اذ ذاك، في تلك الغرفة، لكي يدرك انك ستجدها. الا فقل لها ان الشخص الذي هي بالنسبة اليه... – وسكت سوكولوف فجأة. وتقلصت عيناه، كأنما بفعل نور الشمس الساطع، وبدت على خديه بجلاء عروق حمراء. والتفت جانباً.

فقال زافيالوف، وهو يلامس باناة ساعد سوكولوف:

– طيب... فهمت كل شيء. سابلغها. ساقول انك تتذكرها. لن انسى شيئاً.

وقاما معاً عن المقعد.

ويقول زافيالوف كأنما هو يتحدث مع نفسه:

– اين ينبغي ان اذهب الآن؟ الى من اذهب؟ كيف السبيل للتوصل الى هذا المعهد؟.. – ويتذكر فجأة – اسمع، لقد اشرت الى جنرال كان قد اوصاك باوليا. اين هو؟ أتعرفه؟

فتذكر سوكولوف:

– اجل، اجل، بالطبع. كنيته – اوسوكين، الجنرال اوسوكين. على اني... لم اره منذ وقت بعيد. كنا فيما مضى نتلاقي، كما يقال، بحكم الوظيفة. كانت له علاقة بالطيران و – بصورة غير مباشرة – بمعهدنا. اسمه ايفان فيدورفيتش...

وسأل زافيالوف بصبر فارغ:

– هل تعرف رقم هاتفه، ومكان وظيفته؟

– كلا، مع الأسف. يبدو انه قد احيل على التقاعد...

فقال زافيالوف بصورة حاسمة:

– ساحاول البحث عن هذا الجنرال. سأصل اليه، ولو في اعماق البحار. فالجنرال، آخر الامر، ليس ذرة من غبار.

وقال سوكولوف:

– اتمنى لك السعادة و... ارجوك...

– نعم، نعم، لن انسى شيئاً. وشكراً لك.

– وعلى اي شيء؟

– على اوليا. على ما حكيت عنها. لن انسى شيئاً.

١٦ – اوسوكين

– كنيتي – زافيالوف. اتصلت بك هاتفياً... وقد سمحت لي بالمجيء.

رجل طويل القامة، جسيم، شائب، يقف في الجانب الآخر من وصيد الباب. يرتدي بنطالاً مدنياً ذا شيالات، وفي قدميه بنطوفلة منزلية، وعليه قميص ابيض مفتوح الطوق.

– الجنرال اوسوكين؟

– انا اوسوكين، ايفان فيدوروفيتش.

ولقد ودّ زافيالوف ان يقول على الفور، دون اضاعة للوقت: «اني بصدد ميرونوفا، اولغا ميرونوفا... هل تعرف اين هي الآن؟..» الا انه يشد صامتاً على يد اوسوكين المبسوطة له، ولا يلاحظ هو نفسه كيف تحول الى «وقفة الاستعداد».

ويقول اوسوكين:

– تفضل ادخل. انتبه. الاشياء عندنا مبعثرة.

الاشياء فعلاً مبعثرة. ففي الممشى قرب الجدار اكوام من الكتب المحزومة بالامراس. صندوق مفتوح محشو الى اعلاه بنشارة الخشب. وعلى الجدران بضع مستطيلات معتمة، هي آثار صور منزوعة منذ وقت قريب.

ويمشي وراء الجنرال ماراً بابواب مغلقة. ومن وراء احد هذه الابواب تسمع ضربات مطرقة. ويخاطب زافيالوف اوسوكين بفكره: «ولماذا نضيع الوقت، لماذا؟ في وسعنا ان نتكلم هنا، في الممشى، بضع كلمات، لا غير: «اني ابحث عن اولغا ميرونوفا. فهل تعرف اين هي؟..»

وعقب اوسوكين، يدخل زافيالوف غرفة كبيرة. اغلب الظن، انها مكتب الجنرال. طاولة كتابة، عليها نموذج طائرة نفاثة. وعلى الطاولة مصباح كهربائي مشتعل ذو اباجور اخضر. رفوف كتب، تكاد تكون فارغة. ما كان ثمة غير بضعة كتب على الرف الاعلى. وعلى الرفوف الاخرى آثار معتمة. وقرب طاولة الكتابة وضعت اكوام من الاضابير مربوطة بخيطان. وفي السقف كلاّب صغير عارٍ وبقايا اسلاك – واضح ان الثريا كانت معلقة هنا. ضربات المطرقة بالكاد يصل صوتها الى هذه الغرفة.

– ها انت ترى اية بعثرة للاشياء عندنا، فالمعذرة. – يقول اوسوكين بتأن. صوته منخفض، فيه شيء من البحة. فأية كلمة تلفظ بهذا الصوت تكتسب اهمية خاصة. – تفضل اجلس – ويحمل عن مقعد من الجلد كومة من الكتب المحزومة، ويضعها على الارض.

ويترامى زافيالوف على المقعد. انه حد عميق. ويجلس اوسوكين وراء طاولة الكتابة. ويقول:

– اني مصغ اليك.

هو ذا اخيراً!...

ويبدأ زافيالوف الكلام:

– ايها الرفيق الجنرال...

فيقاطعه اوسوكين بلطف، ولكن بغير ارتياح – كما بدا لزافيالوف:

– لست الآن في الخدمة. اسمي ايفان فيدوروفيتش. وهكذا، استمع اليك.

– هل كنت، يا ايفان فيدوروفيتش، تعرف اولغا ميرونوفا؟

وبدا لزافيالوف كأن وجه اوسوكين قد حلت عليه غمامة. فمال برأسه قليلاً الى وراء، وفتح اذنيه. او لعل ذلك قد خيل لزافيالوف، لا اكثر.

وبعد لحظات يجيب اوسوكين في هدوء:

– كنت اعرفها.

وما نطق بكلمة غير هذا، الا انه راح يتطلع الى زافيالوف بنظرات ثابتة.

وباستعجال، يواصل زافيالوف الكلام:

– القضية هي اني ابحث عنها. وقد وفقت لمعرفة عنوان البيت الذي كانت تسكن فيه منذ ست سنوات. ولكن ثمة في ذلك الشارع الآن عمارات جديدة، واما المعهد الذي كانت تشتغل فيه فقد نقل الى مكان غير معروف.

وتحت تأثير نظرة اوسوكين المتيقظة يغير زافيالوف لهجته. فيحاول ان يتكلم بشيء من اللامبالاة، كأن الامر ليس له عنده اهمية خاصة. الا انه، اذ يرغم نفسه، يبدأ بالانفعال على نحو اشد ايضاً. ويتابع الكلام:

– وجدت احد العاملين السابقين في ذلك المعهد. كان يعرف ميرونوفا، ولكنه لم يسمع عنها شيئاً منذ ان انتقل المعهد. كنيته – سوكولوف، بروفسور. قال لي انك انت قد اوصيت بدخول ميرونوفا الى المعهد. ولذلك فقد تصورت ان، ربما...

ولم يعد زافيالوف يحتمل نظرة هذا الرجل الكبير الشائب، المتيقظة وربما غير الراضية.

ويسأل اوسوكين:

– تعرفت بميرونوفا بعد الحرب؟

– كلا. كان ذلك على الجبهة. كنت في سلاح الطيران. وهي ايضاً. وعلمت فيما بعد ان اوليا قد استشهدت اثناء معركة جوية. وكان ذلك خطأ. انها لم تقتل.

ويصمت. ويصمت اوسوكين. ويود زافيالوف لو يصرخ: «لماذا انت ساكت، لماذا؟!»

– اجل، انها لم تقتل...

هكذا ينطق اخيراً اوسوكين ببطء واناة. وللمرة الاولى بعد تلك الدقائق يحوّل نظرته عن زافيالوف، ويرخي رأسه.

زافيالوف منتظر. واوسوكين جالس بلا حراك، مسنداً رأسه الثقيل الاشيب على يده. ثم ينطق بكلمة واحدة فقط:

– الاسم؟

فيسأل زافيالوف في ارتباك:

– الاسم؟ اسمها اولغا، كما تعلم.

– لا، لا، اسمك انت؟

– فلاديمير اندرييفيتش.

– فلاديمير... – يكرر اوسوكين – ايوه، نعم، أكيد، فلاديمير... – ويرفع اوسوكين رأسه، وينظر من جديد الى زافيالوف نظرة لا تريم عنه. ويبدو لزافيالوف كأنما عاد اوسوكين من الماضي. وكأنما لم يكن هنا في تلك الثواني. وها هو قد عاد من جديد ذلك الشخص الغريب. انه يلقى بكاهله على ظهر الكرسي ويبدأ بالكلام، في هدوء الآن، وترابط...

– اجل، انها لم تقتل. احترقت الطائرة، اما هي فقد تمكنت من الهبوط بالمظلة. كان قد جاء في تقرير قيادة السرية ان ميرونوفا قد استشهدت. ولكنها ظلت على قيد الحياة. سوى انها اصيبت بحروق ورضوض. وسريعاً ما اخذها المشاة. قضت نصف عام في المستشفيات. وبعد ذلك عادت الى فوجها...

ويقول زافيالوف بانفعال، وقد احس بألم جسدي من كلمات «اصيبت بحروق ورضوض»:

– وبعد، وبعد؟!

– وبعد؟ – يكرر اوسوكين السؤال – وبعد، تابعت الخدمة، كما ينبغي، في فوجها...

– وحكت لكم ذلك بعد الحرب؟

– لا، ولماذا؟ كنت اذ ذاك اعمل في القسم السياسي لفرقة من الطيران. والفوج الذي كانت فيه كان تابع لهذه الفرقة، ولذلك فمن الطبيعي...

– ولكن لِمَ لم تكتب اليّ حين عادت؟

فيجيب اوسوكين بصوت خافت:

– ولكنك كنت قد استشهدت، يا زافيالوف.

– استشهدت؟ انا استشهدت؟ كذب، خلط! لقد وقعت في اراضي العدو، ولكن هذا لم يدم غير شهر، ولكني بعد ذلك عدت من جديد الى فوجي!..

فاعترض اوسوكين قائلاً:

– ولكن خلال هذا الشهر ظهر مقال في الجريدة، يصف استشهادك وصفاً رائعاً.

– اي مقال، واين؟

– قلت لك في الجريدة. ولست اذكر اية جريدة.

– وقرأته اوليا؟

– نعم، بالطبع.

وللحظة، التقت نظراتهما من جديد.

ويسأل زافيالوف:

– واين هي الآن؟ هنا؟ في لينينغراد؟

– كلا، لقد قلت انت نفسك ان المعهد انتقل من لينينغراد. ولست ادري الى اين.

«غير صحيح، غير صحيح! – يكرر زافيالوف بينه وبين نفسه – انه يعرف. يعرف، ولكنه غير راغب في ان يقول. ولست اريد ان افكر في سبب عدم رغبته بان يقول، لست اريد، لست استطيع، ولن افكر! الا انه يعرف! فكيف السبيل لارغامه؟ كيف السبيل لانتزاع الجواب؟»

ويسأل زافيالوف في الحاح:

– أيمكن انها لم تكتب لك ولا مرة، ولم تأت الى لينينغراد ولا مرة، ولم تأت اليك؟

ـ كلا، ولا مرة.

هكذا يجيب اوسوكين، وفي رنة صوته مرارة وأسى.

ويزل لسان زافيالوف بالقول:

ـ لا اصدق!

فيقطب اوسوكين حاجبيه، ويروح ينقر باصابعه على الطاولة. ثم يقول بحدة، وبلهجة جنرال هذه المرة:

ـ لا ادرك سبباً لعدم تصديقك. لقد ابلغتك اني كنت اعرف اولغا ميرونوفا ايام الحرب. وفيما بعد لم نلتق. وفي عام ١٩٤٩، بحثت عني في لينينغراد، والتمست مساعدتها في الانتساب الى المعهد، الذي تعرفه انت. قالت انها قد انهت المدرسة الثانوية المهنية الكيماوية، وتود العمل في هذا المعهد بالذات. وكنت اذ ذاك ما ازال في الملاك، فساعدتها. وانتهى الامر.

وكان لكلمتي «وانتهى الامر» وقع القول: «في وسعك الانصراف». فينهض زافيالوف كأنما قد تلقى امراً عسكرياً ـ انه الفعل المنعكس قد عمل عمله. الا انه، في اللحظة التالية، يطرح عن كاهله سلطة العادة.

ـ ولست اصدقك الآن ايضاً، ايها الرفيق الجنرال. ففي وسعك ان توسعني سباً، وان تطردني من منزلك. ولكن ليكن في علمك: اني لا اصدقك. فلست تريد ان تقول لي الحقيقة عن علاقاتك باولغا، ولست تريد ان تقول لي اين هي الآن. ولكني احبها، وانت على علم بذلك. انها بالنسبة لي كل شيء. وسابحث عنها حيثما كانت. ما كانت قد اتمت الثامنة عشرة حين

17—871

التقينا. كانت اول من احببت في حياتي، وكنت انا الاول عندها... وانا ما متّ، ايها الجنرال اوسوكين، اني حي. انا الآن واقف امامك، واقول اني لن اخرج من هنا، فاهم؟ لن اذهب ما لم احصل على عنوانها. لست اعرف ماذا كان بينكما في ذلك الحين. ولكنك الآن لست بشاب. ولديك، على الارجح، اسرة. اما انا فما عندي احد. الا هي. لا احد، الا هي. وانا ايضاً ضابط سابق. أفيمكن ان لا يكون لك قلب؟ فاعطني عنوانها، أذهب.

وينتظر زافيالوف كلمة اوسوكين الاخيرة، في اقصى درجات التوتر. انه موقن بان هذا الرجل الطويل الجسيم يعرف كل شيء عن اوليا. يعرف، الا انه يتكتم. وكان زافيالوف مهيئ النفس لاسوأ الامور.

ولكن اوسوكين ما يزال صامتاً. شفتاه مطبقتان اطباقاً محكماً. الآن ستنفرجان. الآن سيصدر الحكم.

ويتكلم اوسوكين:

ـ هاك، اسمع، عنوانها ليس عندي. وقد قلت لك الحقيقة. ولكن... انت تقول انك لم ترها منذ سنوات عديدة. فهل تريد ان احدثك عنها؟ عن اوليا هذه التي كنت اعرفها، التي جاءتني الى القسم السياسي شاكية الاطباء، الذين كانوا قد منعوها من الطيران. فتصور: اطباء مشؤومون منعوا فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، قضت نصف عام في المستشفى بعد حروق ورضوض خطيرة، من التحليق بطائرة حربية. اني اعرف كل شيء، يا زافيالوف. اعرف انكما التقيتما للمرة الاولى على شاطئ الفولغا، وبعد ذلك مرة واحدة في المطار. لقد حدثتني

عن هذا... فيما بعد. وتلك المقالة التي يوصف فيها مقتلك، كانت على الدوام تحملها معها. كانت تحبك، يا زافيالوف...

ـ وانت ؟ ـ سأل زافيالوف مباشرة.

وعلى نحو مفاجئ، انفتح الباب، وظهرت في الوصيد امرأة نحيلة الجسم قصيرة.

واذ ابصرها اوسوكين قفز بسرعة خيل معها لزافيالوف انه كان يخشى شيئاً ما. وقالت المرأة:

ـ عفواً، ايفان، ما كنت اعرف انك لست لوحدك.

لم يكن نور مصباح الطاولة يبلغ وجهها، الا ان زافيالوف ادرك من نغمة صوتها ان هذه المرأة ليست في سن الشباب. فيجيب اوسوكين بسرعة كأنه في ارتباك:

ـ عفواً، فيرا، اني مشغول.

ـ ما كنت اعرف. انما كنت اريد ان اسأل فقط هل ابدأ بنزع السجف عن النوافذ. سانتظر. المعذرة.

هكذا قالت المرأة متوجهة اليهما معاً، ثم اغلقت الباب.

ـ ... وانت؟ ـ سأل زافيالوف مرة اخرى.

ـ كلا، ما كانت تحبني انا. ـ اجاب اوسوكين بكثير من البساطة ومن غير ان يدهشه السؤال ـ كانت تشفق عليّ، في الارجح. فقد وقعت اسرتي في الاراضي المحتلة من قبل الالمان. وكنت موقناً بانهم جميعاً قد قتلوا. وما وجدتهم الا في نهاية سنة اربع واربعين. ولكن بودي ان احدثك عن شيء آخر، يا زافيالوف. لقد كنتَ تحبها. وكانت هي تحبك. ولكن أكنت تعرف اوليا هذه معرفة حقة؟

ـ كنت اعرفها!

ـ لا تقاطع. اني لعلى علم بانكما قد رأيتما احدكما الآخر مرتين. وفي هذا كفاية للتحابب. الا ان غير كاف للمعرفة...

ـ كنا نتكاتب.

ـ رسائل؟ نعم، طبعاً...

وراح اوسوكين يتمشى في الغرفة متأنياً، ثقيل الخطى، حتى لقد بدا ان كل خطوة من خطواته تترك اثراً عميقاً على الارض. وواصل كلامه:

ـ جاءت اليّ في اليوم التالي بعد عودتها الى الفوج. كنت جالساً وراء الطاولة اكتب تقريراً الى القسم السياسي في الجيش. فاذا بي اسمع فجأة صوتاً نسوياً: «هل تسمح بالدخول، ايها الرفيق العقيد؟» كانت واقفة على باب الخندق المسقوف، تنتظر. فقلت لها: «ادخلي!» ولكنها استمرت واقفة في مكانها. كانت، على ما اظن، منفعلة.

والقى اوسوكين بنظرة صوب الباب، كأنما هو يرى اوليا الآن. وتطلع زافيالوف ايضاً جهة الباب، وخيل اليه فجأة ان اوليا واقفة فعلاً في الوصيد، مرتدية لباس الطيران الازرق ذاته. وعلى وجهها بقع من الشحم. تنظر الى اوسوكين. اما زافيالوف فلا تراه. كأن لا وجود له البتة.

وارتد اوسوكين عن الباب بحدة، وعاد من جديد يتمشى في الغرفة. لقد انمحت اوليا. وما من احد واقف في الباب. دفتاه محكمتا الوصد. الدفة اليمنى مغطاة بسجافة خضراء معتمة.

اما الثانية فكانت قد ازيلت من مكانها. وبدا للناظر كورنيش عار وسلك عليه حلقات معدنية.

وتابع اوسوكين:

ـ اعلنت قائلة: «الرقيب الاول ميرونوفا» ـ كأني ما كنت اعرفها! وهي الفتاة الوحيدة العضو في طقم محارب. وكأني ما رأيت صورتها قط في جريدة الفرقة، او جريدة الجيش... ولقد هنأتها بالعودة. واستفسرت عن صحتها. فاجابت: «كل شيء على ما يرام، كل شيء عال». كان على وجهها هنا ـ ورفع اوسوكين يده واشار الى صدغه الايمن ـ اثر جرح. كأنما من ضربة سيف. وما كان يمكن ان تخفيه العمرة الممالة بعناية. وكان على كف يدها اليمنى اثر حرق عريض. لاحظته على الفور حين قدمت التحية العسكرية وهي ما تزال واقفة في الباب. قالت: «اريد ان اطير». وبدلاً من ذلك اقترحت عليها قضاء اسبوعين في مستشفى الجيش. كان قائماً في المؤخرة، وكنا في بعض الاحيان نستخدمه من قبيل دار راحة للطيارين، الذين يعانون فرط الاعياء او الصابرين على جراحهم. ولقد رأيت كيف احمرت الندبة على صدغ اوليا حين ذكرت المستشفى. وقالت لي... أتعرف ما قالت لي؟ «ايها الرفيق العقيد، اسمح لي بمراجعة رئيس القسم السياسي في الجيش»...

وسرّح اوسوكين يده على كومة شعره الشائب، وسأل على نحو مفاجئ:

ـ أتريد قدح شاي؟ ساطلب الآن... ـ وهب واقفاً، وسار خطوة الى الباب.

ـ لا، لا! ـ صاح زافيالوف في خوف من ان يقطع اوسوكين حديثه.

ولكن اوسوكين نسي انذاك اقتراحه. واستولت عليه الذكريات من جديد. فجلس على كرسي، قرب مقعد زافيالوف، وواصل كلامه:

ـ ولقد راجعت قائد الجيش ايضاً. وبدهي انهم لم يسمحوا لها بالطيران. كان قسمنا السياسي يبعد خمسة كيلومترات عن الفوج الذي كانت تعمل فيه. فذهبت الى هناك ذات مساء. ذهبت للتباحث مع الضباط السياسيين في الفوج. ولكن هذا لم يكن امراً تستدعيه الضرورة. انا اعرف ما تفكر به الآن، يا زافيالوف، وانك لعلى حق. اجل، لقد ذهبت الى هناك لكي اراها. كنت اقنع نفسي بان من واجبي، واجب الضابط السياسي ان اعرف كيف حالها، وكيف تحتمل الرفض. بموجز القول ـ وابتسم اوسوكين ـ ان استوضح وضعها السياسي ـ المعنوي... ولكن الامر كان غير ذلك. كانت في جميع تلك الايام ماثلة امام عيني. قصيرة، عليها قميص عسكري مشدود بزنار شداً وثيقاً. واذ ذاك، وللمرة الاولى، تحادثنا ما لا يزيد عن عشر دقائق. ولكني كنت احس، كنت اشعر لديها بشيء ما كان يستولي عليّ. كان فيها شيء ما من اقصى الانفعال، استعداد للتغلب على كل شيء وتحطيم كل شيء: الرتب، وذوي النفوذ، والمنطق، والنظام الداخلي ـ كل شيء، على ان تبلغ هدفها ـ ان تطير... وانا ايضاً، يا زافيالوف، طيار محترف، وعسكري عامل. اعرف ما يعني، بالنسبة للطيار، ان ينفصل عن

الطائرة. ولقد شهدت بأم عيني كيف كان يبكي فتيان اشداء حين حدث لهم ان بدلوا المهنة بحكم الظروف. ولكن امام عيني كانت تقف فتاة نحيلة، اصيبت بصدمة رهيبة، وما تزال عليها ندوب ظاهرة من الحروق. وهي تدافع بعناد عن حقها — حقها في ان تذهب الى القتال، من جديد، ومن جديد. وفي الحق، لقد رأيت انساناً، يتلهب حماسة للقتال. كنت اشعر ان القضية هنا ليست قضية تحليقات فقط، ليست مجرد رغبة في الطيران وفي المجازفة بالحياة من جديد، بل هي شيء آخر تماماً. ولعلي اسمّي هذا ارادة للحياة. ولكن لا للحياة وحسب. كلا، فالجميع يريدون الحياة. كان لديها شيء ما اكثر — هو الاستعداد للحياة الزاخرة الطافحة، واعتبار هذا سعادة. حين تهب العاصفة وينهمر المطر مدراراً، يبادر الانسان العادي بصورة طبيعية الى البحث عن ملجأ يعتصم به. ولكن ثمة اناساً يرون السعادة في مواصلة السير قدماً، في مجابهة الرياح، والامطار، والاعاصير، والشياطين، والابالسة!.. هذا ما كنت اشعر به اذ ذاك لدى تلك الفتاة. فهل كنت انت ايضاً، يا زافيالوف، تشعر بهذا لديها؟

— ا... لست ادري — اجاب زافيالوف بصوت خافت — ما كنت افكر قط في هذا. كانت بالنسبة لي اوليا، اوليا وحسب...

— بالفعل، لكل رأيه. اما انا... كلا، ما كنت على خطأ. كانت كما كنت اتصورها. وانت ما كنت تعرفها، يا زافيالوف، ما كنت تعرفها البتة. «اوليا وحسب»... مضحك. من مثل هذه الفتيات تخرج البطلات. وبالفعل كانت هي بطلة.

ولكني في تلك الدقائق ما كنت افكر لا في مآثرها الحربية، ولا في استدعاء مراسلين وحفزهم على تكريس حقل لها في الجريدة، مع انه كان من واجبي حسب وظيفتي ان افعل ذلك بالذات... انما كنت اريد ان اراها. ان اكون بقربها. كنت اشعر بقربها اني احسن حالاً وارضى بالاً... وقد سبق ان قلت لك ان اسرتي كانت في الاراضي المحتلة. وكنت اعتقد ان زوجتي وابنتي قد قتلتا. والحق اقول لك اني كنت انتظر، في ذعر، ذلك اليوم الذي ستنتهي فيه الحرب، ويحل الهدوء، فاذا بي انا، فجأة، لا ادرك فقط، بل احس ان كل شيء قد انتهى، ولم يبق لي اي امل، وقد بقيت لوحدي...

كنت اذهب الى اوليا في الفوج...

كان زافيالوف يصغي الى اوسوكين، دون ان ينبس ببنت شفة. كان يرى كيف كان يتبدل هذا امام عينيه. فمن قبل، حين كان اوسوكين يتمشى في هذه الغرفة الكبيرة بخطوات ثقيلة موزونة، بدا له فاتراً، خالياً من المشاعر، كأنه الدبابة. اما الآن فقد كان كله في حركة، وكأنما في صدره العريض، كالترس، ناراً غير مرئية، تتأجج.

وفجأة اسدل اوسوكين رأسه، وما عاد ينبس ببنت شفة. ولكن زافيالوف خيل اليه ان الجنرال، في هذا السكون المفاجئ الذي حل عليه، ما يزال يرى اوليا امامه. انه يراها، ولكنه لا يريد لزافيالوف ان يراها هو ايضاً.

ومن جديد راحت المطرقة تقرع في الغرفة المجاورة. وكانت الضربات الموزونة الصماء تطن موجعة في اذني زافيالوف.

– ايوه، تابع، تكلم! ما لك سكت فجأة؟

وكأنما ايقظ صوته اوسوكين. فرفع رأسه، وتطلع الى زافيالوف في ارتباك، كأنما هو لا يفهم كيف وجد هذا الشخص هنا.

واستند الجنرال الى ظهر المقعد وتكلم:

– لقد قلت كل شيء.

– كيف، كيف «كل شيء»؟ – تساءل زافيالوف غير متمالك نفسه – ولكن، طبعاً! انا افهم، بعد ذلك يأتي ما لا يجدر بي ان اعرفه. ولكن أمن الممكن، ايها الرفيق الجنرال، انك تتصورني ضيق الافق، غير ان يمكن ان تكون له مدعيات على امرأة مقتنعة بانه مات؟

فسأل اوسوكين متغضن الوجه قليلاً من القرف:

– مدعيات؟

– اني لم احسن التعبير، فاعذرني.

– معذرة؟ ولكن على اي شيء ينبغي ان اعذرك، يا زافيالوف؟ وهل ترى هنا هي المشكلة؟

– الا، فساعدني على ايجادها، ساعدني!

– لعلك تتصور اني ما كنت لاعطيك عنوانها لو انه... لو انه كان معي؟ ولكني اكرر القول: لست ادري اين اوليا الآن. لقد انفصلنا احدنا عن الآخر سنة خمس واربعين...

– كيف؟

– كيف؟ – كرر اوسوكين – طيب، سأقول لك هذا ايضاً. في حزيران (يونيو) سنة خمس واربعين – وكانت الحرب

قد انتهت منذ قليل – تبين لي ان عائلتي – الزوجة والبنت على قيد الحياة... كلا، لم يتبين لي انا، انما تبين لها هي، اوليا. لا على نحو واضح جلي، ولا بشكل مؤكد... مجرد شعاع خفيف ضئيل من الأمل. اتفق لها ان التقت باحد الانصار من تلك الاماكن، التي كانت فيها اسرتي اثناء الحرب. فقال لها انه سمع، سمع فقط من احدهم، ان الانصار قد تمكنوا من نقل اسرتي عبر خط الجبهة... فحكت لي اوليا هذا في ذلك المساء بالذات. وكان هذا مساءنا الاخير... وقد ارغمتني على التعهد، على القسم بان ابدأ البحث في اليوم التالي... وقد سألتني يا زافيالوف، كيف انفصلنا والحالة هذه؟ اي نعم، ها انت الآن تعرف هذا ايضا.

وحلت فترة صمت طويلة.

ثم قال اوسوكين:

– وللمرة الاولى، بعد انفصالنا، تلفنت لي سنة تسع واربعين. التمست مني مساعدتها في الانتساب الى المعهد، وقد ساعدتها. وما تلفنت لي بعد ذلك قط.

– ولا مرة؟ – سأل زافيالوف بصوت خافت.

– ولا مرة. أتستغرب هذا؟ ان لها قلباً، يا زافيالوف. قلب كبير. فما الداعي لأن تنغص عيشي؟

وماذا بعد؟ الحديث، كما يبدو، قد انتهى. ونظر زافيالوف الى الساعة. السابعة الا عشر دقائق. لقد قضى عند الجنرال قرابة ساعة. وحان له ان ينصرف. اوسوكين تنتظره زوجته. الى اين ينتقلان؟ ينبغي، من قبيل الكياسة، طرح سؤالين او ثلاثة على اوسوكين، لا يكون لها اية اهمية، ثم الانصراف.

فقال زافيالوف بلهجة رسمية بارزة:

ـ شكراً على الحديث، ايها الرفيق الجنرال. ليس يحق لي تأخيرك. وفضلاً عن ذلك فاني ارى ان الوقت لديكم ضيق ـ انتقال. هل عينت لوظيفة جديدة؟

ـ عينت.

ـ فرقة او منطقة؟

ـ ذاهب لقيادة مؤسسة اقتصادية. سوفخوز.

فهز زافيالوف كتفيه.

ـ سوفخوز ـ هذا ـ ينبغي الاعتقاد ـ شيء رمزي؟

ـ واية رمزية قردية هذه؟ ألا تفهم اللغة الروسية؟ اني ابين لك: عينت مديراً لسوفخوز، عليّ ان انظمه في كازاخستان.

كلا، واضح ان الجنرال لا يمزح. كازاخستان... الاراضي البكر... بلى، الى هناك يذهب الآن الكثيرون. ولكنهم من الكومسومول، من الشبان! اما هذا الجنرال المتقدم في العمر...

ويقول زافيالوف:

ـ عفواً، ولكن هذا لا يدخل نوعاً ما في الرأس. فاية صلة لك بالزراعة، انت العسكري العامل، الجنرال؟ وفوق ذلك، في مثل عمرك...

انهما الآن يتحدثان كأن لم يكن من شيء قد قيل فيما بينهما. فذلك الحديث قد انتهى.

ويجيب اوسوكين:

ـ اولاً، ان عسكرينا العاملين ما هم بالارستوقراطية القيصرية، ولا هم كفئة الضباط البروسيين. كثيرون منا جاؤوا

من الريف، وفي وسعنا ان نعود الى الريف. اما بشأن العمر... فالقضية، يا زافيالوف، هي اني ما ازال راغباً في ان اعيش. اما العيش في هدوء وراحة بال فمعناه ان يموت المرء على فراشه يوما ما. وما اريد ان اكون من اولئك الجنرالات الذين يموتون على اسرّتهم. وماذا بقي لي اعمل، اذا كنت ما ازال راغباً في ان اعيش؟ ان روحي لا يشتريها الشيطان، اجل، وليس هذا بمعتاد في بلادنا ـ ان يتاجر المرء بروحه. فها انا ذاهب الى السوفخوز.

فيقول زافيالوف وهو ما يزال في حيرة:

ـ يعني انك ستترك الشقة في لينينغراد وستذهب الى سهوب كازاخستان، لكي...

ـ اي نعم، يا صديق، لقد خدمت في الجيش خمسة وثلاثين عاماً، منهم ثمانية اعوام عشتها في الخنادق المسقوفة. وتذكر كيف كانت الحال على الجبهة؟ اليوم نحن واقفون في الخنادق المسقوفة، وغداً في قصر بارون، وبعد غد ـ في الخنادق المسقوفة من جديد. وحتى قبل الحرب، ما كنت طويل المكث في مكان واحد. ولقد ألفت ذلك. ساصل الى المكان ـ وساجمع فوراً جماعة جنود الهندسة...

ـ بلى، ليس في السهوب جنود الهندسة!

ـ ها ـ ها، خلط. جنود الهندسة موجودون في كل مكان. انما قد يكون لهم هناك غير هذا الاسم. وفي الحق، ما هو جندي الهندسة؟ بنّاء. وهو لا يشتغل بالالغام فقط... وهل تراك انت تلومني؟ وهل تراك تحسب ان الجنرال قد ارتكب سخافة؟

وهل ترى عليه ان يمشي وعلى رأسه القلبق في جادة نيفسكي، وان يروح يوبخ من لم يؤد التحية في وقتها، وان يأخذ بطاقة للسينما متخطياً الدور... هكذا؟ ان هذا لن يكون! ! مفهوم؟ والآن، اتمنى لك العافية. فعليّ ان انزع السجف.

فقال زافيالوف:

ـ دقيقة اخرى فقط. اود ان اسأل... ولسوف اذهب. اكاد لا اصدق انك ستتخلى هكذا عن كل شيء هنا وتذهب... لا، لا، ليس هذا هو الامر... لست اعني وسائل الترف، ولا الشقة، ولا سواها... بكلمة، أتعتقد انك انت بالذات يجب ان تذهب؟ هل انت على اقتناع من انك ستتمكن من تنظيم سوفخوز وضبط عمله؟.. بكلمة... هل انت مؤمن بذلك؟

وراح اوسوكين ينظر في عيني زافيالوف نظرة ثابتة يقظة. ثم فاجأه بالسؤال:

ـ اسمع، ما موقفك انت من عبادة الشخصية؟

فحملت صراحة هذا السؤال وبساطته زافيالوف على ان يهز كتفيه ويبتسم. ثم يجيب:

ـ انا؟! يا لغرابة السؤال... من جراء هذه العبادة وكل ما يتصل بها اخرجوني من الجيش. ذلك اني كنت في الاراضي المحتلة.

ـ مفهوم. يعني، لا تحبها؟

ـ لا احبها؟ وهل ترى هذه هي الكلمة؟

ـ مهلاً، مهلاً! لا تهز بساعديك. كنت اتوخى شيئاً آخر حين طرحت عليك السؤال... كان بودي ان افهم هل تريد انت ان تناضل... هذه هي القضية. لعلك ترى ان شجب

العبادة وكل ما كان يتصل بها، انما هو، بالتأكيد، امر طبيعي، وانه الآن، بعد المؤتمر، لأمر مشروع تماماً. ولكني اسائلك عن شيء آخر. فالعبادة بالنسبة لي، مثلاً، ليست مجرد تأليه ستالين. وليست الاعتقالات ومعسكرات الاعتقال وحسب. ان اعتقال الابرياء قد توقف عندنا، كما يعلم الجميع. والمعتقلات تفرّغ في كل يوم، وجلي انها عما قريب ستغلق على الاطلاق. ايوه، ولكن ماذا بعد؟

ـ يعني؟ ماذا يعني «بعد»؟

ـ أتراك لا تعتقد، يا زافيالوف، ان العبادة ليست «عاش زعيمنا ومعلمنا العقري» وحسب، ولا هي القرع ليلاً على باب انسان بريء وحسب؟ وهل ترى ليس للعبادة مظاهرها في اقتصادنا، في الزراعة؟ وما الذي تعتقد انت: هل القضاء على العبادة هو مجرد الكشف عن الجوانب القاتمة من شخصية ستالين؟ مجرد ازالة التمجيد واغلاق المعتقلات؟ ولكن كيف الحال بالنسبة للريف الخرب؟ لعلك قرأت قرارات اجتماع اللجنة المركزية؟ فكيف السبيل لاعادة الحقيقة وحقوق القوانين الموضوعية في اقتصادنا في حين انها قد حل محلها التعسف الاقتصادي، والاداري؟ اليك مثلاً واحداً فقط: كم من السنوات كتبنا واعلنّا ان ليس ماركسياً من ينكر مبدأ المصلحة المادية في عهد بناء الاشتراكية والشيوعية. اما بالفعل؟ هل تراك فكرت في كل هذا؟ وما هذا غير واحد من الامثلة. فاذا كان الامر فقط امر شجب العبادة فان في وسع المرء، بالطبع، ان يجلس في بيته او يلقي خطاباً من على المنبر. اما من اجل القضاء على عواقبها،

فلا بد من النضال، اي لا بد من العمل. أتفهم، العمل! لقد سألتني هل اؤمن بقواي؟ اؤمن! واليوم، بعد المؤتمر، اؤمن بوجه خاص! ولكن القضية ليست قضية ايمان وحسب، الا فافهم هذا، بل هي قضية الرغبة في العمل، قضية الاستعداد للعمل. العمل — كرر اوسوكين بحدّة بل وبقسوة، كما بدا لزافيالوف — اني لن ارفع السوفخوز على كاهلي لوحدي، هذا كلام مضحك. ولكن ما ينبغي عليّ ان اعمله وما بوسعي ان اعمله، ينبغي ان اقوم به انا بالذات، لا سواي. فهل تفهمني الآن؟! الايمان لا شيء، اذا كان الانسان لا يعمل...

وصمتَ قليلاً، ثم اضاف فجأة:

— اوليا ما كانت فقط مؤمنة بانتصارنا. كان تريد بلوغه. كان يبدو لها ان رصاصتها وحدها ستجهز على العدو، وان مثالها لوحده يلهم الرفاق. وما كان حباً للشهرة، يا زافيالوف. انما كان هذا حماسة. والآن — هذا كل شيء. فإذهب.

ومضى زافيالوف ببطء نحو الباب. وكان قد همّ بفتحه، حين صاح به اوسوكين:

— انتظر.

واقترب من الطاولة، وسحب جرارها بحركة عنيفة ثم تناول، من غير ان ينظر، مجموعة من الاوراق، محزومة بسلك المطاط.

وابقى اوسوكين الاوراق في يده، مديراً ظهره لحظة لزافيالوف. ثم دنا منه ومد اليه صورة فوتوغرافية. وقال ببساطة:

— خذ. هذه هي. وها قد سلمتك الآن كل ما له علاقة بها. كله.

١٧ — إ. ايفانوف

كانت اولى محاولات زافيالوف، بعد عودته الى موسكو، ان يتبين الى اين انتقل هذا الم. ب. ع. المغلف بالاسرار وقد انتهت هذه المحاولات بالاخفاق.

ذهب الى وزارة الصناعة الكيماوية، والى الادارة المهتمة بقضايا الوقود، والى اكاديمية العلوم. وكانوا يستقبلون زافيالوف بلطف ويصغون الى قصة تحرياته بعطف. ولكن ما ان يشير الى المعهد ويسأل اين هو الآن، حتى تتحول عنه على الفور عيون من يتحدث اليهم، ويبدو على الوجوه ظل من التعب، ويرفع الناس اكتافهم ويجيبون اجابة غامضة.

ولقد ادرك زافيالوف صعوبة الوضع الذي هو فيه. فليس لديه مستندات تشهد على قرابته لأولغا. ومن المؤكد ان لو كان البحث جارياً عن زوجة، او اخت، او بنت، او ابن، لكان الجميع ابدوا المزيد من العطف، ولقدموا له المساعدة. فلقد كانوا يسألون زافيالوف:

— من هي بالنسبة لك؟

— من معارفي... معرفة وثيقة... صديقة...

— هـ — هم... ها — ها...

وما كان في وسع زافيالوف ان يقدم لهؤلاء الناس المرتبطين

بواجب الوظيفة غير الحديث بغير كثير من الوضوح عن تحرياته. ولكن ما كان هذا بالامر الكافي لحمل ماكنة المؤسسات الحكومية الهامة على الدوران.

وما كان ليتهم هؤلاء الناس، انما كان يضع نفسه مكانهم، فيدرك انه، اذا جاءه شخص غير معروف يريد الحصول على عنوان مؤسسة سرية، لكان استقبل هذا المراجع، على الاقل، بالحذر والتحرز.

ولقد قالوا له اخيراً: «طيب. اكتب رسالة الى هذه الرفيقة... ماذا تسميها؟.. ميرونوفا، اولغا اليكسييفنا.سجل عنوانك سنحاول القيام بشيء ما. استيضاح شيء ما. يمكن ان تصل رسالتك الى المرسلة اليها، اذا هي كانت بالفعل تشتغل في المؤسسة التي تعنيها».

وسأل زافيالوف:

– كم سيمر من الوقت حتى اتلقى الجواب؟

– يصعب القول... ربما شهر...

وكتب مثل هذه الرسالة. وابقى المغلف غير المغلق في الدائرة.

... ولكن في الوقت الذي كانت فكرة الشهر بلا عمل، شهر الانتظار، تبدو لزافيالوف غير محتملة حقاً واطلاقاً، رن جرس الهاتف في غرفته.

– الرفيق زافيالوف، ممكن؟

– انا هو.

– اين كنت ضائعاً؟ منذ يومين وانا اتلفن لك.

– من المتكلم؟

– فيلونوف.

– عفواً، اي فيلونوف؟ من اين؟

– مراسل مصور. كنا قد التقينا في ادارة تحرير مجلة «الشعاع». هل تذكرت؟

فأكد زافيالوف في انفعال:

– نعم، نعم، بالطبع.

والصق السماعة باذنه، واغلق الاذن الاخرى براحة يده.

وبغير اكتراث وكأن الامر عرضي، سأل فيلونوف:

– ايوه، هل تراك وفقت في العثور على تلك المرأة؟

– حتى الآن، لا – اجاب زافيالوف. وكلمح البصر هدأ انفعاله. واصبح صوته جافاً. اي شيطان اوحى لهذا الغلام، لهذا المخنث ذي السترة النايلون بان يتلفن له؟ المجرّد ان يستفسر عما اذا كان قد وجد اوليا ام لا؟ وما شأنه في هذا؟ ماذا اصابه؟ لطف مفاجئ؟

– ... اذن، اعطني العنوان...

فسأل زافيالوف:

– العنوان؟.. ولكني قلت لك...

فقاطعه فيلونوف قائلاً:

– لا،لا، عنوانك انت!

– عنواني انا؟ ولكن لماذا؟

– لا تقلق، ما انا قادم اليك لتناول طعام الغداء – هكذا قاطع ذلك الفتى الملحاح من جديد زافيالوف – على انك، كما يقال، ستدفع الحساب. ايوه؟ ساكتب...

كلا، واضح ان هذه المخابرة الهاتفية ليست عقيمة. ان فيلونوف هذا يعرف شيئاً ما. ويستولي الانفعال من جديد على زافيالوف. ويسرع الى املاء عنوانه. ويسأل في الوقت نفسه:

– هل وفقت لمعرفة شيء ما؟

فيقول فيلونوف غير مجيب على السؤال:

– بعد عشر دقائق سأكون عندك. – ثم يضيف: – اني راكب سيارة.

وتروح ترن في الهاتف دقات متقطعة. لقد علق فيلونوف السماعة. وانتهت المخابرة. وتمر بضع ثوان قبل ان يضع زافيالوف ايضا السماعة. ويتطلع الى الساعة. بعد نصف ساعة، ما كان ليكون في البيت. لكان ذهب الى العمل.

أيمكن ان يكون هذا المراسل المصور قد عرف شيئاً ما؟ شخص واحد في ادارة التحرير كان يحمل قضية زافيالوف في قلبه – كوروستيليوفا. ولو انها كانت قد وفقت لمعرفة شيء ما، لكانت تلفنت هي، بالتأكيد. وهي وحدها تعرف رقم هاتف زافيالوف.

ومع ذلك فقد تلفن فيلونوف بالذات.

ليس ينبغي تعليل النفس بامل فارغ. فلقد بدا لزافيالوف غير مرة انه قد ادرك غايته: يكفي الذهاب الى العنوان المذكور، يكفي ان يقرع الباب... اصبح الآن ذا خبرة. ألف فكرة ان الدرب ما يزال طويلاً. وليس يمكن ان تكون آثار اوليا الاخيرة قد كشف عنها هذا الفتى بالذات من هيئة التحرير. ولو كان لديه اخبار بالفعل لكان في وسعه ان يقول عنها بالهاتف. ولكنه

لم يقل شيئاً، اللهم الا العبارة البلهاء: «ستدفع الحساب». ظاهر ان ليس ثمة شيء واقعي.

ويذهب زافيالوف الى الممشى، فيفتح الباب، وينتظر. وفي الوقت نفسه يسمع احدا يصعد الدرج قافزا بسرعة. وها هو قد بات هنا في فسحة الدرج... انه فيلونوف. هذا الفتى اليوم لا يشبه قط ذلك الذي التقى به زافيالوف في ادارة تحرير مجلة «الشعاع». فتى اليوم يبدو اصغر، غلاما بكل معنى الكلمة. يلبس قميص تنس عادي، داخلاً في البنطال. يذكر برياضي شاب عائد لتوه من سباق المراحل، وهو الآن يلهث بصعوبة.

ويتكلم فيلونوف بلهفة، دون تحية، كأنما هو يواصل الحديث الهاتفي:

– اي نعم. هيا تحرك بالطائرة الى تايغينسك. حالاً. والاّ فانه سيسافر. منذ يومين وانا اتلفن لك. تايغينسك، ارسينييفسكايا ٢٥، الشقة رقم واحد. واضح؟

ويتأمل زافيالوف فيلونوف مشرد الذهن. لماذا تايغينسك؟ ومن سيسافر؟ ومن يسكن في ارسينييفسكايا ٢٥؟

ويتابع فيلونوف قائلاً:

– يمكنك طبعاً ارسال برقية. ولكنك لا تستطيع تبيان كل شيء فيها. واما الرسالة فلن تصله. ولذلك فاذهب بالطائرة!

– ولكن الى اين؟ والى من؟

– اوف، يا رب، ولكن الى ايفانوف، طبعاً! الى إ. ايفانوف، الذي التقط تلك الصورة. ولكن اعلم انه بين يوم

وآخر سيسافر الى سوتشي، فعليك ان تستعجل! واضح؟ انتهى كل شيء. اني ذاهب. اعطوني السيارة لربع ساعة...

ومن الشارع، كان يسمع، عبر النافذة المفتوحة، صوت زمور سيارة فارغ الصبر.

ويصيح فيلونوف:

ـ انتهى كل شيء. انا ذاهب.

فأمسك به زافيالوف عند الباب. ووقف، سادّا المخرج، وقال بحزم:

ـ لن تذهب الى اي مكان!

ـ كيف لن اذهب؟ لقد وعدت باعادة السيارة بعد ربع ساعة. فرقة المصورين تنتظر هناك. ينبغي ان تذهب الى مكان ما للتصوير!

فقال زافيالوف:

ـ الفرقة ستذهب. اما انت فستبقى. وبعد ذلك ساوصلك الى اي مكان لازم بالتاكسي. وانا ايضا مستعجل للذهاب الى العمل. سآخذ تاكسي، واوصلك. هنا موقف تاكسي قريب.

قال زافيالوف هذا واغلق قفل الباب، واخرج المفتاح، ووضعه في جيبه. ثم مضى من الممشى الى الغرفة، واقفل من خلفه الباب الثاني. وذهب بسرعة الى النافذة، وصاح:

ـ ايها السائق!

فأطل السائق برأسه من نافذة السيارة. فصاح زافيالوف:

ـ الرفيق فيلونوف سيتأخر! سيعود بسيارة اخرى. اما انت فاذهب. مع السلامة!

ولوح للسائق بيده، وفتح الباب المؤدي الى الممشى، وسمح لفيلونوف الغاضب بالدخول. وكان المراسل الآن اشبه بديك صغير متنفش متحفز للعراك. كان وجهه، بل واذناه، قد اصطبغت بالحمرة، وتوثبت خصلة صغيرة متمردة من شعره.

ـ ما هذا الفصل الذي تلعبه معي؟

هكذا قال فيلونوف، وهو يلهث من الاستنكار ومن الشعور بالمهانة.

فاجاب زافيالوف بلهجة مسالمة:

ـ كلا، يا صديقي العزيز، انك انت الذي تلعب معي فصلاً. فكل ما قلته لي، اشبه ببرقية مشوشة. كان في وسعك، باسوأ حال، قراءة هذا النص السخيف بالهاتف. فما الذي احوجك لان تجيء اليّ؟

ـ دعني انصرف على الفور!

ـ طبعاً. ولكن ستقول لي اولاً ما كنت تريد، بوضوح وبشكل مفهوم. واذ ذاك لن ادعك تنصرف وحسب، بل ساوصلك الى ادارة التحرير. فليس يمكن ان تكون جئت اليّ لمجرد ان تنطق بكل هذه الغوامض.

فقال فيلونوف ونظره الى الارض:

ـ مجرد اني كنت جد مستعجل... مجرد اني كنت راغباً بان ارى كيف ستفرح... ولكن بدلاً من ذلك...

فقال زافيالوف بلطف:

ـ ولكن، يا عيني، ان ما قلته لي ما هو الا خلط بخلط.

شيء غامض غير مفهوم. هل رأيت ايفانوف هذا، نعم؟ فلِمَ لم تسأله رأساً اين التقط تلك الصورة؟

فقاطع فيلونوف زافيالوف قائلاً:

– ما رأيته قط!

فاردف زافيالوف قائلاً بكل لطف:

– ولكن اجلس، يا صاحبي، اجلس، اجلس. كم عمرك؟

فاجاب فيلونوف وهو ما يزال مقطب الجبين:

– ثلاثة وعشرون.

– اي اني كنت اصغر منك حين التقيت بتلك الفتاة. فلا بأس ان اتحدث معك بدون رسميات؟

– لا بأس – تمتم فيلونوف.

– قلت انك كنت راغباً في ان تجلب لي الفرحة. فشكراً لك على هذا. ولكن فرحة الانسان ينبغي ان تسلم له بعناية. فلا يجوز ان تحشر في يده حشراً على العمياء، كيفما اتفق... بالاختصار، انك تفهمني. فهات الآن احك لي كل شيء بالترتيب. وهكذا، التقيت بايفانوف...

فصاح فيلونوف:

– حقاً، اني لم اره قط، ايفانوف هذا اللعين، هل يمكن ان تفهم اخيراً؟ بعث برسالة، واضح؟

– ارني هذه الرسالة.

– اف، وهم يسلمونني اياها! بعد حكايتك اتخذت لدينا اجراءات صارمة... وفي الحق، لا شيء في رسالته، لا شيء له قيمته بالنسبة لك، اللهم الا العنوان. يكتب انه يشتغل في اقاصي الشمال، حيث تعهد بان يعمل آتياً من تايغينسك. وهو عازم على

اخذ عطلته بعد عشرة ايام، وسيذهب لقضاء يوم او اثنين في بيته، في تايغينسك، ثم – الى سوتشي. وقد حسبت بناء على تاريخ رسالته انه يجب ان يكون قد عاد اليوم الى تايغينسك...

– اسمع، اني لا افهم لماذا كتب لكم ايفانوف كل هذا؟ بلا داع ولا سبب؟

– كيف بلا داع ولا سبب؟ وجاءه البريد في الشمال، ورأى «الشعاع» تلك وصورته. يشكر كثيراً، ويطلب ارسال الاجرة له الى هذا العنوان ذاته، ارسينييفسكايا ٢٥، الشقة واحد. واذا كنتم تريدون – يقول – ان تصلني النقود، فاعلموا اني مسافر بعد عشرة ايام. ايوه، وهلم جراً. كوروستيليوفا تلقت هذه الرسالة بحضوري، وقد كنت في القسم. قرأتها، وأرتها لي، وفي الحال تناولت الهاتف لتتلفن. لك. ولكني قلت: اعطني الرقم، انا نفسي اريد ان اتلفن. تلفنت يومين. ما كان الجواب غير رنات متقطعة طويلة. واضح؟

– نعم – قال زافيالوف – الآن واضح. كل شيء واضح الا شيء واحد على ما اظن... على ان هذا لا صلة له بالامر. سوى اني راغب في السؤال: لماذا كان منك هذا الاهتمام المفاجئ بقضيتي؟ تلفنت لي يومين، والآن أتيت بنفسك...

ويصمت فيلونوف.

– طيب، اذا كنت لا تريد الكلام، فلا لزوم. على كل حال، شكراً جزيلاً لك.

وفجأة قرر فيلونوف الكلام:

– كلا، ساقول. تذكرت كيف تلاقينا للمرة الاولى.

عند كوروستيليوفا. قلت ان الصورة ليست لي. واما انت فقد رحت تنظر اليّ... نظرة...

– ولكن هكذا تصورت انت.

– كلا، ما تصورت قط! رحت ترمقني من الرأس الى القدم. وبأي ازدراء. وقد ادركت، شعرت انك كنت تريد ان تقول لي: ايها المخنث، يا ذا السترة النايلون، لا شيء مقدساً عندك، لا تستطيع فهم الأسى البشري، ايها المخنث، المصور...

فقال زافيالوف مرتبكاً:

– ولكنك تبالغ.

– كلا، انما اقول الحقيقة. لقد ذهبت انت اذ ذاك، اما انا فقد اعتراني الغضب! رحت افكر، لماذا، باي حق؟ انا لست مخنثاً، انا متخرج من المعهد بامتياز، وما كنت قط مخنثاً! وتلك السترة، اذا اردت ان تعلم، هي اول شيء حسن لديّ، وقد اشتريتها من مخزن الكومسيون. اما قبل هذا فما كان عندي غير بنطالين وجاكيت واحد. نشأت يتيم الاب والام، وعشت على المنحة المدرسية...

فاوقفه زافيالوف بلطف قائلاً:

– مهلاً، مهلاً، ايها الفتى. ايوه، ربما كان قد بدا لي اذ ذاك انك كنت غير مبال بقضيتي. فقلت لنفسي: انه شاب لم يعان الأسى الحقيقي، وفي عينيه عدم اكتراث...

فقال فيلونوف بانفعال:

– في عيني من كان عدم الاكتراث؟ وهل كنت ولو مرة تنظر الى عينيّ؟ كنت تنظر الى سترتي، لا الى عينيّ! لقد

قررت هكذا، على الطائر، اني ما رأيت غير بولفارات موسكو! ولكني، اذا اردت ان تعرف، كنت اقضي الشتاء كله في فيرخويانسك، قرب قطب البرد، والتقط صوراً للمجلة... وذات مرة علقني الفتيان على الهيكل المعدني.

– ولكن لاي ذنب؟

– اني انا نفسي طلبت منهم. والا، ما كنت التقطت ابداً صورة اول قطار بين مدينتي بوران وتايغينسك على الطريقة الجديدة. وتصور في ذهنك كم التقطت صور للقطارات الاولى في الاربعين عاماً من الحكم السوفييتي؟ لقد ألف القراء رؤيتها. اما انا فقد رغبت في ان آخذ لذلك القطار صورة جيدة من تلك الزاوية لكي لا يكون لها مثيل... ايه، لا مجال هنا للكلام! فهل تفهم الآن لماذا جئت اليك؟

وصمت زافيالوف. كان يشعر بالخجل:

– لا بأس. كل ما في الامر اني كنت مشوش الذهن. بالاختصار، لقد فهمت الآن كل شيء.

– ايه، انك من جديد لم تفهم شيئاً! يخيل اليك اني جئت لكي اثير لديك تأنيب الضمير؟ سخافة كل هذا! انما كنت راغباً في ان اجلب لك الفرح، هل تفهم، الفرح! وانا، اذا شئت ان تعرف، كنت طرت انا نفسي الى تايغينسك، اذا كان الامر يتوقف على ارادتي فقط!

وظلا كلاهما بعض الوقت صامتين في سكون لا تعكره غير ابواق السيارات المسموعة من الشارع.

وقال زافيالوف بصوت خافت:

– حين سأجدها وآتي بها الى هنا، فسادعوك. فهل ستأتي؟
– وكيف لا!
– ولسوف نجلس معاً، نحن الثلاثة. كان لديّ فتى آخر... من عمرك. يلح بان ادعوه، ولكني لن ادعوه.
– ولماذا؟
– الحديث في هذا يطول. سادعوك انت. لقد اخترت لنفسك مهنة حسنة.
– هيئة التحرير هي، بالنسبة لي، الحياة كلها. ايه، لو ان لديّ مزيداً من الوقت، لو اني كنت حراً!..
– حرا!– كرر زافيالوف بصوت خافت كأنما يحدث نفسه. ثم سأل فجأة: – اسمع، هل تتمنى ان تكون حراً؟
– ماذا؟
– ايوه، غير مرتبط لا بشيء ولا بأحد؟ تعمل ما تشتهي؟
– اني لا افهم نوعاً ما... ها – ها، فهمت! ايوه، بالطبع، لكان الامر عظيما! ولكنت الآن من جديد اذهب الى الشمال! ولكن لماذا الى الشمال! ولكنت نظمت اموري بحيث اكون في كل مكان. هل تفهم، في كل مكان! يجربون طائرة جديدة – وانا فيها. ينتصب مفاعل ذري – وانا اشارك. اول سوفخوز يقام في الاراضي البكر – وانا التقط الصور. الطيران معك الى تايغينسك – اطير! ما الذي يحملك على الابتسام؟ انت نفسك اخترعت هذا الوضع غير المعقول! اوهام طوباوية، بالطبع، فليس يسع المرء ان يقوم لوحده بجميع الاعمال، وكل واحد يريد ان يكون في المقدمة، ولكن الاحلام لذيذة.

– هل انت موقن من ان الجميع يريدون ان يكونوا في المقدمة؟
– لست افهم السؤال. ايوه، طبعاً، ثمة اناس مختلفون، لنقل يوجد اناس كسالى...
– كلا، لست بهذا الصدد. هل انت على يقين من ان اكثرية ابناء جيلك اليوم يشاطرونك افكارك، وامانيك؟
فسأل فيلونوف:
– اليوم؟ سؤال سخيف! لست افهمك، ايها الرفيق زافيالوف.
– ساوضح لك الآن. لعلك ترى ان ايامنا هذه ايام تحولات كبيرة، ايام تجديد كبير في تفهم الكثير من القضايا... وبودي ان اعرف كيف ينظر شبابنا – من امثالك – الى هذا كله. ايوه، لو تعبر عن حالتهم للنفسية بكلمة واحدة، بجملة واحدة...
– بجملة واحدة؟ – سأل فيلونوف، ثم فكر قليلاً وقال: – الحياة كلها امامنا. هاك. اذا كان التعبير بجملة واحدة. لقد سألتني عن الحرية، وها انا قد اجبتك. ولكن يبدو اني ما قلت كل شيء. فالحرية، في اعتقادي، هي ادراك المرء انه يستطيع فعل كل شيء. مفهوم؟ مثلاً، ان يبني بيتاً، ان يصبح عالماً، ان يضع مشروعاً لتحسينات ما في دولتنا، ويتوصل الى تحقيقه، ان يطير الى القمر، ان يقول الحقيقة عن الناس السيئين، مهما تكن المراكز التي يشغلونها... كلا، كلا، افهمني على الوجه الصحيح، اني ادرك تمام الادراك: لكي يبني المرء بيتاً، لا بد له من معرفة؛ ولكي يصبح عالماً، لا بد له ان يدرس طويلاً،

وفوق ذلك، ان تكون لديه موهبة؛ والتحسينات في الدولة لا بد لها ايضاً ان توضع في ذكاء وفهم للمسألة ... ولكن ادراك المرء انه يملك الحق الثابت الراسخ في ان يفعل كل هذا – هو ايضاً شعور بالحرية.. صحيح؟

– فهمت. شكراً، ايها الصديق. ايوه، فلنذهب. عفواً لتأخيري اياك.

– لا بأس. لم يكن ينبغي عليّ ان اذهب مع هذه الفرقة. القضية كلها كانت في السيارة . وعدت بان تعود في الوقت المعين. ومن هنا حتى ادارة التحرير عشرون دقيقة فقط سيراً على الاقدام. الى اللقاء!

وشد زافيالوف على يده. انها يد صغيرة، ولكنها شديدة القبضة.

وبغتة قال فيلونوف:

– اه، يا لي من احمق! اضربني! ايه، اصفعني! لقد نسيت شيئاً. هو الشيء الرئيسي. جاء في تلك الرسالة مثل هذا السطر: «الصورة التي التقطتها في تايغينسك». فاهم؟ «شكراً لنشركم الصورة التي التقطتها في تايغينسك». ومن المؤكد انك اذا رأيت ايفانوف، فسيحدث اليك باسهاب عن كل شيء. هل تذكرت؟ تايغينسك! ها قد انتهى الآن كل شيء. خاطرك!

وفتح الباب ونزل الدرج مسرعاً.

ووقف زافيالوف في فسحة الدرج، يسمع كيف يركض الفتى قافزاً درجات السلم.

١٨ – الى امام، الى امام!

وللمرة الاولى في حياته ركب زافيالوف طائرة ركاب نفاثة. ان عهده كطيار قد انتهى مع انتهاء الطيران المروحي. فقد ترك الجيش في تلك السنوات بالذات التي كانت تجرى فيها اعادة تسليح القوات الجوية. فما كانت له معرفة بالطائرات النفاثة، لا العسكرية منها، ولا المدنية بالاحرى.

وحين جاء زافيالوف الى مطار فنوكوفو، ذهب الى الساحة الضيقة المحجوزة بقضبان حديدية عن ساحة الاقلاع الواسعة.

كان في وسع المرء ان يقف هناك فيرى كيف تقلع الطائرات وتحط، وكيف يتحرك الركاب نحو سلم الطائرة او يتقدمون صوب محطة جوية في صفوف ضيقة وعلى رأسهم فتيات يعتمرن بقبعات رسمية.

كان انتباه المسافرين منصباً على طائرة «تو – ١٠٤» الضخمة، الواقفة امام بناية المطار.

حتى ذلك الحين، كان زافيالوف قد رأى فقط صورة هذه الطائرة النفاثة الجديدة. وهو الآن يراها قريبة منه. وكان ثمة طائرتان اخريان من طراز «تو – ١٠٤» واقفتان جانباً. وصعد الزوار سلم الطائرة، وبعد نزولهم الى الارض يظلون واقفين مدة

طويلة قرب. الطائرات رافعين رؤوسهم، — صغاراً جداً، كأنهم الاقزام امام عملاق...

والطائرات المروحية العادية — وما كانت قليلة ايضاً في المطار — بدت قرب الطائرات النفاثة الضخمة اشياء منزلية صغيرة مألوفة. فما كان احد ينتبه اليها. كانت الطائرات تقترب او تختفي في البعيد وراء خطوط الاقلاع كأنها المشاة لا شأن لاحد منهم. والناس الخارجون من هذه الطائرات، ما ان يروا «تو» الضخمة حتى يتوقفوا ويروحوا يتأملون الطائرة منقطعة النظير وقتاً طويلاً.

وتذكر زافيالوف صورة في كتاب كان قد قرأه منذ وقت بعيد: اناس من سكان الارض يتطلعون بدهشة واعجاب وقلق الى جهاز طائر هائل هابط لتوه من عوالم مجهولة...

واليوم بدت هذه الطائرات لزافيالوف، بحجمها وهيكلها الشبيه بالسيكار، واجنحتها ذات الزوايا الحادة، وفوهاتها السود العجيبة مكان المراوح، رمزاً مادياً مجسداً لزمن جديد، لمرحلة جديدة في حياة الناس.

كان زافيالوف واقفاً قرب الحاجز الحديدي، ينظر باستمرار الى الطائرة التي سيقطع عليها درباً طويلاً. وكان يخيل اليه ان ذلك ليس من قبيل المصادفة: فعلى هذه الطائرة الضخمة فقط سيصل الى اوليا، فهي الى هذا الحد بعيدة.

الآن سيطير اليها. الآن اصبح هذا ممكناً. ثمة امراض كان الناس فيما مضى يموتون حتماً اذا هي اصابتهم. وقد بات الكثير من هذه الامراض غير رهيب: فقد وجدت ادوية

ولقاحات مضادة. وثمة مسافات كانت فيما مضى تبدو غير قابلة لان تقهر. والآن يمكن قهرها. وثمة مهمات كانت تحسب غير قابلة للحل. وهي الآن في متناول الناس...

وها هو زافيالوف جالس بين بضع عشرات من الركاب في «تو — ١٠٤» العجيبة، مصغياً الى الهدير الرتيب الصادر عن عنفات الطائرة.

مضت ثلاث ساعات على اقلاع الطائرة من موسكو. وما تزال تفصل زافيالوف بضع ساعات من الطيران عن مدينة تايغينسك.

... لقد حدث كل شيء بصورة مفاجئة. وما كان جد ملائم ان يطلب من المسؤولين فرصة خمسة ايام فور عودته من عطلته العادية الشهرية. بيد ان رئيس نادي الطيران، الطيار الانقضاضي العسكري السابق، بطل الاتحاد السوفييتي، شوموف، استمع الى زافيالوف، وسمح باعطائه فرصة خمسة ايام. وما طرح عليه اية اسئلة اضافية حين قال زافيالوف: «لاسباب عائلية» — مع انه كان يعلم ان المدرب الرئيسي لا اسرة لديه.

وحل الغسق. وبدا توهج السماء الذي اشعلته الشمس الغاربة وراء خط الافق نهراً من المعدن المنصهر. وهناك في الاسفل، على الارض، كان يبدو بوضوح، من ارتفاع تسعة كيلومترات، نهر ارضي حقيقي. كان يتلوى في شريط ضيق يشع بنور شاحب، ويصب عند الافق في ذلك النهر الذي لا وجود له، الشبيه بالمعدن المنصهر.

وتزايدت العتمة على الارض. وسرعان ما بات لونها رمادياً شاملاً يكاد يكون اسود. فما كان يمكن للمرء ان يرى من نافذة الطائرة غير نهر ضيق بلون اخضر واصفر.

ولكن الغيوم غطت الارض فيما بعد كلياً. وباتت الطائرة الآن تطير فوق سطح متراكم من السحب. ولقد بدا لزافيالوف، برغم هدير العنفات الشديد، انهم طائرون في سكون، وما من شيء حولهم سوى السحب المتراكمة من تحتهم، والسماء الباردة، عديمة الحياة، وذات اللون الواحد، فوقهم.

وراح زافيالوف يفكر في نفسه: «ليس بالامر الحسن ان يكون المرء من الركاب. فكل شيء يبدو على غير هذا النحو للطيارين في حجرتهم. وعلى وجه العموم، ان الشعور لدى الاشخاص الذين يقودون وسائل النقل مغاير كل المغايرة للشعور لدى الاشخاص الذين هم مجرد مسافرين بها. وخير للمرء ان يكون قائداً من ان يكون مقاداً. وليس يهم مقدار من تقود من الناس. قد يكونون كثرة او قلة. وقد يكونون اثنين فقط. بل وقد تكون تقود نفسك فقط. فالامر كله انما هو في الشعور بالحركة الواعية. واذا صح التعبير — في الاحساس بالشراع، او بالمحرك، او بالعنفة. في واقع ان المرء يدرك الى اين ولماذا هو سائر او طائر، ولأية غاية. في ادراك ماذا يعني هدير العنفات هذا، المرتفع تارة والمنخفض تارة اخرى، وعلى م ينطوي — أعلى القدرة، ام على الخطر، ام ان اذنيك فقط هما اللتان حل بهما الصمم، ولذلك بدا لك ان العنفات اصبحت تهدر بصورة اخرى. في معرفة الخارطة. ومعرفة الاجهزة. والا فسيبدو لك انك سائر

19—871

طائر الى حيث لا تعلم. ويمكن بسهولة ان يخيل للمرء هذا حين تكون الارض غير مرئية، والسماء المألوفة غير مرئية، وليس ثمة من شيء غير الهدير المبهم، الغامض على غير المطلعين، الصادر عن العنفات».

الطيارون الجالسون في الحجرة الآن، والذين يقودون الطائرة، يعرفون كل شيء. ولو انه هو، زافيالوف، جالس في الحجرة، كان يعرف هو ايضاً. الدروب موجودة في كل مكان: على الارض، وفي البحر، وفي الجو. وهي جميعاً مترابطة بعضها ببعض.

حين بدأ تحرياته، كان يتصور ان الدرب بسيط: يمضي اليها، الى اوليا، ويعود معها.

ولقد تذكر هذه الحكاية: بنت صغيرة تذهب للبحث عن اخ لها خطفته ساحرة. وكان عليها ان تجتاز درباً طويلاً. وعدا ذلك يقابلها في الدرب نهير جاف فيطلب منها ان تنظف مجراه، وتلاقيها انثى من الطير فتطلب منها ان ترفع فرخها الواقع على الارض، وكذلك تطلب الجبال والغابة من البنت تقديم يد المعونة لها في محنها... انها مستعجلة، جد مستعجلة، ومع ذلك فهي تساعد النهير، وانثى الطير، والجبال، والغابة... ولكن حين تعود البنت ادراجها مسرعة، وعلى ساعدها اخوها الصغير، والساحرة تلاحقها، فان النهر الزاخر بالماء يحيد لها عن الدرب، وتحملها انثى الطير الى الجو، وتميل الاشجار باغصانها عنها، وتنزاح الجبال من اماكنها لتفسح الطريق للبنت واخيها، ثم ترتد لتغدو سوراً منيعاً في درب الساحرة... كوروستيليوفا، بروخوروفا، ليزا، سوكولوف، اوسوكين وبافليك، بافليك شيفلياغين... كم من ناس، وكم من اقدار سعيدة وبائسة! ليس يمكن اغفالها...

ممكن، بالطبع، تخطي النهير الجاف، والقول لانثى الطير. «عفواً، اني مستعجل!»، والالتفاف حول الجبل، والبحث عن ممرات خالية يسيرة في الغابة، والقول للجميع: «ليس لي معكم من شأن، اني مستعجل، ابحث عن اوليا، ما انا في حاجة الا لها، فلا تشغلوني باتراحكم وافراحكم، اني مستعجل!»... ولن يكون جوابهم غير البسمة الساخرة. فما هم بلجوجين. ولسوف يمد لهم يد العون آخرون، اناس اكثر طيبة. ولكن اياك ان تلتمس منهم العون في درب الرجعة، حين ستجد اوليا، وتحملها بعناية على ساعديك المبسوطين. لسوف يسألونك: «ماذا تحمل؟». فتجيب: «هي. الوحيدة. تلك التي فيها كل حياتي. تلك التي كنت من اجلها اسعى. تلك التي هي عندي اغلى منكم جميعاً». اما هم فسيهزون اكتافهم وحسب...

انه اول الامر يخطئ بتصوره ان دربه في عزلة عن الدروب الاخرى. وهو الآن يعلم ان جميع الدروب مترابطة، على الارض وفي الجو. فليس الانسان نجماً وحيداً. وفي الحق، ان النجوم تبدو، من الارض فقط، وحيدة. تقف، فترفع رأسك صوب السماء، وتقول في نفسك: ليس الا انا وهذا النجم البعيد، وما بيننا الا الفراغ. فيا لها من خطيئة!..

وهو اذ يجدها الآن، فلن يعودا القهقرى. وغير ممكن على العموم العودة القهقرى. سيمضيان ابعد، الى امام. وما ادرك ما افيالوف هذا الآن. الا انه لم يعترف بهذا لنفسه دفعة واحدة. ولا يستطيع الانسان ان يدرك كل شيء دفعة واحدة. ان تجربة الآخرين امر عظيم. ولكنها لا تعلم ابداً ولا تعلم احداً حتى

النهاية. فثمة دروب لا بد لك من سلوكها بنفسك. ثمة شيء ما لا بد ان تراه بعينيك وحدهما. وليس يمكن ان تنوب عنهما الوف العيون الاخرى. لقد كنت تعلم ان كل شيء قد تبدل من حولك. كنت تقرأ عن هذا في الجرائد. وجوه الناس المتوردة واجهزة الاحوال الجوية كانت تنبيء عن «الرياح الدافئة». ومع ذلك فلا بد لك ان تشعر بانفاسها على وجهك، ان ترى التبدلات بعينيك. وليس يكفي ان تشعر وان تنظر. كلا، بل ينبغي ان تغدو جزءاً مما ترى ومما به تشعر. فالتبدلات جميعها هي انت، والرياح الدافئة هي ايضاً انت، والنجم الذي تريد بلوغه، وما عليه من ارض ومن ناس، ومن رياح ومن عواصف— هو ايضاً انت. وليس يمكن ان تسحب النجم من السماء وتأخذه معك.

ومضت ساعة اخرى. والطائرة ما تزال تطير فوق السحب فما الذي يجري هناك، تحت؟ لعل المطر يهطل؟ ولعل السماء تبرق، ومدن ما او قرى تشعل نيرانها؟ وتجري سيارات وقطارات، وتتأرجح عربات على الطرقات القروية؟ والناس، وما اصغرهم اذا ما تمثلهم المرء من هذا الارتفاع، يمشون، ويتلاقون، ويفترقون، ويتحادثون، ويتجادلون، ويتفقون، و يحبون، ويتخاصمون، ويحلمون، ويبنون....

اما هنا، على ارتفاع تسعة آلاف متر، فالصحو والهدوء: وفي الحياة دائماً «مجال هادئ»، مجال حرام في دنيا الاعاصير. في الحياة — اي في النفس البشرية. على انه يوجد اناس قد طرحوا منذ وقت بعيد المفتاح المؤدي الى هذا المجال الحرام... اما الآخرون فانهم يبقون الابواب مشرعة دائماً ويحاولون ان يكونوا

على مقربة منها. بافليك شيفلياغين... اغلب الظن انه سيعد الايام الباقية لعودته هو، زافيالوف. فما من احد يحل مكانه بالنسبة لبافليك. وعلى العموم، ما من احد يمكن ان يحل مكان احد. في وسع الناس ان يكملوا العمل الذي لم تكمله، ان يساعدوا من لم تساعده. ولكن ما انت ملزم بعمله، ينبغي ان تعمله انت، لا غيرك. ان اوسوكين لعلى حق. فوهم وتعزية لنفس الانانية ان يتصور ان انسحابه لن يكون ملحوظاً، وان الناس سيرصون الصفوف، وسيكون كل شيء كما في السابق.

اجل، في الظاهر، سيكون كل شيء كما في السابق. ولكن هذا ليس الا لان الحمل الذي كان عليك ان ترفعه على كاهلك يرفعه آخرون على كواهلهم. والكلمات التي كان ينبغي ان تقولها انت، ينطق بها آخرون. واولئك الذين كان ينبغي ان تحبهم انت، يحبهم آخرون، واولئك الذين كان عليك ان تعاقبهم انت، يعاقبهم آخرون. والى اولئك الذين ينتظرونك انت وحدك! — سيأتي آخرون.

واخذت الطائرة تهبط ببطء. ولكن مفهوم كلمة «ببطء» يفقد معناه المألوف حين يكون الحديث عن الطيران النفاث، لان ادراك الانسان غير قادر على استيعاب الفرق بين مثل هذه السرعات. لم يكن غير قطع السحاب الممزقة تتراكض امام النافذة، ويبدو كأن الطائرة تهوي كالحجر الى تحت، الى الارض.

والتصق زافيالوف بالنافذة وراح ينظر الى تحت. كانت قد باتت تتلامح خطوط الاراضي، غير واضحة اول الامر، ثم اكثر فاكثر تميزاً، واخيراً ظهرت سلاسل من النيران، كأنها نجوم الدبين الاكبر والاصغر.

١٩ — الى اللقاء في المساء...

ذهب زافيالوف من المطار الى المدينة بالقطار الكهربائي. وهو الآن واقف على رصيف المحطة، الفارغ في هذه الساعة المبكرة. وفي ساحة المحطة صف انتظار صغير امام سيارة باص. فاقترب زافيالوف من الصف، وسأل عن شارع ارسينييفسكايا، اين يوجد. فاجابته امرأة واقفة في المقدمة بان عليه ان يذهب بمحاذاة شاطئ النهر واشارت بيدها اشارة غير واضحة.

ظل يمشي وقتاً طويلاً في حديقة قائمة على شاطئ النهر. الرياح كانت تعصف بشدة، وكانت الحديقة خالية من الناس، وما كان ثمة غير فتاة لابسة مشمعاً مشرق اللون، مرفوع الطوق، جالسة على احد المقاعد، في مواجهة الرياح الشديدة، تقرأ في كتاب.

كان شارع ارسينييفسكايا ممتداً على طول الشاطئ. وكان البيت رقم ٢٥، قديماً، خشبياً، متين البنيان، على نسق المناطق الشمالية.

قرع زافيالوف الباب، ففتحت له فتاة مدورة الوجه ثرثارة. فما سمعت انه يسأل عن ايفانوف، حتى دعته للدخول الى البيت وراحت تشرح له بكلام كثير طويل: ايفانوف يشتغل في الشمال، اما عائلته — الزوجة آنّا فيودوروفنا والبنت غرونيا —

فتعيشان هنا، ولكن ليس يمكن الآن رؤية ايفانوف، ولا آنا فيودوروفنا، ولا غرونيا، لانهم سافروا جميعاً يوم امس الى القفقاس، ولن يعودوا قبل شهر.

وهكذا، فقد تأخر زافيالوف. فلو ان هذين اليومين اللذين لم يستطع فيلونوف خلالهما الاتصال به هاتفياً، لم يذهبا عبثاً، ولو انه هو، زافيالوف، قد طار الى تايغينسك قبل يومين، بل قبل يوم واحد، لكان قد وجد ايفانوف هذا.

وسأل زافيالوف الفتاة ذات الوجه المدور:

— اما تعرفين في اي مكان سيرتاحون؟ في سوتشي، في غاغرا؟ ولعلك تعرفين اسم المصح، او دار الاستراحة؟

فاسرعت الفتاة للاجابة:

— سوتشي، سوتشي. اما المصح فلا اعرف. بصورة فردية سافروا، فردياً، هل تفهم؟ كانت آنا فيودوروفنا تصر على المصح، اما ايفان فاسيليفيتش، فيعاند: كلا، يقول، كلا، انا، يقول، لا حاجة لي بالنظام اليومي، انا، يقول، اريد ان اكون انساناً حراً، اي بصورة فردية... تريد ان تسبح — اسبح، تريد ان تأكل — كل. انا، يقول، لا حاجة لي بالاوقات المنظمة... هل تريد ان اقول شيئاً لايفانوف حين يعود؟..

فاجاب زافيالوف:

— لا شيء. شكراً. على كل حال، هل تعرفين، من قبيل المصادفة، اين يوجد هنا م. ب. ع — ٢٤؟

— وما هذا، أهو رقم بيت؟ ام شارع؟

— كلا... اذن، انا ذاهب.

— ربما تشرب كأس شاي؟

— لا، شكراً.

... ومضى زافيالوف، بلا هدف، نحو مركز المدينة. كان الشارع الذي يسير فيه الآن جميلاً، معبداً، على جانبيه اشجار زيزفون مقلّمة.

حاول زافيالوف «على الماشي» استيضاح العنوان الضروري له، فسأل اول فتى قابله، عليه قميص مخطط، اين يوجد المعهد هنا.

فسأله الفتى:

— أهو المعهد البيطري؟

وهكذا لم توفق المحاولة الاولى.

وراح زافيالوف يتمشى على مهل في الشارع دون ان تكون لديه اية خطة للعمل. على انه كان في اعماق نفسه مؤمناً بانه قد يلتقي باوليا في الشارع. ولِمَ لايتفق هذا؟ فالمدينة صغيرة، والوقت صباحاً، والناس ذاهبون الى العمل...

كان يتمشى على مهل وينظر الى وجوه المارّة بامعان. وبعد حين سأل كهلاً يحمل محفظة اما يعرف اين يوجد المعهد الكيماوي؟

— الـ — كيما — وي؟

سأل الرجل في دهشة وتوقف.

— لعله بغير هذا الاسم — اوضح زافالوف — ايوه، بالاختصار، معهد ذو رقم — اضاف قائلاً، مدركاً ان سؤاله يبدو على الاقل سخيفاً.

وما اجاب الرجل ذو المحفظة بشيء، انما رفع كتفيه ومضى في سبيله. وقد التفتا احدهما الى الآخر في وقت واحد، وبصورة غريزية عجل زافيالوف خطاه. ثم ادرك ان هذه السرعة قد تبدو للرجل ذي المحفظة اكثر مدعاة للارتياب، فتوقف امام اعلان عن مباراة بكرة القدم. ثم التفت مرة اخرى، الا ان الرجل ذا المحفظة لم يكن له أثر.

وتابع زافيالوف سيره. كان يبدو له في بعض الاحيان ان امامه، على الطرف الآخر، تسير امرأة تذكر بعض الشيء باوليا. فكان اذ ذاك يجتاز الطريق بسرعة، ويلحق بالمرأة بخطوات سريعة، ويحاول ان ينظر الى وجهها دون ان يلفت اليه الانظار...

وهكذا بلغ ساحة صغيرة. وكانت ثمة مقاعد، ومن خلفها كثير من اللوحات الخشبية تحمل ارقاماً ونسباً مئوية مرسومة في خطوط. وكانت الارقام في الغالب تدل على نمو انتاجية العمل، والحجم الاجمالي للمنتجات، وتعاظم المساحات المزروعة. والى جانب ذلك، كانت تعدد المصانع، والكولخوزات، والسوفخوزات. فاتجه انتباه زافيالوف بالدرجة الاولى الى هذا التعداد. ولكنه ادرك في الوقت نفسه ان من السخف الامل بايجاد اسم ذلك المعهد على اللوحة.

ودار زافيالوف بانظاره حول الساحة، فرأى على بناية صفراوية ذات ثلاثة طوابق، قريبة منه، هذه اللافتة: «لجنة مدينة تايغينسك للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي». هذا هو المكان الذي لا بد ان يعرفوا فيه عن المعهد!

كان هذا ابسط افتراض. ففي كل مدينة، بالتأكيد، توجد

لجنة حزبية للمدينة، وهم يعرفون هناك، طبعاً، عن جميع المؤسسات الموجودة في اراضي المدينة. ولكن فكرة مراجعة لجنة المدينة لم تدخل حتى الآن في رأس زافيالوف. ربما لانه في اعماق نفسه كان يعترف بكل ما تنطوي عليه هذه الخطوة من سخافة: فهل يمكن لمن في لجنة المدينة ان يعطوا مثل هذه المعلومات لاول عابر سبيل؟

قبل نصف ساعة، قال زافيالوف لنفسه، وهو خارج من البيت الذي كان يعيش فيه ايفانوف: «المدينة صغيرة. والمعهد له مثل هذه الاهمية الكبرى. أفيمكن ان لا يجده بدون معونة ايفانوف؟». ولكن ظهر عملياً ان الامر اشد تعقيداً بكثير. والتوجه لا على التعيين بالسؤال عن معهد سري لا بد في آخر الأمر ان يؤدي الى ما لا يطيب. على كل حال لا بد من الذهاب الى لجنة المدينة.

وصعد زافيالوف الى الطابق الثالث. قاعة استقبال صغيرة. لا احد هناك. وينظر زافيالوف الى الساعة، فاذا هي التاسعة الا ربعاً. واضح، ان الوقت ما يزال مبكراً. على كل حال، قرع باب المكتب. غرفة صغيرة. وراء طاولة الكتابة يجلس شاب وظهره الى النافذة. ويبدأ زافيالوف الكلام:

— عفواً، انت الرفيق امين سر لجنة المدينة؟ انا في حاجة للحديث معك.

فيجيب امين السر بلهجة جد مرحة غير معروفة السبب:

— لن يمشي الحال. اني الآن مسافر. وانا بانتظار السيارة.

فيسأل زافيالوف بصوت متهالك:

– و... متى ستعود؟

– ولكني لن اكون هنا طول النهار – يجيب امين السر ايضاً بلطف وطيبة خاطر – اني ذاهب الى معمل الاسمنت، لحضور الاجتماع الانتخابي. وانت، ايها الرفيق، من اين؟

ولقد اعجب زافيالوف بهذا الرجل، الذي ما يزال في ريعان الفتوة. فليس يبدو عليه قط انه قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر. وعدا ذلك فهو نحيل اشقر مما يجعله يبدو اصغر سناً. وفي لهجة كلامه شيء مضحك. وانه لينطق بابسط الكلمات كأنما في روحه ما لا يدرى من الاشراق والبهجة.

– انا من موسكو – يجيب زافيالوف ويبتسم على غير ارادة منه.

فيهتف امين السر:

– هو – هو! من موسكو بالذات! ومن اية منظمة؟

فيوضح زافيالوف بسرعة:

– لا، لا، انا... ان صح القول، لست من منظمة. اعيش في موسكو فقط. وانا قادم اليك لقضية محض شخصية.

ومن جديد يهتف امين السر قائلاً:

– اي نعم؟!. جاءت موسكو الى تايغينسك لقضية شخصية! شيء طريف. ايوه، ابسط قضيتك الشخصية... ولكن، لا، انتظر، لا يمشي الحال. اغلب الظن ان السيارة قد جاءت. فانتظر...

فالتفت مع كرسيه الى النافذة، ونهض، ونظر الى تحت.

– كلا، لم تأت بعد. لا بأس. ابسط.

– اود قبل كل شيء، ايها الرفيق امين سر لجنة المدينة، ان اقدم لك وثائقي لتعلم من انا وماذا.

وادخل يده في جيبه، الا ان امين السر رفع يده محذراً:

– على مهلك، ايها الرفيق، انك لست قادماً الى دائرة الميليشيا ولا الى مكتب اوراق الدخول. في وسعي ان اعرف من انت منك مباشرة. انا، مثلاً، ادعى بيتر ستيبانوفيتش لوكاشيف. وانت؟

– زافيالوف، فلاديمير اندرييفيتش.

فقال لوكاشيف بلهجته المرحة السابقة:

– ليس اسمك باسوأ من اسمي. ايوه، فما القضية، يا فلاديمير اندرييفيتش؟

وما احتاج زافيالوف الا لبضع دقائق لرواية حكايته كلها. فقد اعتاد الكلام المقتضب، منوهاً بما هو رئيسي وحسب، ومتحدثاً من غير انفعالات لا طائل تحتها، ذاكراً الوقائع وحدها.

وبصورة مفاجئة قاطعه لوكاشيف:

– اسمع، ايها الرفيق زافيالوف، ولكن الى اين انت مستعجل الى هذا الحد؟ – وكأنما نسي انه منذ دقيقة كان يتطلع بفراغ صبر من النافذة – ان ما ترويه يتجاوز حد المألوف في طرافته. اذن، لقد رأيت صورتها في المجلة. شيء حلو!.. وكيف جرى كل هذا؟

فراح زافيالوف يتحدث اليه باسهاب، بادئاً من ذلك اليوم على شاطئ البحر، حين رأى اوليا في صفحة المحلة، ومن زيارة

ادارة التحرير وقسم البحوث... ولكن ما ان تناول زافيالوف مسألة المعهد حتى عراه شيء من الارتباك.

– ولقد عرفت ان الصورة كانت قد التقطت في مكان ما هنا، في تايغينسك، – الامر الذي يدل على ان المعهد موجود هنا بالذات. فانا بحاجة الى عنوانه. واني لافهم ان سؤالي تبدو عليه السذاجة، ان لم يكن يستدعي الارتياب. ولكن ليس لي من سبيل آخر، ايها الرفيق لوكاشيف، هل تفهم؟ ان ميرونوفا ليست شخصية قيادية، ولا هي مهندسة. انها من المعاونين البسطاء. واسمها غير مسجل في لوائح الدوائر المركزية. وليس يمكن الا موضعياً محاولة استيضاح ما اذا كانت تشتغل في هذا المعهد. وها انا قد جئت اليك ملتمساً العون. وما اعتزمت ذلك د فعة واحدة.

وسمع من الشارع بوق سيارة متقطع. ولكن لوكاشيف، خلافاً لتخوف زافيالوف، لم يلتفت مجرد التفات الى النافذة.

– اي نعم، هات وثائقك – قال هذا بصورة مفاجئة، ونظر الى الوثائق، ثم اعادها الى زافيالوف، وقال على نحو مباغت: – اسمع، ايها الرفيق زافيالوف. اذا ما وفقت لايجاد اوليا هذه، فهل توافق على القاء كلمة عندنا غداً، في اجتماع الاعضاء النشطاء في الكومسومول.

– ماذا؟ – سأل زافيالوف في اضطراب.

– لا تأخذك الدهشة. اني انظر الى هذه القضية من وجهة نظر امين سر لجنة المدينة. وفي الحق، سيكون طريفاً جداً ومفيداً جداً للفتيان سماع ذلك، ها؟ فليفهموا ما هي العاطفة الحقة! فهي ما تزال مجهولة لدى البعض. وانك لتفهم انه لامر خطر

جداً ان تتلوث العاطفة الاولى بالابتذال. فقد يتحول هذا فيما بعد الى عادة مألوفة. والانسان الذي لا يتعلم العاطفة، لن يعرف الحب الى الابد. قد تستغرب ما اقوله لك، ولكن لا تأخذك الدهشة. فانا عضو عامل سابق في الكومسومول، وقد اشتغلت الى وقت غير بعيد امين سر للجنة الكومسومول في المدينة. صحيح، ان ذلك لم يكن في هذه المدينة... اذن، انت موا فق؟

– ولكن قبل كل شيء... – بدأ زافيالوف الكلام في ارتباك، ولكن لوكاشيف قاطعه قائلاً:

– طبعاً، انا فاهم. قبل كل شيء، لا بد من الاهتداء اليها. ولكن اذا ما وجدتها، فستلقي كلمة. موافق؟ وسنلتمس منها ايضاً. فهي في الحق امرأة بطلة، بناء على حديثك. واكثرية الشباب عندنا تتذكر الحرب على نحو غامض...

وفي تلك اللحظة انفتح باب المكتب من غير ان يقرع عليه، وظهر رجل يرتدي جاكيتاً من الخاكي اصبح ابيض من كثرة الغسيل، ويحتذي جزمة من المطاط، وقال من العتبة مباشرة:

– اننا مستعجلون، يا بيتر ستيبانوفيتش، وقد زمرت ثلاث مرات. الساعة بلغت التاسعة والربع – ومد يده اليسرى الى امام، وباصبع من اليد اليمنى نقر على زجاج ساعة يده. – ويجب ان نكون في العاشرة تماماً. وانت نفسك تعرف اي درب امامنا!..

– مهلاً، ايغور كوزميتش، الآن اجيء، بعد دقيقة...

وهب واقفاً. ونهض زافيالوف ايضاً. ثم قال لوكاشيف بصوت رسمي قاس على خلاف عادته:

– هاك المسألة، ايها الرفيق زافيالوف. فيما يتعلق بالمعهد، لا استطيع ان اقول لك اي شيء. كما يقال «لا سلباً ولا ايجاباً». ولكني اعدك بشيء واحد. انتظرني. ساعود في المساء. واذ ذاك سأقول لك بالضبط هل ميرونوفا موجودة في اراضي مدينتنا ام لا. اتفقنا؟ – واخذ من على الطاولة صفحة من الورق – ها انا اكتب: ميرونوفا اولغا...

فاكمل زافيالوف:

– اليكسييفنا.

– اليكسييفنا – كرر لوكاشيف – والآن، اذهب الى الفندق. ساتلفن لكي يهتموا بامرك. فالى اللقاء في المساء!

٢٠ – لا تصدقها، لا تصدق!..

واجهة الفندق غير جذابة. دهان اصفر كالح. على الجدار يمتد انبوب ضخم ملتو، شبيه في قسمه الاوسط بالاكورديون. باب مائل. ولكن وسائل الترف داخل الفندق متوفرة. انها وسائل ترف قديمة الطراز، عتيقة، مع لوحة «الصيادون» للرسام بيروف على الجدار، وسجادة عتيقة في الممشى، وأصص للازهار، ومرايا، وساعة جدارية ذات رقاص، وارائك قصيرة ذات اغطية بيضاء. وعلى النوافذ سجف من مخمل زرقاوي مهترئ، وعلى الجدران اجهزة لاطفاء الحريق تتخللها لوحات مناظر طبيعية، واما في فسحات الدرج فقد اقيمت على قواعد خشبية تماثيل نصفية ضخمة للينين. وجهاز الراديو، بالطبع، لا يغلق ابداً في هذا النوع من الفنادق.

كانت الغرفة الصغيرة، التي اخذت اليها مستخدمة الفندق المناوبة زافيالوف، نظيفة جداً ايضاً. ولقد سألته المناوبة:

– هل ستبقى عندنا طويلاً؟

– ساسافر غداً، على الارجح، – اجاب زافيالوف – على اني، اذا...

فسارعت المناوبة تقول:

– طبعاً، طبعاً، شغل. كل شيء يتعلق بالشغل...

– اجل، كل شيء يتعلق بالشغل. قولي، من فضلك، اين توجد على مقربة منكم، حجرة استعلامات؟

– ماذا؟ – سألت المناوبة غير فاهمة ما يعني.

– آ، حيث تقدم المعلومات، اذا كنت تبحثين عن شارع، عن مؤسسة، عن عنوان...

– وما حاجتنا لحجرة استعلامات! فالبلد صغير، والجميع يعرفون كل شيء. وما المؤسسة التي تحتاجها؟

– اني في حاجة لعنوان شخص... انه يعيش في بلدكم.

– اذهب الى مكتب العناوين! شارع سوفييتسكايا، خمسة.

الآن فقط خطرت لذهن زافيالوف فكرة مكتب العناوين، وهي على ما يبدو فكرة طبيعية. فبعد التحريات الخائبة في لينينغراد، ألف واقع انه لن يجد اوليا قبل الكشف عن مكان معهدها السرى. وفي الحق ان في الوسع القيام مرة اخرى بمحاولة للكشف عن عنوان تمسكنها بكل بساطة عن طريق مكتب العناوين. وقد دفعه الى هذه الفكرة لوكاشيف حين وعده بان يستفسر عما اذا كانت ميرونوفا موجودة «في اراضي المدينة». وهذه الكلمات بالذات «في اراضي المدينة» قد ارغمت زافيالوف على التفكير. ولقد فكر في نفسه قائلاً ان عناوين العاملين في معهد سري يمكن، بالتأكيد، ان لا تكون مسجلة على لوائح عامة، في متناول الجميع. وممكن جداً، ايضاً، ان تكون الى جانب هذا المعهد، كما يتفق غالباً، بلدة خاصة للعاملين فيه. وفي هذه الحال لن يجد ايضاً في مكتب العناوين اية معلومات. ومع ذلك...

وسرعان ما بات زافيالوف واقفاً امام حاجز خشبي يسجل ورقة رسمية لطلب الاستعلام. وجمد القلم في يده حين وصل الى خانة «تاريخ الولادة». كان عمر اوليا سبعة عشر عاماً في سنة ١٩٤١، حين التقيا للمرة الاولى. اي انها ولدت سنة ١٩٢٤. تعمرها الآن اثنان وثلاثون. اثنان وثلاثون! هذا امر لا يمكن تصديقه.

ولقد كتب في خانة «تاريخ الولادة» – «١٩٢٤».

وتناولت الفتاة الورقة المملوءة.

– متى ينبغي ان آتي للجواب؟ – سأل زافيالوف – بعد ساعة؟

فقالت الفتاة في دهشة:

– لماذا؟! تفضل اجلس هنا، على المقعد، الآن سأستعلم.

وغابت وراء الباب.

– هي ذي، تفضل – قالت الفتاة، وقد عادت وقدمت اليه ورقة – عليك ان تدفع خمسة كوبيكات.

واختطف زافيالوف الورقة من يد الفتاة الذاهلة. ها – ها! شارع ماركس، ١١.

وهرع زافيالوف الى المخرج.

وصاحت به الفتاة:

– ولكن انتظر! خذ بقية النقود!

ولكن زافيالوف لم يسمع. انه يركض في الممشى. وكان ثمة رجل من الميليشيا واقف قرب الباب، فراح يتعقبه بنظره في حيرة.

... تقف امام زافيالوف امرأة ممتلئة الجسم متخطية سن

الشباب، على كتفيها شال غجري معرّق. ومن داخل الشقة كانت تسمع نغمات عزف على البيانو.

وبصوت متهدج، يسأل زافيالوف:

ـ عفواً، اريد رؤية ميرونوفا. اولغا اليكسييفنا ميرونوفا. أهي قاطنة هنا؟

ـ لا، ولله الحمد ـ اجابت المرأة بحدة ومدت يدها الى الباب لتغلقه.

فصاح زافيالوف وامسك الباب بكتفه عن الانغلاق:

ـ انتظري!

فقالت المرأة بلهجة جليدية:

ـ هذه المواطنة لم تعد تسكن هنا.

وتوقف العزف على البيانو. ورن صوت:

ـ ماما، من هذا؟

وظهرت في الممشى فتاة. يبدو انها في العشرين من العمر تقريباً.

ـ الامر لا يعنيك، اذهبي ادرسي ـ اجابت المرأة دون ان تلتفت. وهمت بان تغلق الباب.

ـ لا، لا، انتظري! ـ قال زافيالوف في تضرع ـ ابلغوني رسمياً... هي ذي ورقة الاستعلامات... ميرونوفا، اولغا ميرونوفا...

ـ ماما! ـ وكان في صوت الفتاة رنة استنكار ـ كيف يمكنك؟ لا ينبغي لك... تفضل، ادخل! ـ توجهت الى زافيالوف وراحت تردد بالحاح: ـ لا تهتم بهذا، ادخل!

ويدخل زافيالوف في حزم، ويغلق من ورائه الباب.

وتسأل المرأة بلهجة غير ودية:

ـ ماذا تريد منا؟

ـ لقد سبق ان قلت لك، اني في حاجة لرؤية اولغا اليكسييفنا ميرونوفا. وقد اعطاني مكتب العناوين ورقة رسمية.

ـ انها لا تسكن هنا منذ عامين تقريباً.

ـ ولكنها كانت تسكن؟ ـ وما استطاع زافيالوف اخفاء يأسه ـ ربما، تعرفين...

ـ ماما! ـ قالت الفتاة من جديد مؤنبة، ثم خاطبت زافيالوف: ـ تفضل ادخل الى الغرفة. لا يجوز على العتبة...

وفوراً لبى زافيالوف دعوة الفتاة، ومضى على أثرها.

يا للغرفة الغريبة! اثاث مخلّع من الخشب الاحمر مغطى بطبقة كثيفة من الغبار. ساعة طويلة رتيبة الدقات، كأنها التابوت، واقف عمودياً. وعلى طاولة مدوّرة غطاء مصفّر من الدانتيلا ممزق من هنا وهناك. ومنذ وقت بعيد لم يصقل بلاط الغرفة الخشبي. مقاعد وثيرة ذات اغطية رمادية حائلة اللون لكثرة ما غسلت. باب الغرفة المجاورة مفتوح، ويظهر طرف البيانو.

وتدخل المرأة ذات الشال وراء زافيالوف. في وسعه الآن ان ينظر اليها جيداً. لقد تجاوزت الخمسين. يبدو انها كانت في شبابها جميلة. تحت عينيها الآن جيوب متضخمة، وجلد وجهها مغبر غير نقي. ويسير على المرء تخمين جمالها الماضي حين ينظر الى ابنتها. فعلى ما بينهما من اختلاف، فانهما متشابهتان

في شيء ما تشابهاً غير ملحوظ: شقة العين ذاتها، وخطوط الفم عينها.

وتقول المرأة بصرامة دون ان ترفع صوتها:

ـ فاليا، اذهبي لشأنك. ايوه؟ لقد قلت...

وتهز الفتاة كتفيها، وتمضي الى الغرفة المجاورة، وتغلق من ورائها الباب. وتلاحقها الام بنظرات غريبة متجهمة. وبعد ذلك تلتفت الى زافيالوف.

ـ لست افهم، ماذا تريد منا؟ ـ بدأت تقول من جديد ـ لقد سبق ان قلت: اننا الآن لا يجمعنا اي جامع بالمواطنة ميرونوفا.

«المواطنة ميرونوفا!» سبق لزافيالوف ذات مرة ان استخدم هاتين الكلمتين، في البيان الذي قدمه في ذلك الحين لبروخوروفا، اما الآن، اذ تنطلقان من فم هذه المرأة، فانهما تثيران في نفسه الغضب.

ويقول زافيالوف:

ـ منذ وقت بعيد وانا ابحث عن اولغا ميرونوفا. والآن وقعت على أثر لها اخيراً...

ـ وماذا ارتكبت؟ ـ وقلبت المرأة شفتيها بقرف.

فيجيب زافيالوف بلهجة جافة:

ـ ان لديك موهبة مدهشة لتفسير كلمات الآخرين بمعنى... سيىء! اني ابحث عنها لاسباب شخصية. وفي مكتب العناوين، اعطوني عنوانك...

ـ كانت تسكن هنا سابقاً، منذ قرابة عامين. ثم انتقلت.

ـ الى اين؟

ـ وأنّى لي ان اعرف؟ ليس يهمني هذا البتة. صدق، لقد كان يوماً سعيداً في حياتنا، يوم تركتنا تلك المخلوقة. احتملناها قرابة عام كامل.

ومن غريب الامر، ان الكلمات الصارخة لم تعد تثير زافيالوف. انه يتلقاها باللامبالاة. وانه ليدرك فجأة ان الحديث يدور لا عن اوليا التي تخصه، بل عن شخص ما آخر. فيقول وهو يتنفس الصعداء:

ـ المعذرة، ولكن لقد حدث خطأ جلي، كذلك الذي حدث في لينينغراد. اني ابحث عن شخص آخر، ان هذا واضح تماماً بالنسبة لي. والتي تتحدثين عنها هي ميرونوفا اخرى... ـ ينطق زافيالوف هذا بلطف، بلهجة اعتذار ـ في بادئ الامر، كما لاحظت، استولى علي الغضب. وهذا امر يسير على الفهم. ان جميع الذين عرفوا اوليا ميرونوفا، ما تحدثوا عنها الا بالخير. ميرونوفا التي ابحث عنها ـ محاربة سابقة. كنت اظن انها ليست على قيد الحياة، انها استشهدت منذ اثنتي عشرة سنة. ولكن ظهر انها حية، وتشتغل هنا، في تايغينسك، في معهد للبحوث العلمية. ولقد فعلت الكثير من الخير لجميع الناس الذين عرفوها...

وفيما كان يقول هذا، كان يتتبع تعابير وجه المرأة، موقناً بانها ستتلطف الآن، وستبتسم، وستقول انها تلتمس المعذرة على قسوتها، وان ميرونوفا، التي كانت ساكنة هنا، ليس لها بالتأكيد اية علاقة بتلك التي يبحث عنها.

ولكن المرأة تصمت. وعلى وجهها التعبير الشرس السابق.

ـ ليس هنا اي تطابق. ميرونوفا ايضاً كانت على الجبهة،

ثم كانت تشتغل هنا في المعهد الذي يعدّون فيه زيتاً ما للطائرات. واني لآسفة ان يكون رجل جميل مثلك، ذو شأن، ولم يبلغ الشيخوخة بعد، يضيع الوقت على...

– اسكتي! – صاح زافيالوف شاداً على قبضتيه. – لا يحق لك...

– لا يحق لي؟ يا للخبر! – ورفعت المرأة رأسها متشامخة – تقتحم شقتي، تضع السكين على عنقي، تطالب بان احدثك عن تلك المخلوقة التي سممت حياتي وحياة ابنتي...

– ولكن هذا لا يمكن!

– ولماذا لا يمكن هذا، قل من فضلك! – قالت المرأة بصوت ممطوط، كأنما تغني، متقهقرة الى وراء، لكي تتطلع الى زافيالوف من الرأس الى القدم – لقد اعلنت، على ما يبدو، انك ما رأيت هذه المخلوقة منذ اثني عشر عاماً. اما انا فقد سعدت بان تعرفت اليها منذ قرابة ثلاث سنوات. عشت معها تحت سقف واحد قرابة سنة. فلمن الحكم الصحيح عليها، من فضلك؟ لك ام لي؟

كان لهذا القول منطقه. فلم يجد زافيالوف على الفور ما يعترض به. وظاهر ان المرأة قد شعرت بارتباكه. فقالت وفي صوتها نبرة تلطف:

– لست مستاءة منك. ولكن احكم بنفسك، لا يجوز هكذا! ان تقتحم البيت، كأنك من رجال مفوضية الشؤون الداخلية في عهد بيريا...

– المعذرة، اذا كان قد حدث هذا.

– انا فاهمة. فاهمة كل شيء. تصادف حالات يفقد فيها المرء صوابه. انا نفسي اعاني هذا، وليس ذلك بالامر النادر. ولكن الحقيقة اغلى من كل شيء، وما كان في وسعي ان اخفي الحقيقة عن شخص أ...

– ولكن ماذا فعلت لك من سوء، بيّني اخيراً!

– او – او! ينبغي لك ان تفهم: ثمة شؤون عائلية لا يكشف عنها الناس المهذبون امام الغرباء. اقول لك، بصورة عامة، انها سممت حياتنا. كانت تكتسب ثقتي بالحيلة والخديعة. ولقد دفعت بابنتي الوحيدة الى الجنون، الى منتهى الانحطاط الاخلاقي. وعكرت السلام والطمأنينة في عائلتنا... اف، لتلك المرأة! لا استطيع ان اتذكر بدون انفعال تلك الشهور التي عاشتها في بيتي! من فضلك لا تنظر اليّ هكذا. ان الكلمات التي اتلفظ بها هي ألطف الكلمات واكثرها تسامحاً! على اني افهمك. كنت تعرف تلك المخلوقة حين كانت، وهذا امر جلي، ما تزال جد فتية. نسبياً، بالطبع. مع اني موقنة بانها، في ذلك الحين ايضاً، كان لديها الاستعداد المناسب. فانا مؤمنة بنظرية لامبروزو...

كان الامر قد اصبح فوق ما يستطيع زافيالوف احتماله. فادخل يديه في جيبيه ليخفي الحنق الذي يشد به قبضتيه.

– اسمعي، هل تقولين لي بوضوح ام لا ما الذنب الذي ارتكبته معك ميرونوفا؟ ما هي، اخيراً، الاتهامات التي توجهينها اليها؟

– اتهامات! – كررت المرأة بنبرة عالية – الله الله، بوسعي تعدادها الى ما لا نهاية! كانت تتدخل في بيتنا. كانت

مشردة، بدون مسكن على الاطلاق، فآويتها، اسكنتها لا من اجل المال، كلا، فالاجرة كانت محض رمزية. كنت في حاجة لا الى المال، بل الى روح بشرية... فمنذ ان مات زوجي، وهو مهندس معماري مشهور في المدينة كلها... — وقلبت شفتيها، وتوقفت قليلاً عن الكلام، ثم تابعت: — منذ ان اصبحت ارملة، وعلى ساعدي ابنة وحيدة، ما كنت ابحث الا عن روح بشرية حنون. وكان معروفاً لدى الجميع ان لديّ شقة ممتازة ذات طابع ثقافي، فكانوا يلتمسون مني... بالاختصار، اسكنت ميرونوفا هذه. وثقت بشهرتها، باوسمتها ومداليتها... فيا ربي، كم كل هذا وهم بوهم! لقد افسدت ابنتي! حرفياً — اعذرني، نحن في سن كبيرة — دفعتها الى سرير رجل...

— اسكتي! — صرخ زافيالوف — هذا كله كذب! لست اصدق كلمة واحدة! هي لا يمكن، ما كان يمكن!.. انت تكذبين، تكذبين!..

وصرخت الامرأة وهي تتقهقر الى وراء:

— انا اكذب؟! انا، ناديجدا بافلوفنا كولومييتسيفا، المشهورة في المدينة كلها، اكذب؟ من انت يا هذا؟ لقد اردت مساعدتك، اردت فتح عينيك... واما انت؟ هيا، اخرج من بيتي، اخرج!

وما كانت الآن لتتراجع، بل كانت تهاجم زافيالوف ملوحة بساعديها المرفوعين الى اعلى، وقد سقط الشال المعرق عن كتفيها، فتناولته بكعبها وجرته وراءها على الارض، وراحت تكرر كلمة واحدة:

— اخرج، اخرج، اخرج!

وما تمالك زافيالوف نفسه الا في الشارع. كان واقفاً في منتصف الرصيف جامداً بلا حراك، والمارة يتخطونه ويتطلعون اليه.

واذ عاد الى وعيه، شعر باعياء رهيب لا حد له. وما كاد يبلغ الفندق الصاخب بصوت الراديو، حتى القى بنفسه على السرير، دون ان يخلع ثيابه، وقد وضع جريدة تحت قدميه. كان الراديو يضج بعض الشيء، الا ان زافيالوف ما كان يسمع، وقد بدا له ان قد حل من حوله صمت الموت.

لم يكن من شك الآن في ان اوليا كانت تسكن ذلك البيت على شارع ماركس. ولكن لماذا تتكلم تلك المرأة عن اوليا بمثل تلك الكراهية السافرة؟ ماذا وقع بينهما؟.. رهيب ان يتصور المرء ان قد كتب عليها العيش عاماً كاملاً في ذلك البيت. ولكنها بعد ذلك انتقلت. هكذا قالت المرأة: «انتقلت». لم تسافر، لم تبارح المدينة، بل انتقلت! فكيف لم ينتبه لهذه الكلمة الهامة جداً؟ على انه، على ما يبدو، قد سأل: «الى اين؟» ولكنها اجابت: «وأنّى لي اعرف؟». اجل، لم تسافر اوليا، بل بدلت الشقة في هذه المدينة ذاتها، وهذا هو الامر الرئيسي. فهي، اذن، تعيش في تايغينسك، في بلدة خاصة. وهذا امر طبيعي: فقد انتقل المعهد من لينينغراد الى تايغينسك. وما كان ثمة بعد بلدة خاصة، انما كان قد بدأ بناء البيوت للعاملين في المعهد. فيكون على الاشخاص ان يستأجروا غرفاً الى ان يتم بناء شقق خاصة لهم. وكذلك اوليا. وبعد ذلك يمر عام،

ويكون البيت قد تم بناؤه، فتنتقل اوليا الى شقة جديدة. ويستخلص من هذا ان امين سر لجنة المدينة، لوكاشيف الطيب، سيعرف عنها كل شيء! ولكن هذا سيكون في المساء، بعد اربع ساعات تقريباً...

ويرسم زافيالوف لنفسه مثل هذه اللوحة. الباب يقرع: «رفيق زافيالوف، هناك من يسأل عنك». فيقفز، ويفتح الباب بدفعة واحدة، فيرى المناوبة عند الباب، ومن ورائها اوليا واقفة لدى الجدار. وقد تمكن لوكاشيف من الاتصال هاتفياً بالمعهد ومن رواية الامر لها...

وماذا بعد؟ يذهبان مساء اليوم بالذات الى موسكو. على ان هذا غير ممكن، فان اوليا مرتبطة بالعمل. لا بأس، سيسمحون لها بالسفر. على الاقل، سيعطونها فرصة. ولسوف يقدم لوكاشيف المساعدة، فانه فتى طيب، لطيف...

سيسافران الى موسكو، وبعد...

قد يسافران الى هناك، وينزلان من القطار ويبلغان بطريقة ما ذلك المرج المغطى بالعشب الكثيف، والمطوق بغابة الصنوبر. وهناك يجلسان حتى الليل، ويبصران النجوم البعيدة من فوقهما. وبعد ذلك يبزغ الفجر، وتغرد في الغابة طيور غير مرئية...

كما كان ذلك منذ وقت بعيد! يومذاك كانت الغابة في حرب، وقصف المدفعية، الاصم، الملطف بفضل الجدار الصنوبري، يصل الى المرج، والنجوم تخبو انوارها، وتغرق في وهج طلقات اسهم الاشارة النارية. ولقد كان الوقت الذي ما هو بملك لهم يجري سريعاً، ومينماء ساعته المنير يعدد الدقائق...

«كلا – قال زافيالوف لنفسه بحدة – هذا كله غير واقعي! خيال. لا يمكن للمرء ان يسبح في ماء واحد مرتين – انها لحقيقة مدرسية. منذ وقت بعيد لم يعد لذلك المطار وجود. منذ وقت بعيد لم يعد لذلك المرج وجود. ولو انه ما يزال باقياً، فليس يمكن العثور عليه. وتلك الدروب قد غطتها الاعشاب منذ وقت بعيد. وقامت بدلاً منها دروب جديدة. وعليها تسيرسيارات نقل ضخمة ثقيلة الحمولات. ثلاث عشرة مرة نمت وذبلت الاعشاب في ذلك المرج المجهول. اجيال جديدة من الطيور تغرد هناك اغاريدها قبيل الفجر. وما عاد زافيالوف في الثانية والعشرين من سني عمره، ولا اوليا في الثامنة عشرة. لقد مضى كل هذا. فلن تجلس معه اوليا على المرج، فان لديها الكثير جداً من الاعمال. وعليه هو ايضاً ان يعود سريعاً. بانتظاره العمل، والمحاضرات، والفتيان. سيكونان معاً، هو واوليا، ولكنهما لن يكونا هناك، في المرج. ولكنه ليس يعلم هو نفسه اين سيعيشان: في موسكو ام في تايغينسك. فمن السخافة ان يذهب الظن الى انهما سيبدآن الحياة مجدداً من تلك اللحظة بالذات التي افترقا فيها.

الباب يقرع...

– رفيق زافيالوف، ثمة من يسأل عنك...

على العتبة تقف المناوبة. وتكرر قائلة:

– ثمة من يسأل عنك.

على بعد قليل، لدى الجدار، كانت تقف فاليا، الفتاة

التي كان قد رآها للتو في البيت القائم على شارع ماركس. ويضطرب زافيالوف.

– ادخلي! اسمك، اظن، فاليا؟ ما كنت اتوقع...

وتدخل. على وجهها تبدو آثار دموع ليس عهدها ببعيد، وشفتاها مطبقتان اطباقاً شديداً، واصابعها تعبث بمنديل مبلل.

– تفضلي، اليك الكرسي...

كانت فاليا جامدة الحركات، كقطعة من الخشب. ثم تجلس.

– لقد اتيت... – بدأت تتكلم ثم سكتت، وشفتاها ما تزالان مطبقتين. وبرقت عيناها، وامتلأتا بالدموع من جديد.

– هدئي من روعك، ارجوك!..

فتحرك يدها باشارة نفي.

– لن ابكي، لا تخف. لا تغضب لمجيئي. كنت ارى من النافذة كيف كنت واقفاً في الشارع، ثم ذهبت. كان لا بد لي ان اقول لك... تأخرت في العزم على الدخول. ظللت امشي حول الفندق... طويلاً... ولكن ها انا بعد ذلك قد دخلت...

– وحسناً فعلت!

ويتكلم زافيالوف بصوت جهوري، يود ان يهدئ من روع الفتاة، ان يكفكف من دموعها.

– وان لي لغاية من المجيء... اريد ان اتحدث اليك لكي لا تصدق كلمة واحدة من كلماتها... لا تصدقها... لا

تصدق!.. امي تكره اولغا اليكسييفنا. ترى فيها عدواً، ربما، لاننا... كنا نعيش على مالها...

وتنطق فاليا بالعبارة الاخيرة بصوت خافت كل الخفوت، كأنه الهمس.

– ولكن، ما الذي جرى؟ – قال زافيالوف وقد عجز عن احتمال السكوت المرهق.

– ساحكي لك الآن – قالت فاليا، وقد رفعت عن عينيها المنديل المدعوك المبلل بالدمع – مات ابي سنة واحد وخمسين... كان مهندساً معمارياً. وبقينا انا وامي وحيدتين. كان عمري اذ ذاك سبعة عشر عاماً، وكنت قد انهيت المدرسة منذ وقت جد قصير. لست ادري ما جرى لأمي اذ ذاك. اما ان الخوف قد استولى عليها من اننا الآن سنعيش فقط على المنحة التي نحصل عليها بعد وفاة ابي، واما... انا نفسي لا اعرف. حين كان ابي حياً كنا قد رسمنا خطة تقضي بان اذهب الى لينينغراد بعد تخرجي من المدرسة، فانتسب الى الكونسرفاتوار... وقد انهار كل هذا... وفهمت: ينبغي ان اباشر العمل. كانوا قد بدأوا عندنا في ذلك العام ببناء محطة كهربائية جديدة، فذهب الى العمل في البناء كثير من الفتيان الذين انهوا المدرسة معي. ورغبت انا في ذلك رغبة شديدة. الا ان ماما كانت معارضة. وهي، كما رأيت، شخصية متسلطة عنيدة. قالت لي: «حمقاء، بنت صغيرة، ستسيرين بمضربية العمل والجزمة المطاطية. بنت المهندس المعماري كولومييتسيف – بمضربية العمل! سيمضي الشباب، وستغدو اليدان قاسيتين، وتذوى بشرة الوجه؛ وانا لن

اعمر دهراً، وستبقين لوحدك، فمن سيكون بحاجة اليك وانت بهذا الشكل؟ فلا بد لك من الزواج، من الزواج الموفق، فالحياة هي الحياة...»

وتنفست فاليا بصعوبة، فاغلقت عينيها، ثم فتحتهما من جديد.

– كان عندي واحد من المعارف، اسمه فاسيا، وكنا ندرس معاً... منذ الصف العاشر كان يتغزل بي... حب اطفال. ولقد تبادلنا القبلات مرة واحدة فقط... وبعد المدرسة ذهب للعمل في البناء، وبات يعمل لحاماً على الاوكسجين، وغالباً ما كان يأتي الى بيتنا. وما كان يروق لأمي. كانت تقول ساخرة: «عامل بسيط»، «شخص لا مستقبل له»، «يريد التدخل في بيتنا، وهو يخدعك»... وما كان هذا صحيحاً. كان فاسيا يحبني. ما كان في حاجة للشقة، كان في حاجة الي... وكان له مستقبل، ففي العام اللاحق انتسب لمعهد الهندسة المعمارية بالمراسلة، للدراسة بدون انقطاع عن العمل... ولكنه كان من شأنه ان يشق دربه بدون معهد، فقد كان ملتهباً حماسة، كان يحب الحياة، وورشات البناء، والاسفار، والاماكن الجديدة... ولقد قلت لامي اني اريد ان اتزوج فاسيا. فضربتني، للمرة الاولى في حياتي، ضرباً موجعاً على وجهي. ثم انفجرت باكية، وراحت تلتمس المعذرة، وتتضرع، وتتوسل، وتقول انها الآن لا تعيش الا من اجلي، وان هذا الزواج سيقتلها. وتقول: «انت، يا بنت، لا تفهمين من الحياة شيئاً، تعتبرين الميل الطفلي المدرسي حباً...» ولم تعد تسمح لفاسيا بدخول بيتنا،

وراحت تتعقبني، ولقيتنا مرتين انا وفاسيا في الحديقة العامة، فقالت انها اذا ما رأتنا للمرة الثالثة، فستثير فضيحة في كل المدينة او تنتحر. فاستسلمت...

واحنت فاليا رأسها الى صدرها اكثر من ذي قبل. واردفت تقول:

– واليك ما حدث بعد قليل. جاء الينا مهندس معماري من سيبيرسك. كان يشتغل هناك في الادارة المنطقية، وكان رئيساً لأبي، فحين كان يأتي بمهمة الى تايغينسك كان من عادته ان يجيء لبيتنا. وما كان في سن الشباب، فقد كان عمره قرابة خمسين عاماً، وهو ارمل. ايوه، وما لي اطيل الحديث! ارغمتني امي على الزواج منه. راحت تبكي وتهدد، وتتوسل... «وافقي، يا حمقاء، شخص جدي، مظهره الخارجي فتي وما يزال جميلاً، وهو يحبك، وستعيشين في سيبيرسك، في شقة مستقلة. وستأخذينني لعندك في سنوات شيخوختي...»

– كلا! – هتفت فاليا، ورفعت رأسها بحدة – لا تفكر اني استسلمت هكذا بسهولة. كم بكيت وهددت بترك البيت... ولكني اخيراً استسلمت.

– وفاسيا؟ – سأل زافيالوف.

– فاسيا؟.. لقد خدعته، فما قلت له شيئاً حتى اليوم الاخير. وانت، بالطبع، تلومني على ذلك؟

فلم يجد زافيالوف ما يجيب به.

– عشت سنة في سيبيرسك، وما استطعت احتمال اكثر من ذلك. ولقد كانت الشقة حسنة، والمال كافياً، وكنت

ابعث لأمي مبلغاً كل شهر. ولكني... لم اعد احتمل. فما كنت احبه، كنت اخادع نفسي، ثم اصبحت اكرهه. فتركت كل شيء وعدت الى تايغينسك. واعود الى البيت، فارى: في غرفتي امرأة لا اعرفها. فتقول امي بهذا اللطف: «هذه ميرونوفا اولغا اليكسييفنا، المستأجرة الجديدة عندنا». ثم ذهبت اولغا اليكسييفنا الى مكان ما، وبقينا انا وماما لوحدنا. فرحت افكر في نفسي: الآن ستبدأ التوبيخات، والدموع، والتهديدات. ولكن ما حدث شيء من ذلك. لقد بدلت امي تبديلاً. فهي تقول: «ليس بالامر الرهيب ان تكوني قد تركت الشيخ. سنتمكن من العيش. فقد نقلوا الآن الى عندنا، الى تايغينسك، معهداً يتعلق بشؤون الدفاع. أتفهمين اي ناس يشتغلون هناك؟ بروفسورات، دكاترة علوم، حاملو جوائز، كيماويون شبان. يعطونهم كل شيء: رواتب ضخمة، سيارات، شقق. اموال من الذي فتح ورزق. وقد واتاني الحظ، فحصلت على هذه المستأجرة. فهل تتصورين ما يعني هذا بالنسبة لنا؟ انها ستوصلك الى وسطهم، فتصوري اية نخبة ستكون؟..»

وبعد وقفة، تابعت فاليا تقول:

... وغنى عن القول اني، بعد هذا، لم ترق لي اولغا اليكسييفنا، وحكمت بان بينها وبين امي اتفاقاً على كل شيء، وكأنما ذلك داخل ضمن اجرة الغرفة. ولكن يمر اسبوع، وثان، وثالث. وارى ان ليس ثمة اي بروفسورات يأتون الى بيتنا، وا ولغا اليكسييفنا نفسها في العمل من الصباح حتى ساعة متأخرة من المساء. تأتي لقضاء الليل فقط... وهكذا تمضى الامور.

وكنت انا اعزف على البيانو، واقرأ، وانا بانتظار شيء ما، لا اكاد ابرح البيت. كان اشد ما اخشاه ان التقي بفاسيا. كان يخيل انه سيقول اذا ما رآني: «لقد بعت نفسك واغريت بشقة جديدة، بالمال...» وعن فاسيا كانوا يكتبون في الجريدة آنذاك – يقولون انه خير رئيس فرقة للحامين على الكهرباء. وذات مرة نشروا صورته. فقصصتها، واخفيتها. أتدري اين اخفيتها؟ في البيانو... وظللت اخشى الالتقاء به في الشارع... كانت العلاقات مع اولغا اليكسييفنا باردة. وذات مرة، استيقظ ليلاً، فأرى: فاذا بالنور يتدفق من غرفة امي واسمع حديثاً. امي تشكى: الحياة مرهقة، المنحة لا تكفي، وفاليا تريد ان تدرس، ان تتعلم الموسيقى ... واسمع اولغا اليكسييفنا تقول لامي: «ناديجدا بافلوفنا، ارجوك من باب الصداقة ان تأخذي نصف راتبي. فانا ايضاً اشفق على فاليا. وانا، على العموم، لا نفقة لي...» وفرحت امي، بالطبع، وشكرت. وفي مساء اليوم التالي لقطت اولغا اليكسييفنا على حدة وقلت لها اننا ينبغي ان نتحادث معاً. فذهبنا الى حديقة عامة غير بعيدة. وجلسنا على مقعد. وقلت لها: «لقد سمعت كل شيء، كل ذلك الحديث الليلي. انا لست في حاجة لصدقاتك. أتفهمين؟ ولقد بتّ اكره الموسيقى». فتجيب: «افهم. وماذا ايضاً ستقولين؟». واني لاعترف باني فقدت اذ ذاك زمام امري، فرحت اسأل: «لِمَ لا تفين بالتزامك؟ واين البروفسورات، وحاملو الجوائز؟ اين هم؟ لا تنافقي! لا تكذبي، امي حكت لي كل شيء! هيا، زوجيني، دبري لي عريساً، بل خذي علماً باني لا

احتاج الى شقة، اني الآن احتاج الى بيت على حدة. وسيارة خاصة، و...» وهنا قاطعتني قائلة كأنما ضربتني بالسوط: «اسكتي، يا حمقاء!» فانقطعت عن الكلام، ولزمت الصمت. «اية سخافات تقولين؟ لمن وبماذا وعدت؟» واذ ذاك، ادركت من جديد ان امي قد خدعتني من جديد. انها هي التي كانت ترسم الخطط، اما اولغا اليكسييفنا فما كانت تفكر بها على الاطلاق. ورحت ابكي. ثم حكيت لها كل شيء. كانت تصغي اليّ دون ان تقاطعني. ثم قالت: «حياتك، يا بنت، سيئة المسرى. أكيد ان امك مسؤولة، ولكنك انت مسؤولة اكثر ايضاً. فمن كنت تخدعين؟ فاسيا؟ كلا، بل كنت تخدعين نفسك، تخدعين حبك». واضافت لا ادري لماذا: «كنت في السابعة عشرة من عمري حين احببت... ولم يعد له وجود، لقد استشهد. ولكن اذا ما حدثت معجزة، وظهر فجأة على قيد الحياة، لكنت...» هل اضجرتك ثرثرتي؟

— تابعي — اجاب زافيالوف وقد انحبست انفاسه.

— بدا لي انك لا تصغي اليّ... ومضى اسبوع على هذا الحديث. وتعود اولغا اليكسييفنا من العمل، فتقول لامي: «هل لديك اعتراض اذا دعوت غداً ضيفاً؟ شخص ظريف جداً، شاب، ناجح، له مستقبل... بالاختصار، تفهمين». فلا تعرف امي كيف تعبر عن الشكر، لشدة اغتباطها. فرتب البيت، واعد طعام العشاء. وعادت اولغا اليكسييفنا. ومع من، هل تتصور؟ مع فاسيا! فكاد ان يغمى على امي. وتمنيت انا لو تنشق الارض وتبتلعني، ولكني في اعماق نفسي كنت في

بهجة وفرح. اما اولغا اليكسييفنا، فتقوم بدور السيدة المتمدنة: «تعارفا، تفضل... ها، سبق ان تلاقيتما؟ يا للمصادفة! طبعاً، الدنيا صغيرة... منذ وقت بعيد وانا راغبة بدعوة فاسيلي بوريسوفيتش الى بيتنا، ولكنه دائماً مشغول... الورشة كبيرة، وهو امين سر لجنة الكومسومول». ما كنت اعرف، أينبغي لي ان اضحك ام ابكي. وحين ذهب فاسيا بعد العشاء، قامت القيامة. انهالت امي على اولغا اليكسييفنا بالتوبيخات والاتهامات. ولكنها فوجئت بصدمة. فقد قالت لها اولغا اليكسييفنا كأنما تصب عليها ماء في درجة الغليان: «هذا الشاب سيجيء الى هنا ما دمت ساكنة في البيت. ولزام عليك ان تضعي هذا في رأسك». ثم التفتت اليّ وقالت: «كفاك حياة جبن واستكانة، يا فاليا. امك كانت تؤكد ان العمل في ورشة البناء سيجعل يديك تقسوان ووجهك يشحب. اما انا فاقول لك: هنا، في هذا البيت، سيكون الامر اشد سوءاً. ستقسو نفسك، ولا يعود وجهك يعرف الاحمرار. فمن اي شيء انت خائفة؟ وممن؟ العالم كله منفتح امامك. العالم كله!»

وصمتت فاليا.

— وماذا كان بعد ذلك؟ — سأل زافيالوف.

— التقينا انا وفاسيا بضع مرات، ولكن لا في بيتنا. كان يأنف من المجيء الى بيتنا. ولقد وعدته بان اتزوجه. ولكن حوالي ذلك الحين كانت اولغا اليكسييفنا قد ذهبت من عندنا. فقد بنيت دار للعاملين في ذلك المعهد. ونادراً ما كنت التقي بها. فالدار هذه قائمة في مكان ما خارج المدينة... ومع ذلك فقد كنت

مصممة كل التصميم على الزواج بفاسيا، والعمل في الورشة. كانت كلمات اولغا اليكسييفنا «العالم كله منفتح امامك» ترن في اذني... ولكن صوت امي قد غطى عليها شيئاً فشيئاً. لم اعد الى زوجي – كانت ارادتي لهذا كافية – ولكني لم اترك امي. ونحن الآن، من جديد، ننتظر مكتوفي الايدي... – قالت فاليا بابتسامة كئيبة.

– وفاسيا؟

– فاسيا؟ تعب من ترددي، ومن التأجيلات التي لا نهاية لها، وذهب الى مكان ما... حصل على نقل... او... بالاختصار، لا اعرف اين فاسيا الآن. بل هو لم يودعني. على ان الحق معه. واولغا اليكسييفنا، كما هو ظاهر، نسيتني. اما انا فاتذكرها... وها قد سمعت اليوم كيف تشنع عليها امي وتفتري. كنت واقفة قرب الباب، ابكي، واشد على فمي، ولكني لم اعتزم الدخول... كنت خائفة. فكلما اقتضى الامر ان ادخل، او اذهب، او اقوم بشيء حاسم، اخاف... لا اعرف انا نفسي من اي شيء...

وقرع الباب، وسمع صوت المناوبة وقد بات معروفاً:

– رفيق زافيالوف، للتلفون.

– دقيقة! – صاح زافيالوف.

وقال لفاليا بسرعة:

– انتظري، ساعود الآن!...

كان الهاتف في غرفة المناوبة، في الطابق الاول.

والسماعة موضوعة على الطاولة.

– آلو! من؟

– من لجنة المدينة، – قال في السماعة صوت غير معروف، – بتكليف من الرفيق لوكاشيف...

– نعم، نعم! سامع، سامعكم!

– طلب الرفيق لوكاشيف الابلاغ بانه سيتأخر. انه في الاجتماع الانتخابي. لم يتمكن بعد من القيام بما طلبت منه. سيعود مساء، في الساعة العاشرة. يرجوك الانتظار حتماً... يشير بان تتفرج خلال ذلك على المدينة وان تذهب حتماً الى بحيرة «تايوجنويه». حتماً! لا يتطلب الذهاب الى هناك غير نصف ساعة بالباص...

– طيب – قال زافيالوف بصوت خافت – سانتظر...

وصعد الى فوق، فرأى باب غرفته مفتوحاً. وفاليا لم تكن هناك...

وعمل زافيالوف بمشورة لوكاشيف، فذهب الى شاطىء بحيرة «تايوجنويه».

سبق له ان كان على البحر مراراً. ولكن ما رآه اذ ذاك لم يكن شبيهاً لا بالبحر الواسع المألوف، ولا بالنهر الزاخر بالمياه. برد واخز يهب من هذا السهل المائي.

الى اليمين تلمح جبال سود بعيدة مخططة بعروق بيض من الثلج وسط ضباب خفيف في النهار القاتم. وبدا لزافيالوف ان الجبال تنحدر هابطة ببطء ولكن بحزم، وتغوص في الماء

المنبسط امامه. وها هي قد غابت عن الانظار، وليس غير السهل المائي البارد المهيب يندغم مع الافق.

كان زافيالوف يعرف ان حول هذه البحيرة اساطير جمة، وثمة اغان تنوه بها، ويحدث ان تكون مصطخبة ورهيبة كالبحر. اما الآن فان «تايوجنويه» هادئة، وسطحها اشبه بطبقة جليدية رقيقة.

ومن خلف زافيالوف يمتد صف بيوت خشبية ذات طابق واحد؛ ويتبين من الشباك المنشورة على الاوتاد انها ساكنيها صيادو اسماك.

ووراء البيوت مباشرة تبدأ غابات التايغا. اشجار كثيفة، متشابكة الاغصان، واعشاب عالية، تصل الى المساكن ذاتها. وليس يفصل التايغا عن البحيرة غير هذه البيوت وطريق ضيقة معبدة بالاسفلت؛ ومن فوقها سماء منخفضة تغطيها السحب.

وراح زافيالوف يتمشى على طول الطريق. وتذكر كيف كان منذ شهرين (ولقد بدا له ان ذلك كان منذ وقت بعيد بعيد) يتمشى على شاطىء بحر آخر تماماً؛ وامرأة بفستان لماع، كحراشف السمك، يلفها لفاً محكماً، تسرع لملاقاته... ولقد كان يخيل لزافيالوف ان هذا كله لم يجر معه، بل مع شخص آخر، اما هو فيعرف عن هذا بصورة غير مباشرة. وكل ما حدث له في الماضي غير البعيد من حياته، اصبح الآن غير ضروري له، وبات كل شيء غريباً. وفي الواقع لم تكن تلك الحياة حقيقية. الحياة الحقيقية كانت في الحرب، حين

كان الموت يترصده عدة مرات في اليوم، وحياة الحاضر التي بدأت عام ١٩٥٦، في ذلك المساء الذي رأى فيه اوليا على صفحة المجلة.

كان يمشي ويوحي لنفسه: اوليا هنا. وانه اخيراً ليرى نهاية تحرياته الطويلة. الى اليمين — بحيرة، والى اليسار — تايغا لا يشقها درب، وما غير هذه الطريق الضيقة المعبدة تؤدي قدماً الى اوليا. اصبحت الامور اهون على نفسه. ولقد بدا له فجأة ان لا حاجة به الآن حتى للوكاشيف؛ فها هو هذا الدرب امامه، مستقيماً، جلياً، كسهم الاشارة على الخارطة الحربية...

كان زافيالوف يمشي الى امام، وها قد انتهت بيوت صيادي السمك، ولم يعد امامه غير التايغا، والبحيرة الباردة، والطريق المعبدة...

وظهرت عن بعد، من خلال الضباب، ابنية غير واضحة المعالم. فقرر المسير اليها. ما كانت تلك الابنية على الطريق المعبدة بل متنحية عنها بعض الشيء، قائمة فوق جبل او، ربما، فوق ردم اصطناعي. ولقد اختارها زافيالوف حداً، ومنتهى شوط، يبلغه ثم يعود من حيث أتى: فقد قاربت الساعة السادسة. وبعد ثلاثين دقيقة كان زافيالوف قد بلغ البناية القريبة، والقى عليها نظرة خاطفة و... بالكاد تمالك نفسه عن الصياح. فقد انبعثت امامه صفحة مجلة «الشعاع»، وتلك الصورة التي يحملها معه على الدوام.

ليس ثمة الآن، بالطبع، اولئك الناس الموجودون في الصورة. وما كان ثمة لا ثلج، ولا غروب شمس. ولكنه كان

يرى امامه البناية الخشبية الطويلة، من طراز البراكات، التي يذكرها طول حياته.

وما كان يمكن ان يكون هذا خطأ. هذه البناية بالذات كانت قائمة على الهضبة، متنحية عن الابنية الاخرى، يؤدي اليها ممر ضيق. وعن طريق هذا الممر راح زافيالوف يتسلق الهضبة ركضاً.

وها قد بات في اعلاها، في ساحة رحبة، في ذلك المحل بالذات — وانه لعلى يقين من هذا — حيث كانت تقف اوليا في ذلك اليوم. بلى، بلى، هنا في هذا المكان. والى جانبها ذلك الشيخ لابس الفروة، والى اليمين الامرأة ذات الشال، وبينهما اوليا.

قرع زافيالوف باب البيت وتسمّع. لا جواب. واذ ذاك جذب الباب اليه، فانفتح وصر قليلاً. تخطى زافيالوف العتبة، فوجد نفسه في ممشى طويل ليس فيه احد. رأى صفاً من الابواب متساوية الابعاد بعضها من بعض، كأنما هي في فندق. وسعل زافيالوف بقوة، ثم خطا بضع خطوات صاخبة. وراح يتسمع من جديد. صمت.

والقى نظرة على الغرفة القريبة منه. ما من احد. ولا اي اثاث. ليس ثمة غير سرير من حديد، بلا فراش، في احدى الزوايا.

ومضى زافيالوف الى الباب التالي. كان في زاوية من هذه الغرفة، الفارغة ايضاً، صناديق خشبية صغيرة. وعلى الارض طبقة من الغبار غير الممسوس، الامر الذي يدل على ان احداً

لم يدخل هذه الغرفة منذ وقت بعيد. وفي الغرفة الثالثة رأى هذا الاثاث: طاولة، بضع اسكملات، وسريران عليهما فراشان، ولكن بدون شراشف...

وتوقف زافيالوف في الممشى مشوش الذهن كل التشوش. ما هذه البناية الغريبة؟ انها تشبه مسكناً عاماً مهجوراً.

— اما من احد هنا؟ — صاح زافيالوف بصوت عال غير آمل البتة بان يكون لصوته صدى. ولكنه مخطئ. فقد انفتح باب بعيد، وظهر في آخر الممشى رجل يرتدي بنطال بيجامة وقميصاً مشمر الكمين.

— ما لك تصيح؟ — سأل الرجل بلهجة غير ودية — من تريد؟

وقد بلغ من ابتهاج زافيالوف ان لم يلتفت للهجة الشرسة التي تكلم بها ذلك الرجل الكهل الشائب. فقال له وهو يقترب منه:

— المعذرة. كنت قد قطعت املي بان اجد احداً هنا.

— من تريد؟ — كرر الرجل الشائب بفراغ صبر.

— قل لي، من فضلك، ما هذه البناية؟ لمن هي تابعة؟

— لفرع معهد دراسة البحيرات.

— عفواً، لمن؟

— لمعهد درا... سة البحي...رات — اجاب الرجل مقطعا الكلمة تقطيعا، بسخرية صارخة. كانت قامته قامة شاب، اما الوجه فوجه شيخ.

فسأل زافيالوف:

– وما معنى هذا؟ ماذا يدرس هذا المعهد؟

– يدرس الحوض المائي، اذا سمحت. – اجاب الشيخ. ثم اضاف: – واذا اردت المزيد من الايضاح فلا بد لك من مراجعة الادارة. ارجو المعذرة.

وارتد صوب الباب.

– مهلاً! – هتف زافيالوف بسرعة – لا بد لي من الاستيضاح... يبدو لي ان هذه هي بالذات البناية التي رأيتها في مجلة...

– في مجلة؟ – سأل الشيخ – في اية مجلة؟

فسارع زافيالوف الى الايضاح:

– لا، لا، ليست هذه هي القضية. اني ابحث عن شخص يشتغل... هل انت واثق من ان البناية تابعة لهذا المعهد بالذات... ايه، معهد دراسة البحيرات؟ بالاختصار، هل هذا مؤكد؟

– ايوه، تعال الى الغرفة – دعاه الشيخ بلهجة ودية غير متوقعة، وفتح الباب على رحبه، واشار بيده اشارة خفيفة.

ورأى زافيالوف في الغرفة طاولة تتبعثر عليها اوراق مكتوبة، ودواة فيها قلم، وسريراً سفرياً مشعث الغطاء، وفي الزاوية صناديق من خشب واكياساً من الجنفيص.

دل الشيخ زافيالوف على اسكملة قرب الطاولة، اما هو فجلس على السرير. ثم قال:

– ايوه، هات الآن تكلم بوضوح: اية مجلة، وما تبتغي؟ على قدر ما افهم، ما انت بسائح.

– سائح؟ – سأل زافيالوف.

– يجيء كثير جداً منهم. ولكنك انت، على ما يبدو، مهتم بشيء آخر.

وروى زافيالوف ما سبق له ان كرره مراراً.

– ... وها انا قد وجدت نفسي، مصادفة، عند بحيرة «تايوجنويه»، ورأيت هذه البناية و... بالاختصار، المعذرة. لقد اوقفتك، كما يبدو، من العمل. – واشار زافيالوف برأسه الى الاوراق المكتوبة المبعثرة على الطاولة.

– الحق – قال الشيخ بعد قليل – لست على خطأ. هذه البناية كانت، بالفعل، تابعة للمعهد الذي تتحدث عنه. كان لديهم هنا شيء من قبيل النادي. أكيد انه قد اعيد الآن تنظيم كل شيء.

– والمعهد؟ اين يوجد المعهد؟

– هـ – هم – تمتم الشيخ – انت نفسك قلت انك ستتلقى المعلومات هذا المساء.

– نعم، طبعاً، المعذرة...

– لقد اقاموا هنا مؤقتاً، كما ترى. لبضعة شهور فقط. نقلوا الى هنا، على ما يبدو، من لينينغراد. والى ان تم بناء حاضرة خاصة لهم، استأجروا غرفاً في المدينة، اما من اجل العمل، فقد فرزنا لهم احدى بناياتنا. ليست هذه، بالطبع. هذه بنوها هم، نادياً مؤقتاً. وبعد ذلك اورثونا اياه. ولدينا هنا الآن شيء من قبيل مسكن اضافي للبعثات.

كان صوت الشيخ يزداد طيبة كلما اوغل في الكلام.

– عندي لك، والحالة هذه، سؤال اخير – قال

زافيالوف. – خلال هذه الشهور القلائل اتفق لك، بالتأكيد، ان التقيت بشغيلة المعهد. فقد كنتم جيراناً في العمل؟

فقال الشيخ مجيباً على السؤال بسؤال:

– وما كنية تلك التي تبحث عنها؟

– ميرونوفا.

– اولغا اليكسييفنا ميرونوفا؟

– هل كنت تعرفها، كنت تعرفها؟ – هتف زافيالوف.

– اوليا... اولينكا ميرونوفا... – كرر الشيخ خافت الصوت، هازاً رأسه هزاً بطيئاً.

– هي هنا؟

– اجل، اجل، طبعاً، هي هنا، على مقربة، حاضرتهم لا تبعد غير عشر كيلومترات من هذا المكان الا ان التقليات العادية لا تذهب الى هناك ولا بد من ترخيص بالدخول. انك، بالطبع، ستحصل عليه... تصور فقط! اوليا!... اولينكا ميرونوفا!..

نظر زافيالوف الى الساعة، وهو لا يكاد يتمالك نفسه. الساعة السابعة. لوكاشيف لن يعود الا في ساعة متأخرة من المساء. فما العمل؟ قطع هذه الكيلومترات العشرة مشياً على الاقدام، ومحاولة التسلل الى تلك الحاضرة بدون ترخيص؟ كلا، انها لعملية خرقاء، حمقاء. بعد ثلاث – اربع ساعات سيتم كل شيء من تلقاء نفسه. سيعود لوكاشيف، ربما سيكون في وسعه مساعدته على الذهاب الى تلك الحاضرة، في الحال، ليلاً. وسيصله، طبعاً، باوليا عن طريق الهاتف.

واستولى على زافيالوف شعور ببهجة عظمى، غامرة، لم يعرفها منذ وقت بعيد. لقد وجدها، وجدها!

ما يزال لديه بعد متسع من الوقت لسؤال هذا الشيخ الانيس عن اوليا. انه الآن، للمرة الاخيرة، للمرة الاخيرة فعلاً، سيستخبر عنها من كلام الآخرين.

كان الشيخ واقفاً بلا حراك، مرخياً ساعديه الطويلين المفتولين. ولقد تذكر زافيالوف، الآن فقط، صوته الذي تغير وبح فجأة حين نطق باسم اوليا، وكيف نهض عن السرير، ببطء، كأنما هو يستجيب لقوة داخلية. ثمة شيء ما وراء كل هذا.

– متى رأيتها للمرة الاخيرة؟ – سأل زافيالوف.

فما اجاب الشيخ. كأنما لم يسمع السؤال الموجه اليه. وكأنما أُلهِمَ زافيالوف ان ليس ينبغي له التعجل.

ومضت دقيقة قبل ان يعتزم زافيالوف تكرار سؤاله. فاجاب الشيخ زافيالوف بصوته المألوف الجاف، بل الحاد بعض الشيء:

– لم ارها منذ شهرين. ولكن هذا ليس له اي دور.

– اي دور؟.. في اي شيء؟ ما قصدك بذلك ان تقول؟

– اسمع – قال الشيخ دون انتباه لكلماته – هيا نتعارف. انا ادعى غلاديشيف. قسطنطين غيورغيفيتش غلاديشيف.

ومد يده الى زافيالوف، فشد عليها هذا بحرارة.

– والآن سنحتفل بلقائنا – تابع غلاديشيف – نحن الثلاثة.

ـ الثلاثة؟ ـ سأل زافيالوف في دهشة.

ـ اي نعم. انت، وانا وهي.

نطق غلاديشيف بهذه الكلمات في بساطة وبدون اى تكلف، وبارح الغرفة صامتاً دون ان يدع لزافيالوف مجالاً من الوقت لامتلاك زمام نفسه. وعاد بعد دقيقة، حاملاً على ظهره كيساً من الجنفيص.

وغير ملابسه، وبدل بنطال البيجامة ببنطال عادي، ولبس جزمته، وارخى كمي قميصه المشمرين. وقال بصوت حازم لا يقبل الاعتراض:

ـ هيا بنا!

٢١ ـ نزهة في التايغا

ما مضت على جولتهما حول البناية بضع دقائق حتى كانا في قلب التايغا.

كان يسود ثمة ظل قاتم، وكلما اوغلا في اعماق التايغا كانت تشتد من حولهما الظلمة. غلاديشيف يسير في المقدمة صامتاً، غير ملتفت الى وراء، كأنما هو عارف من قبل ان زافيالوف سيتبعه في طواعية دون ان يسأل عن شيء. وسرعان ما وصلا الى مرج صغير، هو قطعة من الارض خالية من الاجمات الكثيفة. كانت تحيط بهما اشجار متراصة تغطي القسم الادنى من جذوعها الشجيرات والاعشاب. ومن مكان ما قريب كان يسمع خرير نهير او ساقية غير مرئيين. ومن فوقهما مربع من السماء رمادي، كانت الرياح تطارد فيه السحب الممزقة.

ـ ايوه، هنا ـ قال غلاديشيف، وتوقف ووضع كيسه على العشب.

وجلس القرفصاء وادخل يده الى الكيس واخرج منه حزمة ملفوفة بالورق.

ـ هذا سمك ـ قال وهو ينشر ورقة ظهرت فيها سمكتان نهريتان متوسطتا الحجم ـ وهذه بطاطا ـ قال هذا منهمكاً، مادّاً يده الى كيسه من جديد، مخرجاً بضع قطع من البطاطا

– وهذا ملح، وهذه طنجرة، وهذه ملاعق، وهذه فودكا.

ففيما كان يخرج خيراته من الكيس، كان يعددها الواحدة اثر الاخرى. وسوّى غلاديشيف كيسه الفارغ ومده على الارض بساطاً للمائدة.

وكان زافيالوف يسائل نفسه: «لماذا لحقت به؟ يا للشيخ الغريب!»

وسأل غلاديشيف:

– أمعك سكلاديش؟

– ماذا؟

– مبراة. هكذا يسمونها في سيبيريا. كلا؟ امسك – قال هذا واخرج من جيبه مطواة كبيرة ذات مقبض خشبي – قشّر البطاطا. واملأ الطنجرة. الماء قريب من هنا. هل تستطيع؟

– انا عسكري سابق.

– شيء عال.

ومن جديد راح زافيالوف يسائل نفسه: «لماذا جئت الى هنا؟ لأي شيء؟ كان ينبغي ان اشكر غلاديشيف في ذلك المسكن، واعتذر، واذهب». ولكن الوقت قد فات على فعل هذا الآن. يضاف الى هذا ان فكرة ارتباط حياة الشيخ باوليا، بشكل من الاشكال، ما كانت تبارح ذهنه.

واخذ الطنجرة وسار باتجاه خرير الساقية. وسرعان ما رآها. بدا ان ثمة من يدفع مجرى المياه السريع الصاخب، بقوة كبرى. فقد كانت الحصوات الصغيرة تتدحرج، وحول الحجارة يرغي الزبد. فما كان يسيراً بلوغ الماء. كان لا بد لذلك من هبوط

22—871

ضفة عالية صعبة المنحدر. وبدأ زافيالوف بالنزول، حاملاً باحدى يديه الطنجرة، تقرقع فيها ثلاث قطع كبيرة من البطاطا، وباليد الاخرى المطواة، فزلت قدمه، ووقع، وامسك نفسه بجهد على طرف الساقية تماماً، وقد كاد يسقط في الماء.

فقال في نفسه مغضباً.: «اف! ما كانت حاجتي الى كل هذا؟ هذه البطاطا، وهذا المنحدر الاخرق، والساقية، والتايغا... ينبغي لي ان اسرع الى المدينة!..» وسمع صوت غلاديشيف يصيح به:

– ايوه، كيف، جاهز؟

– لحظة! – صاح زافيالوف، وفتح المطواة، وراح يقشر البطاطا بسرعة.

وبعد ان قشر القطعة الاولى من البطاطا، وضعها في الماء. وكان الماء من شدة البرودة بحيث سحب زافيالوف يده. ولكنه حين اعادها من جديد بدا الماء لطيفاً جداً.

منذ وقت بعيد، جد بعيد، منذ سني الطفولة، ما اتفق لزافيالوف ان جلس هكذا قرب ساقية في غابة، مرخياً يده في ماء سريع الجريان.

وعاد، شاقاً دربه عبر الاجمة، وقد بلغت انفه رائحة دخان حطب مشتعل.

وقال غلاديشيف وهو منهمك قرب الموقد:

– ايوه، هات البطاطا الى هنا.

وما كان قد اضاع الوقت سدى: فقد نظف السمك، واوقد النار، وغرس وتدين في الارض، وربط عليهما عارضة من

اجل الطنجرة. ودون ان يلتفت، مد يده وتناول من زافيالوف الطنجرة ووضعها باحكام فوق النار.

– ايوه، هكذا – قال غلاديشيف وهو يضع في الماء السمك المنظف والبطاطا. – الآن انتهى كل شيء تقريباً. بعد قليل سنأكل شوربة سمك.

– شكراً، قسطنطين غيورغيفيتش – قال زافيالوف اخيراً – ولكني اخشى ان الوقت لن يتسع لي... ينبغي ان اعود الى تايغينسك. ضع نفسك مكاني... ليس في وسعي اضاعة كل هذا الوقت...

– على تناول شوربة السمك برفقتي؟ – اكمل غلاديشيف – ولكني ما كنت اعتقد قط اني ساشغلك بصحبتي فقط. فقد وعدت باننا سنكون ثلاثة، واني لحافظ لوعدي.

– ما هذا اللغز، يا قسطنطين غيورغيفيتش؟

– لغز؟ بالله عليك! اني خبير مياه، وابعد الناس عن الشعر، واتكلم بالالغاز! كلا، يا صديقي زافيالوف، كلا، ما من لغز هناك!.. ما اود ان اتحدث به اليك، واقعي في اقصى درجات الواقعية. واقع يمكن للمرء ان يودع الحياة بسببه...

وتناول غلاديشيف قضيباً غرزت في طرفه المشقوق ملعقة، وراح يديرها في الطنجرة. ثم قال:

– هكذا، اننا هنا ندرس بحيرة «تايوجنويه». هذه البحيرة معقدة ووحيدة من نوعها... ولكن اياك ان تحسب اننا جالسون هنا ندرس مادة من المواد المجردة. أكيد ان مهمتنا تقوم على بحث شامل. ونحن بالذات قد ساعدنا على تحديد النظام المائي للحوض الكبير. فليحاولوا بدوننا، بناء محطة كهربائية!

وصمت غلاديشيف، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة:

– على ان هذا لا علاقة له البتة بالامر. كل ما في الامر ان رد فعل دفاعي قد صدر عني. فالسواح، لو تعلم، يأتون الينا، ويستمعون، ثم يسألون بمثل هذه الكياسة: «قولوا، من فضلكم، اية اهمية عملية لما تقومون به؟ أكيد ان من الممتع جداً معرفة، مثلاً، درجة حرارة الماء في البحيرة، ونظامه الكيماوي. ولكن بربكم قولوا ماذا ينتج عن هذا عملياً؟..» واذ ذاك نروح نحدثهم عن الفائدة، ونشرح لهم كيف نساعد على تربية الاسماك في معامل السمك، وكيف اننا نعتزم البدء بدراسة جميع بحيرات سيبيريا واحواضها المائية، لا «تايوجنويه» وحدها. ولكني متحمس، فالمعذرة. كنت اريد ان اقول شيئاً آخر تماماً. ثمة شرط واحد لا بد منه لعملنا. ينبغي للمرء ان يحبه. قد تعترض قائلاً ان الحب جدير بكل مهنة نافعة. ممكن. ولكن ثمة اعمالاً يمكن انجازها بدون حب. اما عملنا فمستحيل. والا ففي سبيل اي شيء سيقضي المرء اعواماً على ضفاف انهر وبحيرات مقفرة من الناس؟ مفهوم – اعواماً! فهذه ليست بعثة، ليست مهمة مؤقتة، وان تكن طويلة، انها الحياة كلها! الحياة كلها – رياح، ثلوج، جليد، الحياة كلها، وما امامك غير الماء والجليد. يمكن ان يكون هذا اما موضعاً للحب، واما موضعاً للكراهية وليس يأتي الى هنا من يكره. يأتي من يحب. من لا يخاف الرياح، من لا يتباكى حين يخدّر الماء الجليدي يديه، من لا يأخذه دوار البحر – فكثيراً ما نقضي اياماً بلياليها على الزوارق البخارية في البحر... هكذا كنت اعتقد، الى ان

جاء الينا اندريه اندرييفيتش زفياغينتسيف. كان خبيراً بالمياه، وكان يعتزم كتابة اطروحة للحصول على لقب مرشح في العلوم، عن بحيرة «تايوجنويه». وعليّ ان اقول لك اني امروٌ اعيش لوحدي، فمنذ خمس سنوات توفيت زوجتي ورفيقتي في جميع اسفاري. فارسلوا اليّ زفياغينتسيف ليسكن معي غرفتي، ابعاداً للضجر، كما يقال – الواقع انّي انا نفسي كنت التمس ذلك...

كان زافيالوف ينظر اليه مشرد الذهن. «اية صلة يمكن ان تكون لهذا باوليا؟» – هكذا فكر في نفسه، ونظر الى الساعة. فلاحظ غلاديشيف هذا، وقال:

– انك، كما ارى، مشرد الذهن. ولكن لا تستعجل. انها ستظهر في وقتها... – ونظر الى الطنجرة، التي كان الماء قد بدأ يغلي فيها غلياناً خفيفاً، ثم تابع كلامه – كان اندريه اندرييفيتش هذا غريباً. فحتى الآن، بعد كل ما جرى، ليس في وسعي ان اقول بالضبط اي انسان هو. ولكن لا، فكل شيء واضح لي الآن. الا انه اذ ذاك قد اعجبني كثيراً. فقد تآلفنا هنا جميعاً واعتدنا احدنا على الآخر. جاء هو من سيبيرسك، طازجاً، أليف بيوت، مرحاً، فتياً، – كان في الثانية والثلاثين من عمره على الاكثر... وحين يعيش اثنان معاً في غرفة واحدة، فانهما يعرفان احدهما الآخر بسرعة. ولقد عرفت في اليوم الثاني ان اندريه اندرييفيتش قد تخرج من المعهد منذ سبع سنوات، ثم اشتغل في ادارة شؤون المياه المنطقية. هذه، بصورة اساسية، كل سيرة حياته. ولقد عرفتها – واكرر القول – بكثير من السرعة. في اول الامر، اعجب كثيراً بالطبيعة

المحلية. وتعرف انت، طبعاً، ان ابناء هذه البقاع يحبون الاسرار، ويتحدثون كثيراً عن استحالة ادراك بحيرة «تايوجنويه»، وعن قسوتها، ويسمونها بحراً، وهلم جراً. وكان زفياغينتسيف يعرف كل هذا جيداً. فما كان يدع فرصة تمر دون ان يتحدث باعجاب عن البحيرة. وكان هذا ايضاً يسرنا. اما نحن فلم نعد منذ وقت بعيد نعجب بمثل هذه، ايوه، كيف اقول هذا، الاسباب التزيينية، وكنا نعتقد بان الاعجاب وقف على السياح. ولما رأينا ان اخانا الاختصاصي محتفظ بمثل هذه البتولة في الادراك، سررنا جميعاً بذلك.

لست اذكر كيف كانت البداية... ربما منذ ان اخذ يستشيرني عما اذا كان لا يمكن اقتصار عمله في الاطروحة على عام واحد. «والا – كان يقول في انفعال – سيكون عليّ ان احشر هنا عامين كاملين!» كان يقول هذا بصدق يصعب عليّ معه ان انقل اليك الشعور الذي كان يعتريني لدى سماعي كلماته هذه. فهي تنطوي على معاني كثيرة متعددة. اولاً، ينبغي على هذه الكلمات اننا جميعاً هنا «محشورون»، وان هذا بالنسبة لنا، نحن الناس المهملين البدائيين، امر طبيعي. اما بالنسبة له فمن غير المحتمل لا الاستمرار في العمل هنا، بل مجرد التفكير به واحتمال البقاء معنا مؤقتاً. ثانياً، يستخلص من كلمات زفياغينتسيف انه، في جوهر الامر، غير مهتم لشيء، خلا الاطروحة، وليس لمضمونها بالذات من اهمية الا بمقدار ما تؤمن حصوله على رتبة مرشح في العلوم. ولقد كنت اصغي لزفياغينتسيف وافكر: يا للشاب الغريب! اي شخص هو؟ أساذج

ام مجرد بليد، بليد الى درجة لا يدرك معها مدى الاهانة التي تلحقها اقواله بنا جميعاً؟ ام تراه قد بلغ من الاعتداد بنفسه حداً جعله لا يحتمل التفكير في اننا قد نشك في تفوقه، في حقه بوضع خاص وبمصير خاص متميز عن مصيرنا؟..

واختل مجرى حياتنا الرتيب بقدوم ذلك المعهد الذي تبحث عنه. على انه، قدر ما اعرف، ما كان معهداً كاملاً، بل جزءاً منه، مختبرات. كانوا يشتغلون مغلقين على انفسهم، والدار التي اعطيناهم اياها احيطت بحاجز... على ان الاسرار هي الاسرار، اما اماكننا فانها منعزلة، والناس جميعاً مرئيون، وغالباً ما كنا نزور ناديهم... وقال زفياغينتسيف ذات مرة: «هل يمكن ان آتي بضيفة؟» وظهر في المساء مع صبية بفراء واضح انه ليس من صنع محلي، الا ان جزمتها من اللباد. وتمد الي يدها وتقدم نفسها. وكانت هي ميرونوفا اولغا اليكسييفنا...

وتناول غلاديشيف القضيب ذا الملعقة، واغترف لقمة من الطنجرة، فنفخ عليها، ثم ذاقها، وهز برأسه...

واصاخ زافيالوف بسمعه. وشعر كأن احداً قد ضغط على كاهله بشدة. وتقدم الى امام مخافة ان تفلت منه ولو كلمة واحدة. وتابع غلاديشيف حديثه:

— ونزعت فراءها. كان قد مر عليّ وقت طويل لم ار فيه مثل هذه المرأة الجذابة. لم يكن ينتقص منها حتى الحذاء اللبادي الغليظ. العينان كبيرتان لماحتان، والشعر املس منسرح... مضحك طبعاً، بالنسبة لك، ان تسمع كيف اصفها، فانا في الرابعة والستين من العمر. ولكن ما كان يمكن ان لا الاحظ جاذبيتها.

بل ازيد فاقول: لقد بدا لي جد طبيعي ان اراهما معاً، اولغا اليكسييفنا وزفياغينتسيف. لا يأخذك الغضب، فاني لمحدثك عن كل شيء، كما كان. كلاهما قد اجتمع لهما الشباب والجمال... ولا اذكر هل قلت لك ان جماعتنا يشتغل فيها عدد غير قليل من النسوة، على اننا كنا قد ألفنا بعضنا بعضاً، او في الحقيقة ان عملنا — في الماء حيناً وعلى الجليد حيناً آخر — يترك طابعه على المظهر الخارجي للانسان، ولكني قد بدا لي — واكرر القول — ان من الطبيعي ان تظهر مع اندريه اندرييفيتش امرأة مثل اولغا اليكسييفنا بالذات. لم تطل المكوث عندنا، وقد اعددت انا الشاي... ثم ذهب اندريه اندرييفيتش معها ليوصلها الى الباص — فقد كانت في ذلك الحين ما تزال ساكنة في المدينة. ويعود مهتاجاً متحمساً، فيسأل: «هل اعجبتك؟» فاجيب: «في الحق، لن اخفي عليك»... وهنا راح يحدثني عنها قائلاً: يا لها من سيرة حياة عظيمة: محاربة سابقة، طيارة، وسامان حربيان. وفي الوقت نفسه مثل هذه الانوثة ومثل هذه النعومة. الحاصل، انك تدرك انت نفسه اية كلمات يجدها الرجل حين يعجب بامرأة...

وعبس زافيالوف واشار بيده اشارة تقول: «لأي شيء تحكي لي كل هذا؟» — ولكن غلاديشيف لم يلاحظ او لعله تظاهر بعدم ملاحظة حركة زافيالوف ولا تعابير وجهه.

والقى في النار عيداناً يابسة، وتابع يقول:

— ما احكيه لك جرى في شباط (فبراير) من هذا العام. وكانت قد اخذت ترد الى بقعتنا النائية معلومات عما جرى في

موسكو، في مؤتمر الحزب، وبعد بضعة ايام من قراءة الوثيقة المعروفة لديك، كنا نتحدث عنها فقط. لقد جرت حياتي على نحو كنت فيه دائماً اعمل بعيداً عن المراكز الثقافة الضخمة، ضمن جماعات صغيرة الا انها متلاحمة. فما عانيت انا ولا عانت زوجتي، بصورة مباشرة، من عبادة الشخصية، اذا كان المقصود كل تلك التجاوزات على القوانين والاضطهادات. ولكني استقبلت قرارات الحزب بكل قلبي، بكل كياني، ليس فقط لانها وضعت حداً للتجاوز على القانون، بل كذلك لأنها فتحت للشعب آفاق حياة جديدة... واني لادرك واحس ان شيئاً جديداً يدخل حياتي في الوقت الحاضر. اما اندريه اندرييفيتش زفياغينتسيف فقد استقبل قرار الحزب على نحو آخر تماماً. كان حتى ذلك الحين يعيش كأنما ثمة شيئاً ما يلاحقه بالسوط. ولكن ليس بمعنى العمل، بل... ايوه، كيف اشرح لك هذا؟ كانت تحفر في رأسه طول الوقت فكرة تقوم على انه متأخر ليس يدري اين، وانه يضيع من الوقت اكثر من اللازم على ما هو بالنسبة له مؤقت وعابر. وفي الامسيات، كان يحدثني طويلاً وبلهجة مؤثرة قائلاً اننا نعيش الآن في وقت تنفتح فيه للناس الموهوبين جميع الدروب، وان ليس ينبغي اضاعة ولو دقيقة واحدة، وانه يحسد اولغا اليكسييفنا على ما تقوم به من عمل له مثل هذه الاهمية وهذه المسؤولية، وهو موضع الاهتمام الدائم من قبل الحكومة. كان راغباً في الخلاص من الاطروحة باقصى ما يمكن من السرعة. ولقد كنت اصغي اليه بانتباه محاولاً فهم فكرة واحدة كانت تفلت مني على الدوام. فما كان في

وسعي ابداً ان ادرك ماذا يقصد زفياغينتسيف بالضبط حين يتحدث عن مستقبله، عما سيبدأ بعد «الخلاص» من الاطروحة. كان يبدو لي احياناً، مع اني كنت احاول اقناع نفسي بالعكس، ان زفياغينتسيف ما كان مستعجلاً قط لانه متعطش للانصراف الى عمل جديد هام، الى المهمة الرئيسية في حياته بل هو مستعجل فقط من اجل التوصل، التوصل بالذات الى قطعة حلوى كبيرة يمكن الآن، وقد اصبحت في متناول الجميع، ان يلتهموها دون ان يناله نصيب منها. ولقد كان يصدمني ايضاً ان زفياغينتسيف، في حديثه عن عمل اولغا اليكسييفنا، ما كان معجباً قط لا بجرأة ولا بتفاني هذه المرأة التي — وقد كنا نعرف هذا جيداً — كانت تجازف بحياتها في عملها على انواع من الوقود غير مجربة. انما كان معجباً بكون عملها، كما يقال، يحظى لدى الدولة باهتمام رسمي من الدرجة الاولى. واني لاعترف اني كنت في ذلك الحين ما ازال على علاقة حسنة بزفياغينتسيف، فما كنت اريد تفسير كلماته ونزعاته بمعناها السيىء. كنت احاول اقناع نفسي بان من الطبيعي الى حد ما، بالنسبة لشاب مثله زاخر بالقوة، ان يتطلع الى النشاط العاصف. فلكي يكرس المرء حياته للعمل هنا، على الشواطئ الخالية، ويجد فيه البهجة، لا بد ان يكون له مزاج خاص او يكون عجوزاً، مثلي انا ... ولقد وفقت لاقناع نفسي بهذا.

واذ ذاك عملت ما لن اغفره لنفسي: اخذت اساعده على كتابة الاطروحة. اجل، وما اقتصرت على دراسة المسائل العلمية معه، وعلى مشاطرته خبرتي الطويلة. بل رحت في الواقع

اعمل الكثير نيابة عنه... كل هذا، من حيث القول، يبدو كريهاً، ولكن لعلك تفهمني. اني وحيد. وقد كان هذا الشخص اصغر مني بمرتين. كان يمكن ان يكون ابني. وكنا نعيش معاً في غرفة واحدة. وكان لدي فراغ من الوقت. اول الامر، وضعت له موجزاً للفصل. ثم كتبت الموضوعات. وبعد ذلك استولت عليّ الحماسة. ففيما مضى لم يسبق لي قط ان كتبت مؤلفات علمية، انما كنت محض ممارس للعمل، اما الآن فقد اصبحت اطور افكاري على الورق؛ فبعد اربعين عاماً من العمل تجمعت لديّ ملاحظات لا بأس بها من حيث الاهمية... وكان اندريه يقرأ كل هذا. وبعد ذلك كان يقول انه ينبغي ان ينسى ما قرأ، ويبتعد عنه، والا فانه سيروح يردد افكاري. وكنت اقنعه بان هذا الخوف سخيف، وان ليس المهم من كان قائل الكلمة الاولى في العلم، بل المهم ان هذا يجري من اجل العلم، من اجل منفعة القضية... وهكذا دواليك. بالاختصار، جرت حكاية مضحكة. فقد تظاهر اندريه بالتمنع، وطالب بان اتوقف عن العمل، اما انا فقد الححت، واقنعته بالافادة من نتائج عملي. وانتهى الامر بان توصلنا الى اتفاق ضمني. واذ ذاك راح لا يجلس للعمل دون ان يرى الصفحات المكتوبة من قبلي...

وفي الحق، لقد بدا لي اذ ذاك ان قد ظهر في حياتي هدف جديد — تعليم عالم شاب. وكان ثمة ظرف آخر لا يقل عن هذا اهمية. فانا احب عملي. وأومن بأني ورفاقي نقدم للبلاد فائدة كبرى. بيد اني رجل ممارسة، وما كنت اتطلع الى لقب

عالم. فكنت افكر: ولِمَ لا اساعد شخصاً آخر على ان يصبح عالماً، ويصدر مؤلفاً علمياً، — وهل ترى من المهم تحت اي توقيع سيصدر؟.. سيكون امراً حسناً فقط ان يظهر داعية نشيط طموح آخر لدراسة الانهار والبحيرات. من وراء هذا سنكسب جميعاً، وستكسب قضيتي التي احبها.

وابتسم غلاديشيف، متابعاً كلامه:

— وها انت جالس تفكر باعصاب متوترة قائلاً في نفسك ما لي قد استطردت من جديد، ورحت اوجه انتباهك الى حياتي الخاصة، بدلاً من ان احدثك عما هو الاهم بالنسبة لك... ولكن مهلاً. اني لم انس شيئاً... في ذلك الحين اتفق لي اكثر من مرة ان التقيت باوليا. كانت تظهر لي الكثير من المودة، وفي كل مرة كانت تقول كم يتحمس لي زفياغينتسيف، وكم يكنّ لي من العطف، وكم هو مدين لي بالكثير. ولما كنت اعرف ان اولغا اليكسيفنا معجبة بزفياغينتسيف، ولما كنت اعرف (وكيف لا يعرف المرء كثيراً عن آخر وهو يعيش معه كتفاً لكتف!) ان علاقاتهما لا تتطور وكأنما هي قد توقفت عند حد «المعرفة الطيبة»، فقد كنت احاول قدر طاقتي التحدث بالخير عن اندريه. كنت احاول تعزيز اهتمامها به... فيا لي من عجوز احمق!

وها انا الآن اصل الى النهاية... ولكن، مهلاً، فان شوربة السمك اصبحت جاهزة! — قال غلاديشيف هذا، وهو ينظر الى الطنجرة تفور وتغلي.

– بعد، بعد! – قال زافيالوف بفراغ صبر – ارجوك، استمر!

– لا بأس، فلأستمر. سبق ان قلت اننا ننظم في الصيف بعثات علمية على الزوارق البخارية، فنقوم ببحوث بواسطة الاجهزة. وبعضها، كدراسة قعر البحيرة، مثلاً، يستمر بضعة شهور. اما في الشتاء فننزل على الجليد – فان بحيرة «تايوجنويه» تتجمد في الشتاء. وماذا نفعل هناك؟ الكثير. ننزل تحت الجليد دوارات لدراسة المجرى والسرعة والاتجاه، نقيس الحرارة في مختلف الاعماق، وفعل نور الشمس النافذ عبر الجليد... وغير ذلك كثير. وقد ذهبنا في آذار (مارس) في البعثة التي اود الآن التحدث عنها: انا، وزفياغينتسيف، وفورونيخين، خبيرنا في علم الحياة المائية. كان علينا ان نقضي شهراً او شهراً ونصف الشهر – بالاختصار، حتى بداية الربيع، حين يكون البقاء على الجليد خطراً. وبمعونة الرفاق حملنا على سيارة شحن صناديق وضعت فيها الاجهزة والادوات الضرورية لمحطة دراسة الاحوال الجوية، والمواد الغذائية، والضروريات للمنامة. وقطرت بهذه السيارة حجرة على زحافات، كان علينا ان نعيش فيها، وودعنا الرفاق. وجاءت لوداعنا اولغا اليكسييفنا ايضاً. وليس نادراً خروج مثل هذه البعثة الى الجليد لمسافة تبعد مئات الكيلومترات عن القاعدة. وكان علينا ان نقوم بمهمة في منتهى البساطة، وان نبتعد عن الشاطئ ما لا يزيد عن كيلومترين ونصف او ثلاثة. واذ بلغنا المكان، اقمنا حجرتنا الصغيرة، وانزلنا الادوات. وذهبت السيارات، وبقينا نحن الثلاثة على الجليد...

واقول لك: ان المرء حين يكون في مثل هذه البعثات يكون امامه سبيل واحد للسلامة هو – العمل. والا فقد عقله. بالنسبة لي كان كل هذا قد بات من البدهيات منذ وقت بعيد. فانا اطلاقاً لا اعرف ما هو الضجر. وقد اتفق لي ان اشتركت في حياتي بالعشرات من امثال هذه البعثات. واما زفياغينتسيف فقد كان حديث عهد بالمهنة. ولذلك فقد كنت احاول ان يكون لديه اقل ما يمكن من الوقت للراحة، خلا النوم، طبعاً. اول الامر، كان اندريه في مزاج جد نشيط ومندفع. وقد ابدى براعة طيبة حين رحنا ندفئ حجرتنا، اي حين احطناها بحواجز اقتطعناها من الثلج، ثم غطيناها بسائل ثلجي. وهكذا مر يوم ونحن نحفر حفرة في الجليد، وندعم البيت، ونقيم ادوات دراسة الاحوال الجوية، وننصب الصارية ونرفع عليها الراية. وفي الصباح بدأت ايام العمل. ولقد عشنا على الجليد اكثر من شهر ونصف. وبعد ذلك حدث ذلك الامر...

جرى ذلك في الربيع، حين بات البقاء على الجليد غير سليم العاقبة. فكان علينا ان نقلع بالبعثة ونعود الى الشاطئ. وفي ذلك اليوم ذهب خبيرنا في علم الحياة المائية فورونيخين الى البر منذ الصباح للاتفاق على ارسال سيارات وغير ذلك مما يتصل بعودتنا. وبقينا انا وزفياغينتسيف لوحدنا. وبعد ساعة او ساعتين هبت عاصفة ثلجية. والرياح في هذه الانحاء اكثر من اللازم على العموم. فمن المألوف ان تهب الرياح العاصفة فجأة وتبلغ على الفور قوة هائلة. ولقد شعرت بدنوها في الحال. اول الامر، لم تتجاوز الرياح القوة الوسطية، بمعدل ١٥ – ٢٠ متراً في الثانية،

وكان الوضع ما يزال محتملاً تماماً. ولكني بهذا انما اعبر لك عن شعوري الخاص، فانا، اكرر، معتاد على كل شيء. اما بالنسبة للشخص المستجدّ، فان مجرد الرياح الثلجية العادية على سطح جليد البحيرة امر مزعج. تصور ان كل شيء تلفه عتمة كالحة، والرياح تعصف وتزمجر بشدة متزايدة باطراد... سبق ان قلت لك ان بعثتنا قد استقرت في مكان غير بعيد، والشاطئ في الصحو مرئي من عندنا بجلاء، ونحن مرئيون من هناك كأننا على راحة الكف. وكان لهذا دور نفسي غير قليل بالنسبة لزفياغينتسيف، بحيث حمل الى نفسه الطمأنينة. ولكن حين عصفت الرياح وبات الشاطئ مغطى بضباب ثلجي، فبدا كأن ليس حولك احد على مئات عديدة من الكيلومترات، واما من تحتك فهاوية من الماء لا قرار لها. واذ ذاك تغير مزاج رفيقي. فاكفهر وجهه، وتقطب حاجباه، وأقعى في زاوية بعيدة من الحجرة، وراح ينظر بهلع الى الباب وهو يهتز تحت وطأة هبات الرياح، مرهفاً اذنيه ومنتعشاً حين بدا ان الرياح تخف وطأتها. اما انا فقد كنت اعلم ان ذلك ما هو الا البداية، وان الرياح ما ان تهدأ لحظة حتى تعصف بقوة مضاعفة.

بالطبع، كان البقاء في حجرتنا في مثل ذلك الوقت دون مبارحتها امراً غير رهيب ومحتملاً. ولكن القضية هي اننا ما كان ينبغي لنا ولا كان من حقنا المكوث. ان واجبنا يقضي علينا بالخروج في اية حال جوية، في وقت معين، وان لا نقتصر على تسجيل الاشارات الظاهرة على الاجهزة، بل وان نقوم ايضاً بالقياسات الضرورية. وفضلاً عن ذلك، فان علينا في مثل

هذه الاحوال الجوية ان نبرح ملجأنا اكثر من المعتاد لكي نقوم قبل فوات الآوان بتدعيم اجهزة دراسة الاحوال الجوية، والخيمة التي تغطي الثقب في الجليد. وكان علينا ان نقوم باداء المهمات كلها نحن الاثنين، ما دام فورونيخين قد ذهب، وما كان في وسعه، بالطبع، ان يرجع في مثل هذه الاحوال الجوية السيئة.

... وللمرة الاولى وفقت مع ذلك لارغام اندريه على مغادرة الحجرة. واني لاعترف باني كنت شديد الأسى على هذا الفتى، ولكني ارغمته على الزحف فوق الجليد نحو الاجهزة — زحفاً بالضبط لأن السير على القدمين والقامة منتصبة كان قد اصبح مستحيلاً. ولقد الححت عليه بمغادرة الحجرة ليس فقط لأني ما كنت لأستطيع فعل ذلك لوحدي. انما كنت راغباً في ارغام اندريه على التغلب على الخوف، والقيام بعمل شاق يتطلب اشد الانتباه. وكانت الرياح في هذه الاثناء قد بلغت قوة هائلة. وقد نزع وحمل الخيمة التي كنا قد وضعنا فيها دواراتنا وبارومتراتنا. وكان ينبغي اذ ذاك انزال الاجهزة الى الثقب في العراء وفي وجه الرياح. كان المعدن يحرق الاصابع، وحين كان يقع عليها الماء كان الألم يغدو غير محتمل.

... وتطلعت حولي، فما رأيت اندريه قربي. فرحت اصيح، ولكن الرياح كانت كأنما تدفع بصوتي فترده الى حنجرتي. ثم زحفت الى وراء، وقد حكمت بان اندريه قد ضل الطريق، الا اني لم اجده. وما رأيته الا حين عدت الى الحجرة: فاذا هو جالس في مكانه السابق، مقعياً في الزاوية.

فسألته بحدة: «لماذا انت هنا؟»

فظل صامتاً، يتنفس بصعوبة، كأنه مصاب بالربو.

فكررت سؤالي. واذ ذاك اجاب:

«للقرد! اني لن اخرج من البيت!»

فقلت له بلهجة صارمة: «ستخرج، ان هذا واجبك، ولزام عليك ان تؤديه».

«واجب؟ – سأل مكرراً كلمتي، باسطاً يديه امامه، ونافخاً على اصابعه المتجمدة، – هل تراك تمزح؟ وما هو واجبي؟ أن أنزل هذه الحدائد الى الماء؟»

لو لم تفلت من فمه كلمة «الحدائد» الخرقاء بالنسبة لاختصاصي، لربما كنت قد احتفظت برباطة جأشي. ولكن هذه الكلمة الحمقاء اثارتني. فصحت به:

«يا للعار! هذه ليست حدائد، بل اجهزة قد ترتبط حياتك كلها بالعمل بها! وواجبك...»

«واجب!.. – وبدت في صوت زفياغينتسيف هذه المرة سخرية سافرة – كفاك تكرراً لهذه الكلمات الطنانة. يبدو انها الآن لم تعد على الموضة! واجب! واجب!.. ترى اية احداث يجب ان تقع ايضاً لكي يقلع اناس مثلك عن التنويم بالعبارات الفخمة؟..»

اجل، هكذا بالضبط اجابني واني لاتذكر ذلك كلمة كلمة.

ولقد سألته بصوت خفيض:

«ولكن ماذا تقترح؟»

فهتف قائلاً:

«العودة الى الشاطئ! ألا ترى ان الاعصار سيقتلع كل شيء في ساعة ما؟ ولا تنس ان قد اقبل الربيع، وتحت وطأة مثل هذه الرياح قد يبدأ تحرك الجليد، واذ ذاك...»

«تقترح الذهاب الى الشاطئ في مثل هذا النوء؟»

«نعم، نعم! اننا على بعد قرابة كيلومترين عن الشاطئ. ومعنا بوصلة. فاذا اتجهنا وجهة صحيحة فاننا سنبلغ مكاناً ما!»

«ولكنك تقول انك لست في حال تستطيع معها قطع عشرة امتار...»

«الى اين؟! الى تلك الحفرة الحمقاء!»

ففهمت كل شيء. ما كان يريد ان يخطو خطوة واحدة من اجل اداء واجبه. اما من اجل ان يسلم بجلده، فقد كان مستعداً لكل شيء.

حتى ذلك الحين كنت اعتقد ان شعور الكراهية اللاهبة التي لا تعرف الرحمة غريب عني. ولقد كنت على خطأ. ففي تلك اللحظة حقدت على ذلك الشخص حقداً كنت على استعداد معه لان اقتله وان ادعسه بقدمي. ولقد فهمت كل شيء. فهمت ماذا كنت بالنسبة لهذا الحقير الشاب المفعم بالقوى الجسدية. واذ ذاك قلت في هدوء، وان اكن بالكاد متمالكاً نفسي عن ان اضربه:

«انك جبان. جبان حقير. فراري. واني لأطلب، كرئيس للبعثة، تأدية الواجب مهما يكن موقفك من هذا المفهوم. والآن سنذهب الى اجهزة دراسة الاحوال الجوية...»

«كلا! لا قوة لي على ذلك. يداي متجمدتان. ولست استطيع التنفس في مثل هذه الرياح. ثمة وجع في رئتيّ. ولا اريد ان اكون مدى عمري من العجزة».

«حسناً – قلت له – اني منذرك: سأحكي كل شيء متى عدنا الى القاعدة. وسأحكي ايضاً كيف «تكتب» الاطروحة...»

فخرس وانكمش كأنما اصابته ضربة. ثم نهض ببطء وقال بصوت متقطع:

«أحقاً، يا قسطنطين غيورغيفيتش؟ كم كنت اقدر... ألست انت نفسك... ما كنت اتوقع... انك لم تفهمني كما ينبغي... ان رئتيّ بالفعل مريضتان.... يمكن التأكد من ذلك على الاشعة... ولكن اذا كنت تطالب جدياً، فاني، بالطبع، سأذهب. اني افهم كل شيء... الانضباط...»

ورحت ازحف نحو برج مراقبة الاحوال الجوية، عارفاً انه يتبعني. لقد انتصرت. ارغمته على الزحف. وان يكن تحت التهديد والوعيد. وكان يسرني الشعور بان الرياح تصفعه، تلطم وجهه، تعمي عينيه. كان كل شيء يزمجر من حولنا. كانت العاصفة الثلجية تزمجر، والاسلاك التي كان برج مراقبة احوال جوية مربوطاً بها تعوي. وبغتة تنهال على رأسي ضربة...

لا، لا، ليس لزفياغينتسيف علاقة بالامر. جليّ ان الاعصار قد اقتلع لوح خشب، عضادة، شيئاً من خشب او حديد، فضربني على رأسي... على اني فهمت كل ذلك فيما بعد، حين صحوت، او ربما ابعد من ذلك...

افقت من اغمائي فرأيتني طريحاً على الارض في حجرتنا. رفعت يدي وجسست رأسي. كان على جبهتي منديل مبلل بالدم. كانت نفسي تجيش، وكل شيء يفتل امام عيني. واغلب الظن ان قد اغمي عليّ من جديد، وصحوت من جديد. كنت عاجزاً عن رفع رأسي والنظر الى ما حولي، ولكني شعرت اني لوحدي في الحجرة. وتلمست بيدي فوقعت على طاس من التنك، لا بدري لماذا كانت موجودة على الارض، بقربي. ثم عثرت اصابعي على صفحة من الورق موضوعة تحت الطاس. فتناولتها ورفعتها فوق رأسي وقرأتها بصعوبة.

كانت رسالة صغيرة من زفياغينتسيف، يقول فيها اني مصاب بجرح خطير، وانه قد جرّني الى هنا، الى الحجرة، وضمدني، ولكنه لما كان مقتنعاً بضرورة الاسعاف الطبي الفوري لي، فقد قرر النفاذ الى الشاطئ، ليقدم اخباراً وينقذ حياتي.

وكان ثمة خط تحت كلمة «النفاذ». ويبدو اني قد اغمي عليّ من جديد. وحين صحوت رأيت... اولغا اليكسييفنا ميرونوفا، منحنية عليّ...

اما كيف جرى كل هذا، وما كان سبب ظهورها هناك، فقد عرفت ذلك فيما بعد، منها. كانت راجعة من عملها، مسرعة الى الباص، فرأت زفياغينتسيف يمشي الهوينا على الشاطئ. فاسرع اليها وقال ان مصيبة قد وقعت، واني جريح، ينزف الكثير من دمي، وانه قد بلغ الشاطئ بمشقة، وانه الآن مسرع الى القاعدة طلباً للاسعاف. ولما كانت اولغا اليكسييفنا تدرك ان سيمضي غير قليل من الوقت قبل ايجاد الطبيب ووسيلة

النقل، فقد اقترحت على زفياغينتسيف ان يسرع على الفور لابلاغ القاعدة عما جرى، وان يعود معها على الفور الى الجليد. واضافت قائلة ان لديها بعض الخبرة في معالجة الجرحى: ففي الماضي، على الجبهة، كانت في المستشفى واتيح لها ان تساعد الاطباء بصفة ممرضة... ولكن زفياغينتسيف اجاب بان هذا سخف، وان من اللازم انتظار الطبيب، وفوق هذا فما هو بقادر على السير من جديد على الجليد.

واذ ذاك ذهبت اولغا اليكسييفنا لوحدها. في ايام الصحو كانت ترى مخيمنا الصغير من الشاطئ، وكانت على ثقة من ان ذلك جد قريب. اما كيف وفقت للنفاذ اليّ عبر ذلك الاعصار، وسط الضباب الثلجي، فهذا ما لا اعرف... ولكنها وصلت.

كل ما جرى بعد ذلك مما يتعلق بي مباشرة لا يهمك على الارجح. اما ما يتعلق باوليا فلزام عليّ ان ارويه لك. وليست القضية هي في اني لو لم تأت لنزف دمي. القضية في غير هذا. لقد سبق ان قلت لك ان زفياغينتسيف كان يتحبب لاولغا اليكسييفنا بالحاح. واني لاعترف مرة اخرى والخجل يعروني باني كنت احاول الاسهام في الربط بينهما. واذ ذاك كنت ارى ان واجبي يقوم على الضد من ذلك: ان احذّر اوليا، ان افتح عينيها على زفياغينتسيف... ولقد حكيت لها كل ما جرى في تلك الحجرة...

اما بعد ذلك، فقد تطورت الاحداث على هذا النحو.

حين غادرت المستشفى وعدت الى هنا، كان زفياغينتسيف اول شخص استقبلني. وكان جلياً انه عارف من قبل باليوم

وبالساعة التي سأعود فيهما. ولقد هنأني زفياغينتسيف بالعافية وراح يتحدث متفخما عن مدى المشقة التي عاناها ذلك اليوم حتى وصل الى الشاطئ. وكان معنى حديثه يتلخص بامر واحد: انه في سبيل انقاذ حياتي قد قام بمأثرة، فاقتحم خطر الموت، وتوصل الى القاعدة وقدم اخباراً.

كنت ملتزماً الصمت. كان كريهاً لي النظر الى زفياغينتسيف والاستماع اليه. انه بالنسبة لي لم يعد في الوجود. اما انا فقد كنت جد ضروري له. ومن بعيد، وشيئاً فشيئاً، وكأنما يتحدث عن شيء ما سخيف، مخالف للطبيعة، قال ان قاعدتنا تروج فيها شائعات غامضة تتهمه زعماً بانه قد تركني لوحدي، والدماء تنزف مني، بل وبانه لم يستخدم الصيدلية الموجودة في الحجرة، وقد اكتشفتها ميرونوفا فيما بعد. ولكن من الوا ضح لكل شخص غير متحيز ان اول عمل كان ينبغي ان يقوم به في تلك الحال هو الاسراع الى الشاطئ، وتقديم الاخبار! وما كانت لديه اية خبرة طبية. وقد بادر على الفور الى تضميدي بما وقع تحت يده. اما الصيدلية فلم يخطر له اذ ذاك التفكير بها. اما ميرونوفا فلا تكاد تسلم عليه. ثمة شائعات غامضة تروج لدى الجماعة...

اول الامر كنت اصغي لزفياغينتسيف في غير مبالاة على الاطلاق، ولكني اصبحت فيما بعد اشعر بفضول حاد. انه لم يشر ولو بكلمة واحدة الى ذلك الحوار الذي جرى بيننا في الحجرة. فكأنما لم يحدث بيننا خصام. وكأنما لم ادرك ان جرحي كان بالنسبة له مخرجاً من الوضع الذي هو فيه، وذريعة ممتازة

للفرار. ام تراه كان يحسب ان الجرح قد اصاب ذاكرتي بالخلل؟..

ولكن لا، لقد ادركت سريعاً جداً ما القضية. لقد كان زفياغينتسيف يعلق آماله على الطيبة الانسانية، على الوجدان. كان ينتمي الى ذلك الصنف من الناس الذين لا يعدون الانسان طيباً الا في حال ما اذا شملتهم هذه الطيبة هم انفسهم. واذا كان الناس شرفاء، مخلصين، اذا كان لديهم استعداد لمساعدة الرفاق ساعة تحل بهم مصيبة، فانهم، حسب اقتناع زفياغينتسيف، ملزمون، ملزمون على وجه التخصيص بابداء جميع هذه الصفات نحوه قبل كل شيء. انه هو غير ملزم بشيء نحو احد. اما هم فملزمون! ذلك هو السر! ان له هو، زفياغينتسيف، الحق بان يتطلب من الناس ان يساعدوه، ان يغضوا الطرف عن عيوبه، ان يحبوه. اما هو فله الحرية في ان يتصرف على هواه. فيا لهذا التناقض الطريف! اني الآن ايضاً لا آخذ على عاتقي القول في ثقة ويقين ما الذي كان يقوم في اساس ذلك التصرف الذي صدر عن زفياغينتسيف، أهو حساب مقصود ام انانية لا يمكن وصفها. ان زفياغينتسيف مؤمن بان له الحق في ان يجيء الى شخص عارف بانه، هو زفياغينتسيف، نذل حقير، فيقول له وهو يبتسم ابتسامة لطيفة سافرة: «ساعدني، افعل هذا لأجلي!» وهو موقن، الى جانب هذا، بان ليس من حق الناس رفض ذلك. ولقد جاءني بمثل هذا الطلب. وعلى مَ يقوم هذا الطلب؟ على ان نلتقي نحن الثلاثة: هو، وانا، واولغا اليكسييفنا. وما كان ينتظر زفياغينتسيف غير مغادرتي المستشفى لكي يلتمس مني

هذه المقابلة. ولقد نسي اية مشاعر كان يكنها لميرونوفا. ولكنه يطلب ان يعود اسمه الطيب بحضور اولغا اليكسييفنا بالذات.

ولقد سألته: «ولماذا تعتقد أنها ستوافق على ما يسمّى «محكمة الشرف» هذه؟»

فسارع زفياغينتسيف للجواب: «لانها وعدتني». انه حين التقى بميرونوفا قال لها – حسب تأكيداته – بانه لا يشك بموقفي الطيب منه. اما هي فقد ابتسمت في سخرية، ونظرت اليه نظرة غريبة، واجابت: «طيب، فلتتحقق من الامر».

ولقد ادركت مقصد اولغا اليكسييفنا، فـ... وافقت.

وهب غلاديشيف واقفاً على قدميه وقال لزافيالوف:

– والآن، اسمع. لقد وعدتك بانها ستكون معنا، أتذكر؟ فاليك، لقد كانت واقفة هنا. في هذا المكان بالذات الذي تجلس فيه الآن. فتصور هذا... فستراها. وكنت انا واقفاً هنا، حيث اقف الآن. اما زفياغينتسيف فكان يوقد النار. نزهة في التايغا. انها من التقاليد السيبيرية القديمة. والآن تدرك انت السبب في اني رغبت بان نتحدث عن اوليا هنا بالذات... اول الامر، كنا جميعاً صامتين. وكان زفياغينتسيف يوقد النار، كأن ليس يعنيه من الامر شيء، ربما، الا انه كان جد منهمك بالعمل. كان الوقت، مثل الآن، مساء. طبخنا شوربة سمك، واكلنا صامتين. ثم تناول زفياغينتسيف قنينة فودكا، ولكن، في تلك اللحظة، قالت اولغا اليكسييفنا:

«لننتظر، يا زفياغينتسيف. لا بد لي ان اعلم مع من سيكون عليّ ان اشرب. فلنتحدث عن هذا».

«بطيبة خاطر! — وترك زفياغينتسيف القنينة على الارض، وابتسم ابتسامته السافرة المشعة، وربما الحزينة بعض الشيء، وقال: — لقد كنت صاحب المبادرة في هذا التلاقي، ايها الصديقان. ومنذ وقت بعيد لم نلتق نحن الثلاثة. فهل تتذكران لقاءاتنا الثلاثية، ايها الرفيقان؟»

ولبثنا صامتين.

«وبودي ان يكون هذا اللقاء كتلك اللقاءات طيباً، صريحاً، مشرقاً. ولكن لا بد لهذا من تبديد بعض الضباب. فاسمحا لي بان اقول بضع كلمات بهذا الصدد. يبدو لي ان الوقت الذي كان يمكن فيه للشائعات القاتمة والشبهات الغامضة ان تشوه حياة الانسان، قد مضى وانقضى. مضى الى غير رجعة. وانتما، بالطبع، موافقان على هذا؟»

«اجل، نحن، بالطبع، موافقان على هذا» — اجابت اوليا.

«ما كنت على شك من هذا. وبالتالي، لا بد ان تكونا موافقين على ان لي الحق بتبديد الشائعات الكاذبة الرائجة حول شخصي المتواضع. فلماذا اخترتكما انتما بالذات لمثل هذا الحديث؟ لانك انت، يا قسطنطين غيورغيفيتش — والتفت اليّ — صديقي ورفيقي القديم، والرجل الذي اثق به ثقة لا حد لها وانحني لنفوذه. اما فيما يتعلق بك انت، يا اولغا اليكسييفنا، فان...»

واغمض عينيه قليلاً، وسكت.

«تابع الخلط، يا زفياغينتسيف» — قالت اولغا اليكسييفنا، ورنت كلمة «الخلط» العامية هذه بكثير من الحدة بل ومن الخشونة، اذ لم تكن من مألوف عادتها قط.

فتابع زفياغينتسيف كلامه، باسطاً يديه:

«حسناً، ساتناول الامر مباشرة. فاسمحا لي ان اطرح عليكما بضعة اسئلة. السؤال الاول لك، يا قسطنطين غيورغيفيتش. حين زحفنا عبر العاصفة الثلجية نحو برج مراقبة الاحوال الجوية، هل كنت معك؟»

فأكدت قائلاً: «نعم».

«وبعد ان اصبت بالضربة، من الذي اخذك الى الحجرة؟»

«ما دمنا كنا اثنين، فمن الجليّ انك انت».

«هل تيسر لك ان تقرأ الرسالة الصغيرة التي تركتها؟ كانت موضوعة على مقربة منك، تحت الطاس».

«نعم».

«هل كانت حالتك تتطلب معالجة طبية اختصاصية؟»

«واضح».

«أانت موافق على ان الذهاب مفرداً الى الشاطئ في تلك العاصفة الثلجية خطر جداً؟»

وبدأت اقول: «حين يبدو للمرء انه بذلك ينقذ حياة...» ولكنه نظر اليّ نظرة استعطاف وتهديد في الوقت نفسه، وقاطعني قائلاً:

«ولقد حاولت انقاذ حياتك. فما محل «يبدو» هذه؟ ولديّ

الآن سؤال لك، يا اولغا اليكسييفنا. لقد التقينا على الشاطئ. صحيح؟.. لماذا انت صامتة؟»

فقالت اوليا، وهي تحدّق في عينيه:

«اسمع، يا اندريه اندرييفيتش، ما هذه المسرحية التي تمثلها؟ سؤال – جواب، سؤال – جواب... اجل، لقد التقيت بك على الشاطئ. وماذا بعد؟»

«اسمحي لي – قال زفياغينتسيف في اضطراب – ولكن بدا لي ان الامر سيكون ايسر بهذا الشكل... على اني سانتهي الآن. ثمة سؤال واحد فقط. أكنت تعرفين اني، بعد ان جئت الى القاعدة وابلغت عما حدث، قد مرضت في الوقت نفسه ولبثت طريح الفراش اسبوعين مصاباً برشح ثقيل، لا ابارح الغرفة؟»

«ما كنت اعرف، مع الأسف».

فقال زفياغينتسيف بشيء من التخوف، متظاهراً بانه لم يلاحظ لهجة اولغا الحادة:

«وقد قيل لي فيما بعد انك كنت بين الذين ذهبوا لنجدة قسطنطين غيورغيفيتش. ففي وسعك، بالتالي، التأكيد بان وضع قسطنطين غيورغيفيتش كان يتطلب اسعافاً فورياً من قبل طبيب. وقد دبرت هذا الاسعاف انا. تلك هي الوقائع. فهل انتما موافقان؟»

فلبثنا صامتين.

فقال زفياغينتسيف منفعلاً بحماسة غير منتظرة، وقد شجعه صمتنا:

«فلماذا والحالة هذه، لماذا لا يقول اي منكما هذا على رؤوس الاشهاد؟ لماذا، وانتما تعرفان اكثر من الجميع، لا ترفعان صوتيكما ولا تضعان حداً للشائعات الغامضة؟ تروّج عني مفتريات تزعم اني اهملت الجريح ثم لم اذهب لدلالة الطبيب والرفاق الآخرين على الدرب ... ولكن منذا الذي كان في وسعه تذكر ذلك الدرب في مثل تلك العاصفة الثلجية؟ فحين سرت نحو الشاطئ كنت اتلمس الدرب تلمساً، وكيفما اتفق... ثم مرضت فوراً. اما انتما، انتما اللذان تعرفان كل شيء، فتلتزمان الصمت!» واشار زفياغينتسيف بيده اشارة حادة معبرة عن الاستياء، وادار ظهره.

وقطع غلاديشيف حكايته وخاطب زافيالوف قائلاً:

– لا شك انك تذكر عبارة نيرون التي يقال انه نطق بها قبل الانتحار: «اي ممثل سيفنى...» وقد كنت وانا انظر الى زفياغينتسيف موشكاً على تكرار هذه الكلمات. وفي الحق انه لتمثيل فني ممتاز! جلي انه كان يؤمن بما يقول، على الاقل ساعة كان يقوله... ولقد كنت افكر وانا استمع اليه: وبماذا يمكن اتهامه، انطلاقاً من وجهة النظر الحقوقية؟ ان من مصلحة زفياغينتسيف المباشرة المطالبة بمناقشة صريحة لسلوكه. وكنت انا الشخص الوحيد الذي يمكن ان يتحدث عن الوقائع التي تدينه. ولكن اما كان زفياغينتسيف مؤمناً باني انا الذي لم احزم امري فاطرده لدى اول لقاء معه بعد مغادرة المستشفى، ووافقت على اللقاء في التايغا، سوف التزم الصمت؟ بدافع من شعور الاشفاق،

والقرف، بدافع من مفاهيم المثقفين الخاطئة، بدافع لا يدري القرد ما هو، ولكني التزمت الصمت!..

وهكذا ادار اندريه اندرييفيتش ظهره. ولكني كنت، وانا انظر الى ظهره، مقتنعاً بان في عينيه دموعاً في منتهى الصدق. واذ ذاك سمعت صوت اولغا اليكسييفنا. قالت بصوت غير مرتفع:

«ليس لدي خبرة بالقضاء، يا اندريه اندرييفيتش... اتفق لي حضور المحاكمة مرة واحدة في محكمة عسكرية. كانت تجري محاكمة فراري. وبعد ذلك اعدموه رمياً بالرصاص. وقد كانت محاكمة قصيرة وشريفة. واذكر مصادفة اخرى، مغايرة تماماً، وكان ذلك في زمن السلم، وكان علي انا نفسي ان اؤدي الشهادة... وما هي من الذكريات المحببة للنفس. هذا، في الواقع، كل شيء. فانا افضل المحاورة الانسانية البسيطة على التحقيق الشكلي. ولكنك قلت انك تفضل الاسئلة والاجوبة. لا بأس، فليكن الامر على طريقتك. فعندي لك سؤال. جلي انك، وقد تركت قسطنطين غيورغيفيتش سارعت جداً، وهرعت الى الشاطئ لبلوغ القاعدة باقصى ما يمكن من السرعة. صحيح؟»

والتفت زفياغينتسيف لدى سماعه اول رنة من صوت اوليا. ما كنت مخطئاً. كانت عيناه تلمعان على ضوء الموقد. وهبّ واقفاً، متقدماً جهة اولغا اليكسييفنا، وكل مظاهره تدل على انه مستعد للاجابة على اي سؤال من اسئلتها.

واجاب بانفعال: «طبعاً!»

«فقل اذن لماذا ذهبت لا باتجاه القاعدة، بل بالاتجاه المعاكس؟»

«ما هذا؟ – ساءلت نفسي – ذهب بالاتجاه المعاكس؟»

«تذكّر – تابعت اولغا اليكسييفنا – فقد كنت ذاهباً باتجاه موقف الباص، المعاكس تماماً لاتجاه القاعدة. صحيح؟»

فهز زفياغينتسيف كتفيه. وقال:

«هذا من قبيل الغفلة. كل ما في الامر اني كنت تعباً، مرهقاً، مقروراً وحين وصلت الشاطئ كنت مشوش الذهن».

«لنسلم بهذا. ثمة سؤال آخر. حين دخلت الحجرة رأيت ان قسطنطين غيورغيفيتش يترف دماً. فلماذا تركته بدون تضميد؟»

فقال زفياغينتسيف بلطف، ولكن باصرار، كأنما هو يخاطب طفلاً عنيداً:

«ولكن لقد سبق ان قلت اني قد استخدمت اول ما وقع تحت يدي. وكان ذلك منديلاً، على ما يبدو. وعدا ذلك فان الطبيب يمكن ان يحكم على وضع المريض، لا انت يا اولغا اليكسييفنا».

وتابعت اولغا كلامها بصوت هادئ:

«حين دخلت الحجرة، لم يكن الطبيب قد جاء بعد. وقد وصل بعد ساعتين فقط...»

وكرر زفياغينتسيف بارتباك:

«حين دخلت الى هناك؟ ولكن اين كان الطبيب؟ فقد نزلتم الى الجليد معاً؟»

فتدخلت في الحديث قائلاً:

«اولغا اليكسيفنا جاءت على الجليد لوحدها».

وبارتباك جديد كرر زفياغينتسيف:

«لوحدها؟ تريد ان تقول انها، بعد التقائها بي، مضت في الطريق لوحدها، برغم العاصفة الثلجية الرهيبة؟»

وباضطراب كلي حول زفياغينتسيف انظاره عني الى اولغا. ما كان في وسعه ان يصدق، ما كان في وسعه ان يتصور ان الانسان يمكن ان يقوم بعمل متفان دون ان يكون له هو نفسه من وراء ذلك اي مغنم.

«قل يا زفياغينتسيف – قالت اولغا بتأن، وتقدمت نحوه خطوة – هل كان موت قسطنطين غيورغيفيتش يكون مصيبة كبرى بالنسبة لك؟»

كانت تفصل بينهما اذ ذاك قطع الفحم غير المنطفئة بعد في الموقد. وتطلعت الى وجه اولغا اليكسيفنا، فشعرت على الفور بالرهبة. فقد ألفت ان اراه طيباً، لطيفاً، فتياً، اما اذ ذاك فكأنما زاد عمرها عشر سنوات. كانت عيناها الكبيرتان الشبيهتان بعيني الطفل متقلصتين. وكان يتلامع فيهما الضوء الاحمر الخطر المنبعث من الموقد.

واجاب زفياغينتسيف، متأتئاً:

«انا... انا لا افهم معنى هذا السؤال الغريب. بالطبع، كان من شأن فقدان قسطنطين غيورغيفيتش ان يكون بالنسبة لنا جميعاً، وانا بالجملة، امراً رهيباً... وبخاصة لي انا».

فسألت اوليا بلهجة قاسية:

«ولماذا لك بخاصة، يا اندريه اندرييفيتش؟ أما ترى قد

فعل قسطنطين غيورغيفيتش بعد كل ما كنت في حاجة اليه منه تقريباً؟ ربما كان قد حان الوقت لان يزول من الوجود؟»

فشعرت في يدي بقشعريرة من البرد. اذ ذاك فقط فهمت: ذلك ان زفياغينتسيف ما كان يعلم، حتى اللحظة الاخيرة، ان اولغا قد ذهبت لوحدها على الجليد، دون ان تنتظره. وما كان يعلم اننا قد امضينا معاً لوحدنا مدة من الوقت حتى جاء الطبيب، ما كان يعلم انه كان بوسعي ان احكي لها كل شيء. كل شيء!

حاول اندريه اندرييفيتش امتلاك زمام نفسه. وما هي الا لحظة اخرى حتى زالت من وجهه علائم الاضطراب. فكان اذ ذاك يعبر عن الارتباك وخيبة الأمل، وغضب الانانية المجروحة.

والتفت اليّ بحدة وصاح بصوت زاخر بالغضب والاستياء:

«انك خائن، يا قسطنطين غيورغيفيتش!..»

وتابع غلاديشيف كلامه مخاطباً زافيالوف:

«وصدق انك لو كنت يومذاك هنا، على مقربة، وكنت غير عارف بالوضع الحقيقي للاشياء، وسمعت هذه الكلمات الصادقة تنطق بذلك الاستنكار والحماسة، لكنت صدقت على الارجح ان امامه خائن حقيقي! وعلاوة على ذلك فقد كنت على اقتناع من ان زفياغينتسيف في تلك اللحظة يعتقد بالفعل اني خائن، كما كان من شأنه ان يعتبر كذلك كل من يتجاسر على الوقوف ضده. فلقد كان محباً لنفسه، انانياً كالطفل، وعلى استعداد لكل شيء، كالقاتل المحترف... ولكن ما كاد صدى كلمة «الخائن» هذه يخفت حتى صاحت اولغا اليكسيفنا بصوت لا يقل شدة «اخرس!» ومن جديد، ما كان ذلك صوتها، ما

كانت تلك صيحتها. فقد كانت صيحة حادة كطلقة نار مسدس. وقد خيل الي انها لا تبصر امامها زفياغينتسيف، بل فراراً واقفاً في قفص المحكمة العسكرية...

وبهدوء، وبصوت كامد قالت له:

«انت لست انساناً. انت سافل. لقد كنت تستغل معلومات قسطنطين غيورغيفيتش، وعقله، وطيبته. وقد اعتزمت الفرار، وابقاءه هناك لوحده، على الجليد، هو الرجل العجوز. انك لم تعتزم فعل ذلك من قبل، فقد كنت تخافه. ولكن الحظ واتاك: لقد جرح غلاديشيف، فجاءت الآن ذريعة مؤاتية لفرارك. اجل، لقد سارعت بالانصراف، فقد كنت خائفاً على جلدك. ولكن ما ان بلغت الشاطئ حتى ذهبت في اتجاه معاكس للقاعدة. كنت راغباً في ان ينقضي اكثر ما يمكن من الوقت قبل ان يقدم لاستاذك الاسعاف. كنت تأمل بان هذا الاسعاف ربما لن تكون منه فائدة له وقد نزف دمه. وكنت مقتنعاً بان لن يتهمك احد بشيء: فمن ذا الذي يستطيع ان يحدد كم امضيت من الوقت في مسيرك على الجليد؟ كنت تعرف بالتأكيد ان لن يكون في استقبالك على الشاطئ احد من رجال معهدكم في مثل ذلك النوء. وقد كان التقاؤك بي مصادفة».

كان زفياغينتسيف يصغي اليها وعلى وجهه تعابير الرعب. ولقد تصورت ان اولغا اليكسييفنا تبالغ. فما كان في وسعي ان اصدق ان زفياغينتسيف قد فعل متعمداً كل ما كانت تتهمه به. ربما يكون بنفسيته الرعديدة، قد تحركت في رأسه، كالدودة حقاً، فكرة دنيئة مؤداها ان الكارثة التي حلت بي كان يمكن ان

24—871

تكون مخرجاً ممتازاً له... اما ان اصدق ان زفياغينتسيف قد تركني متعمداً، والدم ينزف مني، وأجل ظهوره في القاعدة، — اما هذا فما كان بوسعي ان اصدقه!

ولكن اولغا اليكسييفنا كانت لا تعرف الرحمة. وقد تابعت كلامها، غير مفسحة لزفياغينتسيف المجال لتجميع افكاره وللجواب:

«لقد بدأت خطابك الدفاعي بالحديث عن زماننا. فاية علاقة لزماننا الحاضر بك؟! ان ما يتحدث به الناس عنك تسميه دسائس وشائعات كاذبة. كلا، ان هذا الكلام هو الحقيقة ذاتها، أتفهم، الحقيقة ذاتها! في الزمن السابق، كان من شأن الناس ان يخافوك، كان في وسعك ان تصبح احد الذين كان الآخرون يكتبون لهم الاطروحات والتقارير — يكتبون ويخشون ان يتبسوا ببنت شفة! وبالنيابة عنك كان يمكن ان يشتغل اناس من نوع غلاديشيف. ظلوا سنوات يجمعون الخبرة والمعارف، ذرة فذرة، ويتجمدون برداً على الجليد، والرياح تلقي بهم ارضاً، الا انهم كانوا يهبون واقفين، ويتابعون السير من جديد، لانهم كانوا يعرفون واجبهم! اما انت فكان من شأنك ان تلتصق بهم كالعلقة، فتتدفأ باجسادهم وتمتص ادمغتهم. اننا نعرف اساليبك. كان من شأنك ان تضرم في كل مكان الشبهة، والخوف، وعدم الثقة بالناس. لقد رأينا اناساً ممن هم على شاكلتك! ولكن، الا فافهم ان قد انتهت الايام التي كان فيها الوصوليون ينجحون هنا وهناك. وقد اصبح الناس الآن اكثر يقظة، وصدقاً، وصراحة. انهم لا يحتملون ادنى نفاق، انهم

سريعاً ما يميزون المتكيفين والوصوليين. لقد ارتكبت، يا زفياغينتسيف، خطيئة غير مغتفرة بالنسبة لتحسباتك. فقد خيل اليك فجأة ان قد حل زمانك. ولكنه ليس زمانك وانت نفسك تدرك في اعماق نفسك انه ليس زمانك. انك انما تبالغ في تقييم نفسك، وكفاءاتك التمثيلية. واغلب الظن انك كنت تقول لنفسك: هذا الوقت وقت الناس الشجعان، الشرفاء، البواسل، ايوه، اما ترى تنطبق علي هذه الاصناف كلها؟ كل شيء جانبياً، يبدو ممتازاً: فانا شاب، وقد جئت الى هنا، الى شاطىء بحيرة «تايوجنويه» المقفر، غير هياب للصعوبات، متحرقاً على العلم — فمنذا الذي يقيض له ان يدرك ما في داخل نفسي؟ منذا الذي يميزني عن الآخرين، الشرفاء حقاً، الشجعان حقاً؟ ولكنهم عرفوا معدنك. فهموا من انت. وما كان يمكن ان يكون الامر غير ذلك. لانه زماننا الحاضر، لا زمانك. انه زمان امثال غلاديشيف، شباناً وشيوخاً. زمان الناس الشرفاء... أمفهوم لديك هذا؟ انا اعرف انك الآن واقف ولا تفكر الا بأن اطيل الكلام. انك بحاجة لكسب الوقت، بحاجة لترتيب وتجميع افكارك. وانا لن اتيح لك هذه الفرصة، أتفهم، لن اتيحها لك. على الجبهة، في طريقي من مؤخرة العدو الى جماعتنا، اتفق لي ان اطلقت النار على خونة وفراريين. والآن سلم، لا حرب، وليس معي ايضاً سلاح، ولكن بدلاً منه يوجد هذا!..»

وانحنت اولغا وتناولت من الارض قضيباً مشتعل طرفه بالنار. ثم هبت واقفة، ورسم طرف القضيب المتوهج قوساً ولطم زفياغينتسيف على وجهه.

«هذه لك ثأراً لغلاديشيف!» — اطلقت هذه الصيحة، وتقدمت خطوة اخرى نحو زفياغينتسيف...

وهرعت صوب اندريه موقناً بانه سيدافع عن نفسه، وقد ينقض على اوليا.

ولكن تخوفي كان في غير محله. فبعد الضربة الاولى تراجع زفياغينتسيف، محني الظهر، اما حين خطت اولغا الى امام ورفعت من جديد سوطها المتوهج، فقد غطس في هذه الادغال... وسمعت خشخشة عيدان يابسة تتكسر وحفيف اغصان. فقد هرب زفياغينتسيف...

وفي اليوم التالي كان قد انمحق من أفقنا كلياً...

وقال غلاديشيف:

— اي نعم، هو ذا كل ما كنت اريد ان اتحدث به اليك. ولقد اخرتك كثيراً، على ما ارى.

— كلا، — قال زافيالوف وهو يمعن النظر الى قطع الفحم المغطاة بالرماد.

— لم تعد شوربة السمك صالحة. — ونظر غلاديشيف الى الطنجرة — لقد بردت، وشوربة السمك اذا ما سخنت فقد انتهكت حرمتها.

— لا يهم، ليست بي رغبة للطعام اطلاقاً.

— كان ينبغي ان نأكل الشوربة من قبل. على انه كيف يمكن تناول العشاء دون استيضاح جوهر الامر. لعلنا، اذن، نشرب؟

وتناول زجاجة صغيرة.

– في الحق، ليست بي رغبة. – قال زافيالوف – ألا تتكدر؟ يبدو لي اني الآن ارى اوليا فعلاً. كلا، ليست «ارى» هي الكلمة. ليس في وسعي ايجاد الكلمة الملائمة... بالاختصار، انها هنا، في مكان ما، على مقربة. فلك الشكر على انك جئت بي الى هنا... واما الفودكا فانها قد تبدد كل هذا. مفهوم؟

– بلى. ولكن يبدو لي انك محزون. بيد انه ربما كان يجدر الانشراح. فقد وجدتها!

– كلا، ما انا بمحزون على الاطلاق. ربما قليلاً جداً. من جراء الشعور بما قضينا من سنين ونحن لسنا معاً.

– غداً ستراها. فتبلغها تحياتي.

– نعم، نعم. حتماً. ولدي توصية مماثلة.

– طيب – قال غلاديشيف – فهيا اذن نرجع...

واخذ يدوس على قطع الفحم غير المنطفئة بعد، وافرغ الطنجرة من شوربة السمك الباردة، ومسحها بالورق، وطوى سكينه... وحمل على ظهره كيسه الخيش نصف الفارغ، وقال:

– انتهينا، هيا بنا.

وما مضت بضع دقائق الا وكانا على الهضبة قرب البناية الخشبية الطويلة. ومن جديد رأى زافيالوف بحيرة «تايوجنويه». الجبال البعيدة تترامى في الماء، والرأس المرتفع فوق سطح البحيرة اشبه بمكواة هائلة. وكان ثمة زورق وحيد واقف بلا حراك على الماء الرصاصي. يقف فيه رجل ممسك امامه لسبب

ما بمجذف طويل، كما يمسك الجذاف بعصاه الطويلة في اللوحات الصينية.

ونزلا الى الطريق المعبدة.

وقال غلاديشيف:

– امامك الآن مسيرة قرابة مئة متر الى موقف الباص. فالوداع. قد لا تتاح لنا الفرصة للالتقاء مرة ثانية.

فاجاب زافيالوف:

– لا تستعجل التنبؤ. ان جميع دروب الناس مترابطة. وقد اقتنعت بهذا مرة ثانية. فشكراً لك.

– على ماذا؟

– على حديثك. على اوليا.

– لقد انقذت حياتي، يا زافيالوف. وربما اكثر من ذلك.

– وما يمكن ان يكون اغلى من الحياة؟

– الايمان. الايمان بما ينبغي ويجدر العيش في سبيله. الايمان بان خيار الناس اكثر من الاشرار. فالوداع.

ومضى زافيالوف قدماً نحو موقف الباص. ثم التفت ولوح بيده لغلاديشيف. والتفت من جديد حين بات على مقربة من الموقف. فرأى غلاديشيف للمرة الاخيرة. كان قسطنطين غيورغيفيتش يسير ببطء على الطريق المعبدة الضيقة كأنها الشريط، كأنها شفرة السيف تقطع ما بين التايغا والبحر.

٢٢ ـ لوكاشيف يؤدي واجبه

لم يكن في الباص غير قاطع التذاكر، وشاب وفتاة جالسين على المقعد الامامي.

فجلس زافيالوف بعيداً لكي لا يزعج العاشقين. كان لا يرى غير ظهريهما، اما الوجهان فما كان يراهما. كان الشاب يطوق كتفي الفتاة بساعده. ومن حين لآخر، كان يرفع يده، وبأناة يمر كفه على شعرها، بالكاد يلامسه ملامسة. واذ ذاك تميل برأسها قليلاً الى وراء. لا شك انهما كانا في سعادة.

وزافيالوف، الجالس وحيداً على المقعد الخلفي، كان سعيداً هو ايضاً. وسيارة الباص تلك، كانت سيارة السعداء. ولقد ود زافيالوف لو يسير الباص على نحو ابطأ لكي يبقى وقتاً اطول في خلوة مع فرحته. كان يشعر بنفسه كأنه العدّاء الذي بات يرى امامه الشريط المرتجى الكاشف عن نهاية الشوط، والذي سبق الجميع بمسافة كبيرة، فهو يعرف ان لن يستطيع احد انتزاع النصر منه.

ما كان زافيالوف على عجلة من امره، لأن اوليا كانت قد باتت على مقربة منه. ولقد كانا جالسين احدهما قرب الآخر، شأن هذين العاشقين على المقعد الامامي.

كان يتكلم معها، وهي تجيب. وما كان يسمع صوتها احد سواه. هو وحده. والسنوات الطوال ما عادت قائمة بينهما. وما كان الزمن قد فصل بينهما. انه الآن من جديد معها. لا مع شبح، ولا مع صورة غير متجسدة، على صفحة المجلة، بل معها، مع اوليا اليوم الحية.

كان زافيالوف في سعادة. مثلما كان ساعة جلس في الطائرة للمرة الاولى وتناول دفة القيادة. مثلما كان ساعة اسقط طائرة معادية للمرة الاولى. مثلما كان حين رأى اوليا في مطار الجبهة. حين كان مستلقياً قربها على العشب الكثيف والنجوم تنظر اليهما. حين عرف انها حية. حين شعر بالنفحة الدافئة على وجهه وادرك ان الحياة كلها امامه. كان في سعادة. سيجتمعون ذات يوم جميعاً في مكان واحد: اوليا، وهو، وكوروستيليوفا، وارسيني بافلوفيتش، وبروخوروفا وابنتها، واوسوكين، وقسطنطين غيورغيفيتش... ومن ايضاً؟.. بلى، بلى، والمصور سلافا فيلونوف، وبافليك شيفلياغين، واولئك الذين نسيهم الآن، الا انه سيتذكرهم حين يحل يوم التلاقي السعيد.

وراح يجري مع اوليا حديثاً هادئاً غير مسموع:

«سنجتمع معاً كلنا، مليح؟» ـ سأل زافيالوف.

فاجابته: «نعم، نعم، طبعاً».

«هنا عندك، على شاطئ البحيرة، في التايغا، وربما في المكان ذاته الذي سبق ان كنت فيه، وكنت انا فيه منذ وقت جد قصير. او عندي، في موسكو...»

«بلى، بلى – كررت القول – هنا على بحيرة «تايوجنويه»، او عندك في موسكو».

«ما يزال علينا ان نفكر في كثير من الامور، وان نقرر اين سنعيش. اغلب الظن انك لم تعودي تستطيعين العيش هناك حيث الكثير من الهدوء. أليس كذلك؟ لا توضحي، اني اعرف كل شيء...»

«اجل، اجل، قد لا استطيع...»

«ولكني في الحقيقة طيار سابق، كلا، كلا، لا سابق! هذه زلة لسان، اني طيار حالي، وانا ايضاً ساعيش هناك، حيث الطائرات...»

«انا عارفة، عارفة بكل شيء...»

«لم يعد يمكن الفصل بيننا، لقد بتنا معاً على مدى العمر، ولقد طال علينا الزمن ونحن مفترقان، لقد فصلت بيننا سنوات قاسيات. ولكنها مضت، وحل الآن زمان جديد، هو زماننا. ولن يكون له انقضاء ابداً، انه زماننا الطيب، زمان الناس الشرفاء».

ورفع ساعده، ومر براحته على شعرها المنسرح الاملس – شأن ذلك العاشق الجالس في المقدمة. ولقد احس بنعومة شعر اوليا وبحركة رأسها وقد مالت به قليلاً الى وراء – شأن تلك الجالسة في المقدمة...

كان لوكاشيف واقفاً لدى النافذة، وظهره الى الباب. فالتفت حين دخل زافيالوف المكتب لاهثاً. فقد انطلق من موقف الباص الى مقر لجنة المدينة بسرعة توشك ان تكون ركضاً.

– تفضل اجلس، يا فلاديمير اندرييفيتش – قال لوكاشيف مشيراً الى مقعد قرب الطاولة.

– انا عارف كل شيء، كل شيء – قال زافيالوف مبتهجاً وهو لا يكاد يتمالك انفعاله – انها هنا، قريباً جداً، وانت كذلك عرفت عنها، بلى، عرفت؟

– اجل، عرفت عنها – قال لوكاشيف في بطء واناة الا انه، لأمر ما، ما كان ينظر الى زافيالوف. – اجلس، ارجوك، اجلس.

اف! وما حاجته الى الجلوس؟.. اما ترى يفهم هذا الرجل ان ليس لدى زافيالوف متسع من الوقت، وانه يحسب الدقائق والثواني...

– أترى... – ابتدأ لوكاشيف القول ولكن زافيالوف قاطعه بفرح وانفعال:

– بربك لا تطل الامر! فانا اعرف كل شيء، وليس في هذا بالنسبة لي اي سر. اني اعرف كل شيء! انها تشتغل بالمحركات الجديدة، تجرب انواعاً جديدة من الوقود. أرأيت، اني اعرف كل شيء!..

– ايوه، فانت بالتالي تعرف اكثر مما استطيع ان احكي لك – قال لوكاشيف، ودنا من الطاولة، وراح يفحص اوراقاً

عليها. وقد ازاحها جانباً بعناية، ووضع اقلام رصاص وريشة في كأس من البلاستيك. — وبالمناسبة، لقد حاولوا بكل جهد ان يثنوها عن ذلك — قال لوكاشيف وهو ما يزال يتحاشى النظر الى زافيالوف — تكاد لا توجد نساء في هذا العمل. فهو يتطلب معارف خاصة. ورجولة... وقد اقترحوا على اولغا اليكسييفنا العمل في المختبر. ولكنها قالت انها تريد ان تكون لدى المحركات وان قلبها يخفق بمزيد من الاطمئنان قرب المحرك العامل. ولعلك في الارجح قد سمعت ان رجال الطب اخترعوا جهازاً خاصاً يعمل بضبط وايقاع. يصلونه بشكل ما بالقلب المتعب لدى احد الناس، فيروح يخفق بصورة طبيعية، خفقان ذلك الجهاز. لعل اولغا اليكسييفنا انما كانت تقصد هذا بالذات...

— اعرف كل هذا — قاطعه زافيالوف — اني اعرف عنها اكثر مما تعرف انت بمئة، بألف مرة!..

— ففي هذه الحال — وتطلع لوكاشيف الى عيني زافيالوف المرة الاولى خلال هذا الحوار — لا بد انك تعرف النهاية ايضاً. فانت طيار، يا زافيالوف، وتعرف ان بعض المواد، في الحال السائلة وفي الحال الصلبة، تملك خاصة الاحتراق والانفجار...

ومضت ثوان. وفجأة انتصب زافيالوف وانكفأ الى وراء. هكذا جرى له حين انفجرت قذيفة مدفع مضاد للطائرات، المرة الاولى في حياته، على بعد عشرة امتار من طائرته، واعماه لحظة وهج ساطع. فاهتزت الطائرة هزة عنيفة، وظل زافيالوف جزءاً من الثانية لا يعي شيئاً سوى الضوء الساطع في عينيه والضجة

في اذنيه. كان يومذاك ما يزال طياراً غراً، فحاد غريزياً عن الانفجار مائلاً بالمقود الى اليسار. والاصح انه قد خيل اليه ذلك، فليس يمكن للمرء ان يحيد الى اي مكان وهو في حجرة القيادة الضيقة في طائرة مطاردة. كانت تلك اول مهمة قتالية يقوم بها، وحين عاد من المهمة، وراء قائد سربه، كان يطير في سماء صافية لا سحاب فيها. وما كانت على مد بصره اية طائرة معادية، وما كان في السماء، على ما يبدو، اي شيء ينذر بالخطر. ولكن ما لبث ان تغير كل شيء في لحظة: لقد وقعوا تحت نار المدافع المضادة المموهة جيداً.

والآن، كما في ذلك الحين، كان الضوء الاحمر يغمر كل شيء امام عيني زافيالوف. ثم راح هذا الضباب الاحمر يتبدد، واخذت الجدران والطاولة والمقعد تسترد حدودها الواقعية المألوفة. ورأى زافيالوف لوكاشيف واقفاً بالقرب منه يسنده من كوعه.

— لا لزوم لذلك — قال زافيالوف بصوت حاد، بل قاس.

«كلا — قال لنفسه — كلا، ان في الامر شيئاً غير مضبوط».

قال هذا بفكره، وكأنما هو مسموع في الوقت نفسه. وبكل اطمئنان، باطمئنان كأن لم يحدث اي شيء فظيع، بل شيء من سوء التفاهم، او طارئ بسيط. ماذا قال هذا الرجل؟ ولماذا؟ ايه، حقاً انه لا يعرف شيئاً البتة! لقد تلفن لمكان ما، واتصل بشخص ما، هذا الشاب الذي، لأمر ما، يسنده من ساعده... اما هو، زافيالوف، فقد كان منذ لحظات واقفاً في المكان ذاته

الذي كانت تقف فيه اوليا منذ وقت غير بعيد. انه الآن سيستوضح كل شيء. الآن، منذ ان تكف هذه الغرفة عن الاهتزاز، منذ ان تهدأ ابر الاجهزة، منذ ان تتخذ الطائرة مجراها الطبيعي... الآن سيعود كل شيء الى حاله الطبيعية، ويحتل كل شيء مكانه. واذ ذاك سيسأل...

«كلا، ليس ينبغي السؤال عن شيء – قال زافيالوف لنفسه – لن اسأل عن شيء. سابرح الآن هذه الغرفة. وبعد ذلك سادخلها من جديد. يخيل الي فقط اني واقف هنا. وما هذا بصحيح. سيزول الآن كل شيء. ان الامر ملتبس نوعاً ما على لوكاشيف هذا. ليس ينبغي سؤاله عن شيء ابداً. فقد يشوش شيئاً ما ايضاً. واذ ذاك لن يعود في وسعك اصلاح شيء. لا لزوم لذلك. لا لزوم. سانسحب الآن. ساذهب اليها بنفسي. انها هناك».

وحاد زافيالوف خطوة وسأل:

– متى؟

فقال لوكاشيف:

– منذ وقت غير بعيد. قبل شهرين فقط، وما كنت بعد في هذه المدينة. كانوا يجرون تجارب جد معقدة وهامة. والرفاق يؤكدون ان الوقود الذي كانت تشتغل في صنعه اولغا اليكسييفنا يمكن، لدى حيازته، الارتفاع في الجو الى علو مئات الكيلومترات.

واضاف قائلاً:

– حدث الانفجار بصورة غير متوقعة. ومثل هذه الانفجارات تحدث دائماً على نحو غير متوقع..

وحل صمت.

– ولكن... كيف كان الامر كذلك؟ – سأل زافيالوف – يعني، حين كنت اراها على صفحة المجلة، كانت قد... كانت ما عادت من الاحياء؟ وحين كان سوكولوف... واوسوكين... والآن، غلاديشيف هذا منذ لحظات... ولكنها هي ما عادت من الاحياء؟..

«كلا، كلا، كلا! – صاح لنفسه – انك من جديد تسأل، من جديد رحت تسأل، مع انك تعرف انك اذا طرحت سؤالاً آخر فلسوف تقتلها. ستقتلها الى الأبد. فاسكت، اخرج، اهرب من هنا الى هناك، الى المرج، حيث فحم الموقد ربما يكون ما يزال مشتعلاً!..»

– حدث ذلك في الثاني عشر من ايار (مايو)، يا فلاديمير اندرييفيتش، – قال لوكاشيف بصوت خافت ولكن بحزم – لقد استشهدت اثناء ادائها واجبات الوظيفة. وواروا جثمانها الثرى هناك، حيث يدفن الابطال الذين سنظل وقتاً ما لا نعرف اسماءهم... هل تلفنوا لك باسمي الى الفندق؟

– نعم، – اجاب زافيالوف بدون صوت.

– كانوا اذ ذاك قد رووا لي كل شيء. ولكني ما كنت استطيع التحدث عن هذا بالهاتف. كان من شأن هذا ان يكون شديد القسوة. رجوت منك لذهاب الى شاطئ بحيرة «تايوجنويه»... أكنت هناك؟

– نعم.

– حين اشرت، وانت تتحدث عن تحرياتك، الى بناية خشبية طويلة، ادركت على الفور ان الأمر يتعلق بالنادي السابق لذلك المعهد. فوددت ان ترا ها. فهل وفقت لرؤيتها؟

– نعم. كنت هناك. تكلمت مع رجل كان يعرفها.

– كنت اود ابعاد اللحظة الحاضرة اقصى ما يمكن... افساح المجال لك... للشعور ولو قليلاً بانها حية. هذا كل ما كان في وسعي، ايها الصديق... فاعذرني.

– المعذرة؟ على اي شيء؟

– على اني لم استطع ان احمل اليك نبأ مفرحاً. يبدو لي في بعض الاحيان ان كل شيء يمكن ان يفرح الانسان، اذا كانت لديك الرغبة الكافية، وبذلت قصارى الجهد غير موفر قواك، واذا ما عملت بحزم، بمزيد من الجرأة والشرف، واذ ذاك يمكن ان يجلب كل شيء الفرح للانسان... ولكن لهذا حدوداً، كما ترى.

وبسط ساعده على كتف زافيالوف.

– شكراً – قال زافيالوف – ما انت بمسؤول عن شيء... وليس واجباً عليك قط ان تقدم لي النعي...

– كلا – قال لوكاشيف بأناة – انه واجبي. هذا ايضاً واجبي. هل ستعود الى موسكو؟

– نعم. باول طائرة.

– ذكرت لي كم لقيت من ناس في طريقك الى اولغا اليكسيفنا. وقلت انك تتذكرهم جميعاً. فلا تنسني انا ايضاً، يا زافيالوف.

– نعم، طيب – اجاب بصورة آلية.

– لقد ادركت من كانت بالنسبة لك، حين بدأت تحرياتك.

«وما الادراك هنا؟ – قال زافيالوف في نفسه – كل شيء يتلخص في كلمتين قصيرتين: «نعم» و«لا». «نعم» – كالسهل بلا حدود، كالبحر. و«لا» – كالجدار. وقد اصطدمت بالجدار. وانتهى الامر».

وتابع لوكاشيف قائلاً:

– لقد عانيت ساعات جد ثقيلة. حين انبأوني عن وفاتها وتصورت كيف ساحدثك عن هذا، فكرت... أتعرف بماذا فكرت؟ فكرت باني لو كنت قد غادرت مقر لجنة المدينة قبل حين، لما كنت التقيت بك قط... هكذا. وترى اني لا اكتمك شيئاً. ولكني رحت بعد ذلك افكر بأية كلمات انقل لك كل هذا. كنت جالساً في الاجتماع الانتخابي، ولكنك كنت طول الوقت نصب عيني، وكان يؤلمني عجزي عن ايجاد الكلمات الصحيحة...

– ما انا في حاجة لكلمات. أيمكن ان تفهم هذا؟

– ... فبدا لي فجأة اني انت – تابع لوكاشيف غير سامع اياه – واذ ذاك ادركت ما كانت هذه المرأة بالنسبة لك. كانت الحلم الذي تحلم به. كانت حبك. كانت جزيرة صغيرة ضائعة في مكان ما. ولقد بذلت قصارى جهودك لكي تحدد نقطة وجودها، ثم لتتوصل اليها وتسبح اليها مهما كلف الامر. كنتما وحدكما فقط، اول الامر، انت وهي. وما

من احد بينكما. أكان الامر كذلك حقاً، يا زافيالوف، أكان كذلك؟

وظل زافيالوف صامتاً.

وتابع لوكاشيف:

ـ اغلب الظن انه كان يبدو لك انك قد بدأت تحرياتك لمجرد انك كنت تحبها. وطبيعي ان القضية كلها هنا. ولكن قد لا تكون في هذا فقط... فلربما كنت شديد الرغبة في ان تبدأ شيئاً ما من جديد... ان تدخل في غمار حياة جديدة عليك، يقوم في اساسها الوفاء لما تؤمن به. الشرف. الصفاء... أفيمكن انك لن تعود الى الحياة لمجرد ان المرأة التي كنت تبحث عنها كانت تسير في الدرب نفسه، الا انها استشهدت، دون ان تبلغ نهاية الدرب؟ انها لم تعد في الوجود، ولكن قلبها ما يزال يخفق مع الالوف من القلوب الاخرى. وما دمت حياً، فهي ايضاً حية. وما دام هؤلاء الناس في الوجود، فستكون حية. وحين لن نكون نحن في الوجود، ستظل هي حية. شأنها في ذلك شأن الناس الذين سيعيشون من بعدنا. ولعلي انا لا اقول ما ينبغي. لا شك ان عليّ ان اقول غير هذا تماماً. ان اسقيك ماء، ان استدعي طبيباً على كل حال، واكرر: «صموداً، ايها الطيار، فلا بد، برغم كل شيء، من العيش والعمل». ولكني لا استطيع الى التعزية سبيلاً. ربما لم آلف ذلك بعد. فانا ما ازال امين لجنة مدينة شاباً... اذن، بطائرة الصباح؟

ـ نعم ـ اجاب زافيالوف ـ بطائرة الصباح...

ـ أما تريد ان تقول لي اكثر من ذلك؟

25—871

ـ كلا. ربما هذه المسألة فقط. شارع ماركس، رقم ١١... اسمها فاليا.

ـ فاليا؟ اية فاليا؟

ـ انها بحاجة لمساعدة. تحدث معها فتفهم كل شيء بنفسك.

ـ هنا كل شيء؟

ـ نعم، هذا كل شيء.

من هنا ـ الى النجوم!

(بدلاً من الخاتمة)

... في صباح يوم من خريف ١٩٥٧، اطلق القمر الاصطناعي الاول في العالم. ولقد اطلقه اناس سوفييتيون.

وفي لحظة قصيرة غصت وصمتت محطات الاذاعة في العالم، قاطعة برامجها العادية، لتسترد وعيها من الدهشة وتستعيد انفاسها، وتنشر على البشرية انباء عديدة عن بداية عصر من الحضارة جديد.

وما هي الا لحظة حتى دخلت هذه الكلمة الروسية، «سبوتنيك»، لغات شعوب العالم جميعاً. «سبوتنيك» في جميع اللغات «سبوتنيك». ولجميع الناس.

واما الحادث الثاني، وهو لا يضاري الاول من حيث الاهمية، فما عرف به غير بضعة اشخاص. ففي ذلك الصباح، كان على الطالب في نادي الطيران بموسكو بافل شيفلياغين، وقد انهى دراسته النظرية، ان يطير للمرة الاولى على طائرة «ياك ـ ١٨» التدريبية. وعشية ذلك اليوم، كان قد قام بـ «الاستعداد المسبق» المقرر بالنظام الداخلي، واستمع الى المدرب مرة اخرى، واجاب مرة اخرى على اسئلته. وكان عليه صباح اليوم ان يتحدث مع المدرب مرة اخرى، ويقوم من جديد بالاستعداد

الذي بات يسميه الآن استعداد ما قبل الطيران، وبعد ذلك يأخذ مكانه في الطائرة، وعلى ظهره المظلة. كان هذا الحادث، بالنسبة لبافل شيفلياغين، ضخماً كالعالم.

ولقد كان زافيالوف ايضاً يعطي هذا الحادث من القيمة اكثر بكثير مما لانطلاق عادي يجري به طالب مستجد اول تحليق اختباري. منذ خريف العام الماضي كان قد انتقل الى التحليقات. وخلال السنة الماضية كلها لم يقل كلمتين لرئيس قسم الملاكات في نادي الطيران العميد المتقاعد سيمونيوك. والآن، وقد كان على المدرب الجديد ان ينظم وثائقه من جديد، فقد كان سيمونيوك ينتظر ان يعود زافيالوف الى الكلام معه اخيراً. ولكن المقدم في الاحتياط فلاديمير زافيالوف، المسموح له من جديد بالطيران، حين دخل قسم الملاكات، سجل الاوراق الضرورية صامتاً، ووقع وانصرف صامتاً ايضاً.

كان زافيالوف قد عرف باطلاق السبوتنيك في ساعة مبكرة من الصباح، وهو في القطار الكهربائي، في طريقه الى المطار. وفيما كان يغادر القطار، رأى على الرصيف بافل شيفلياغين. كان بافل في انتظاره. فما كاد يبصر زافيالوف حتى هرع اليه صائحاً: «سبوتنيك، سبوتنيك!..»

وسارا معاً في الطريق غير المعبدة، المؤدية من المحطة الى المطار.

كان بافليك يتكلم بلا انقطاع. وكانت قد رسخت في هنه الى الأبد جميع الارقام والمعلومات المعلنة في نبأ وكالة «تاس». فكان ما ينفك يكررها ويكررها، طارحاً الأسئلة على افيالوف، وما لاحظ على الفور ان مدربه، الرجل الذي لم

يكن في العالم اذ ذاك اعز منه عليه، منكمش وصامت على غير عادته. فسأله بقلق مكتوم:

ـ ماذا بك، يا فلاديمير اندرييفيتش؟ انا... لن اطير اليوم؟

فاجاب زافيالوف بصوت خافت:

ـ كلا، ستطير.

وكرر بصوت اعلى:

ـ ستطير.

وكانت هذه الكلمات كافية لكي يشعر بافل من جديد بكل سعادته الكاملة.

وعند بوابة المطار، التقيا بسيمونيوك.

فراح يصيح من بعيد:

ـ أسمعت، يا زافيالوف، أسمعت؟ سبوتنيك!

فما اجاب زافيالوف بشيء. واكتفى بان يقول للعميد بصوت خافت، وهو مارّ به، كلمات لم يسمعها بافليك الماشي قيد خطوتين بعيداً عن زافيالوف.

ولكن سيمونيوك سمع هذه الكلمات: «وما شأنك انت في هذا، يا سيمونيوك؟» ـ هذا ما قاله زافيالوف للمرة الاولى منذ ذلك اليوم المشهود الذي قطع فيه على نفسه عهداً بان «لن تكون مرة ثانية».

واجتاز زافيالوف وبافليك ساحة المطار الخضراء. ومن نوافذ الادارة المفتوحة كان يصل اليهما صوت الراديو: كان المذيع يقرأ ويعيد الانباء عن السبوتنيك.

هرج ومرج فوق العادة سائدان لدى سيارة مسقوفة، مصبوغة بشكل مربعات الشطرنج. فقد كان الجميع محتشدين هناك، لدى نقطة قيادة الانطلاق: الطلاب، والمدربون، وموظفو المطار. فكلما جاء اليهم احد قادماً من البوابة، كانوا يستقبلونه مرددين: «سبوتنيك! سبوتنيك!». واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان تم اجتماع جميع الذين كان عليهم ان يكونوا هناك في ذلك الصباح.

واعلن نائب رئيس نادي الطيران بداية التحليقات. واقترب زافيالوف وبافليك من الطائرة، التي كان ينبغي لهما ان يطيرا فيها. كانت طائرة تدريبية مصبوغة بلون اخضر. وكانت الشمس تشع على زجاج القبتين المغطيتين لحجرتي الطالب والمدرب. واعلن الميكانيكي لزافيالوف ان الطائرة جاهزة.

ـ أنبدأ، يا شيفلياغين؟ ـ سأل زافيالوف.

كانا واقفين قرب الطائرة، تفصل بينهما صرتان خضراوان موضوعتان على العشب، انهما مظلتان شبيهتان بمخدتين.

ـ اسمعني يا شيفلياغين. ـ قال زافيالوف، بادئاً الاستعداد التقليدي لما قبل الطيران. ـ وهكذا، ساقوم انا نفسي بالاقلاع. وانت ستمسك المقود باليد اليمنى، وتضع اليسرى على قطاع الغاز، وتحط قدميك على الدواستين. وعملك في هذه الاثناء هو مجرد امساك المقود بخفة، والنظر...

وفجأة سكت زافيالوف. بدا له ان بافليك لا يصغي اليه. كان انتباه الطالب مشرداً ـ وهذا امر غير مسموح به وقت التدريب السابق للطيران.

ورفع زافيالوف صوته، محاولاً الكلام بشكل صارم :

– منذ الدوران الثاني، وجه كل انتباهك الى المنظر العام للمطار. انك ملزم بان تتطلع اليه كما لو كنت تصوره بعينيك. وبعد ذلك، ستحكي لي كل ما تتذكر. وبعد الدوران الاول – وستكون هذه الحلقة الثانية فوق المطار – ساسلمك المقود... الى اين تنظر، ايها الطالب شيفلياغين؟!

حتى هذه الصيحة الحادة لم تخرج بيافليك من ذلك الوضع الغريب – وكان زافيالوف يشعر بهذا – الذي كان موجوداً فيه.

هو ذا واقف امامه، فتى قصيراً حاد الانف، يرتدي البزة الزرقاء، وبيده قبعة الطيران، ينظر الى مكان ما من فوق كتف زافيالوف. واذا به يتمتم بشفتيه فقط :

– اني اراه... اراه...

– ما ترى؟ من؟!

– سبوتنيك... انظر، يا فلاديمير اندرييفيتش، انظر! أما ترى النقطة الفضية، أما ترى؟

والتفت زافيالوف، ونظر الى الجهة التي تشير اليها يد بافليك شيفلياغين.

كلا، لم ير زافيالوف شيئاً. لم ير الا الافق المغطى بضباب الصباح، والا الغابة البعيدة الخضراء المشرقة وقد غسلها مطر الامس.

– قيل هناك – تابع بافليك كأنما هو في غيبوبة – ان من الممكن رؤيته بالعين المجردة. اني اراه، اراه! انظر!..

فقال زافيالوف بصبر فارغ :

– لست اميز شيئاً. وفي الحق ان من غير الممكن رؤيته نهاراً، والشمس ساطعة...

فقاطعه بافليك بالحاح حار :

– كلا، كلا! الا فانظر، انظر. ها هو، ها هو هناك! أصحيح انك لا تراه!؟ نقطة فضية صغيرة... كرأس الدبوس... يسبح فوق الأفق... هو ذا، هو ذا!...

– واين، اين؟! – صاح زافيالوف بصوت عال، مستسلماً بغير ارادته لالحاح بافليك المتفاني. فحدق ببصره تحديقاً بلغ حد الألم، محاولاً رؤية النقطة الفضية غير المرئية التي كان بافليك يراها بكل ذلك الجلاء.

وها هو يبدو له انه قد رآها. بلى، بلى، لقد رآها! نقطة فضية صغيرة. شرارة صغيرة، متوهجة، كانت تسبح فوق الأفق. كان يراها، يراها!.. وكانت قوة خفية لا كابح لها تسير الى امام بهذه الشرارة العجيبة، بهذه القطعة المعدنية المتوهجة. وكلن زافيالوف يحدث نفسه ويقنعها بان هذا لا يمكن ان يكون، وان ليس هذا سوى خداع نظر. ولكنه كلما ازداد اقناعاً لنفسه بهذا، كانت رؤيته للنقطة الفضية السابحة فوق الأفق بمهابة وانتصار تزداد وضوحاً. وما عادت في تصوره نقطة صغيرة، بل كرة متوهجة تنطلق منها ألسنة اللهب والغاز المشع، كأنما هي تنطلق من عنفات الطائرة. وعبثاً كان زافيالوف يكرر لنفسه ان هذا ايحاء للنفس، وان كل عمل الصاروخ مقتصر على ايصال السبوتنيك الى مداره، اما الآن فهو يتحرك تلقائياً،

خاضعاً لقانون الملاحة بين الكواكب، وليس يمكن ان يرى اي لهب...

ومن جديد استولى على زافيالوف الآن الشعور الذي تملكه في عربة القطار الكهربائي حين سمع للمرة الاولى النبأ عن السبوتنيك... فقد كان يفكر باوليا، باوليا فقط، اوليا التي احترقت بنار اللهب الجديد الذي اشعله الناس لانارة الدرب الى النجوم. كان يفكر بان ما يحرك الآن النقطة الفضية فوق الأفق، انما هي حياتها، هي نارها، هي قوة ساعديها، هي خفقات قلبها. ان اوليا لم تستشهد، لم تحترق، انها ستسبح مظفرة فوق الارض، مرئية من كل مكان...

ـ أتراها، أتراها؟! ـ صاح بافليك.

ـ بلى، بلى!

ورنّ صوت مضطرب بعض الشيء:

ـ هل حدث شيء؟

فالتفت زافيالوف. وكان المقترب منهما الخبير الفني. فسأل وهو ينظر الى السماء مظلاً عينيه براحة يده:

ـ ماذا رأيت، ايها الرفيق المدرب؟

فاجاب زافيالوف بصوت خافت:

ـ كلا... لا شيء. كل ما في الامر ان شيفلياغين قد بدا له انه رأى السبوتنيك.

فقال الخبير الفني مبتسماً ابتسامة ساخرة:

ـ وهل يمكن ان تراه نهاراً! كان ينبغي النظر اليه في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والاربعين صباحاً. او في الساعة

الواحدة والدقيقة السادسة والاربعين. ـ واورد عن ظهر قلب نبأ وكالة «تاس».

وتلاقت نظرات زافيالوف وشيفلياغين. واقتصرا على الابتسام احدهما للآخر، كأنما يربط بينهما سر مشترك، فخورين بان قد رأيا ما لا يستطيع بعد ان يراه احد.

وامر زافيالوف قائلاً:

ـ افحص المظلة وإلبسها!

وراح يتابع بانتباه كيف بادر بافليك بحركة واثقة، كأنما هو يرتدي معطفاً، فادخل يده في شيالة المظلة، ملقياً على ظهره في الوقت نفسه بالرزمة الخضراء المشدودة ببضعة اشرطة مطاطية بيضاء. ثم مد يده الثانية في شيالة اخرى فادخل شيالين آخرين بين ساقيه، وقرقع بالقفل الذي بات اذ ذاك على صدره.

واصدر زافيالوف ايعازه: ـ الى الطائرة!

فوضع بافليك قدمه اليمنى على درجة السلّم المعدني، والقى بقدمه اليسرى على المربع المضلع المشدود على جناح الطائرة، وما هي الا لحظة حتى كان جالساً على مقعد الحجرة الامامي ـ مكان الطالب.

وجلس زافيالوف من ورائه. فما كان اذ ذاك يرى وجه بافليك، ما كان يرى غير كتفيه، غير نقرته المغطاة بقبعة الطيران السوداء وخطاً ضيقاً لوحته الشمس من جلد رقبته. ما كان يرى عيني بافليك، ولكنه كان يعرف انهما الآن غارقتان في الاجهزة المتعددة المثبتة على اللوحة وهي المشيرات الى السرعة، والارتفاع، وانعطاف الطائرة وانزلاقها، والواريومتر، والبوصلة اللاسلكية

والبوصلة الجيروسكوبية، التي يتوجب على الطيار النظر اليها اثناء التحليق.

كان يتصور بأي تصميم يستعد بافليك لأن يتناول بنظرته جميع هذه الاجهزة اثناء الطيران ولان يتتبع في الوقت نفسه جميع ما يجري تحت، ويراقب الارض — وهي مهمة لا يستطيع اداءها بعد اي طيار وقت تحليقه الاول.

وابتسم زافيالوف. ونظر مرة اخرى الى القطعة الضيقة من رقبة بافليك الملوحة بالشمس، وشعر فجأة بكل كيانه وبقوة خارقة، كم عزيز عليه هذا الفتى، المستعد للانطلاق الى السماء للمرة الاولى. وفي اجزاء ما من الثانية تذكر زافيالوف ذلك السؤال الطفلي الساذج الذي طرحه عليه بافليك في ذلك المساء حين كان زافيالوف ينتظر ليزا وهو مستعجل للذهاب الى محطة القطار.

يومذاك سأل بافليك أيمكن ان يصل الى الناس ضياء نجم منطفئ خلال سنوات طويلة لا نهاية لها.

وفي نفسه يقول زافيالوف:

«ممكن، يا بافليك، ممكن! ان هذا الضياء يجري خلال سنوات، خلال الوف وملايين من الاعوام. انه يمر عبر الحواجز، عبر وابل النيازك، مخترقاً السدم الكونية، واحلاك السحب واكثفها. انه عملياً خالد هذا الضياء المنبعث من النجم البعيد، وربما المنطفئ. فليس ينبغي الظن بان النجم ينطفئ. ليس ينبغي...»

ومع ذلك فقد ألم به الحزن. فقد لاحظ كيف كان يهتز امامه مقود الطائرة التي ما تزال واقفة على الارض، المزدوج مع المقود الآخر نفسه في الحجرة الامامية. انه بافليك يلمسه،

متكيفاً، ومكرراً مرة اخرى الحركات التي علموه اياها قبل الاذن بالتحليق. ووضع زافيالوف ايضاً يده على المقود السميك الاملس، لمجرد اختبار احساسه. فبدا له انه، بحركته هذه، كأنما امتزج ببافليك، بقلبه، بعقله، بكل كيانه، فارتاحت نفسه.

وراح ينظر الى جناحي الطائرة والنجمتين الحمراوين عليهما. مثل هذه النجوم كانت ترافقه في سنوات الحرب البعيدة. ثم رفع رأسه ونظر الى السماء الصافية، الخالية من السحب، الا انها مغطاة بضباب خريفي خفيف. وشعر بفيض مفاجئ من البهجة. ومن جديد رأى زافيالوف امامه كتفي بافليك ورأسه. «الى امام، يا بافليك، الى امام! الحياة الجديدة تبدأ. فالى امام!»

ولكنه قال هذا كله في نفسه. اما بالصوت المسموع فقد نطق بالعبارة المألوفة النظامية قبل الطيران، الموجهة الى الناس الواقفين تحت، امام الطائرة:

— ابتعدوا عن المراوح!..

محتويات

١ – ذات مساء ٥
٢ – قبل حين من الزمن ٢٤
٣ – بداية الطريق ٣٨
٤ – خضرة زاخرة ونجوم ٥١
٥ – لن تكون مرة ثانية ٧٩
٦ – ارجو مباشرة التحقيق... . . . . ٩٨
٧ – كم حقيقة في العالم؟ ١١٣
٨ – حلقة مغلقة ١٥٤
٩ – «لينا تتكلم!» ١٦٨
١٠ – شعاع ضئيل من النور ١٨٦
١١ – في الربيع الماضي... . . . . ١٩٦
١٢ – امسية اسئلة واجوبة ٢٠٥
١٣ – بافليك يريد ان يطير ٢٢١
١٤ – هذا هو الشارع... . . . . ٢٣٣
١٥ – لن انسى شيئاً ٢٤١
١٦ – اوسوكين ٢٦٦
١٧ – ا. ايفانوف ٢٨٧

١٨ – الى امام، الى امام! ٣٠١
١٩ – الى اللقاء في المساء... . . . . ٣٠٩
٢٠ – لا تصدقها، لا تصدق!.. . . . . ٣١٩
٢١ – نزهة في التايغا ٣٥١
٢٢ – لوكاشيف يؤدي واجبه ٣٩٠
من هنا – الى النجوم! (بدلا من الخاتمة) ٤٠٢

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكي بولفار ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي